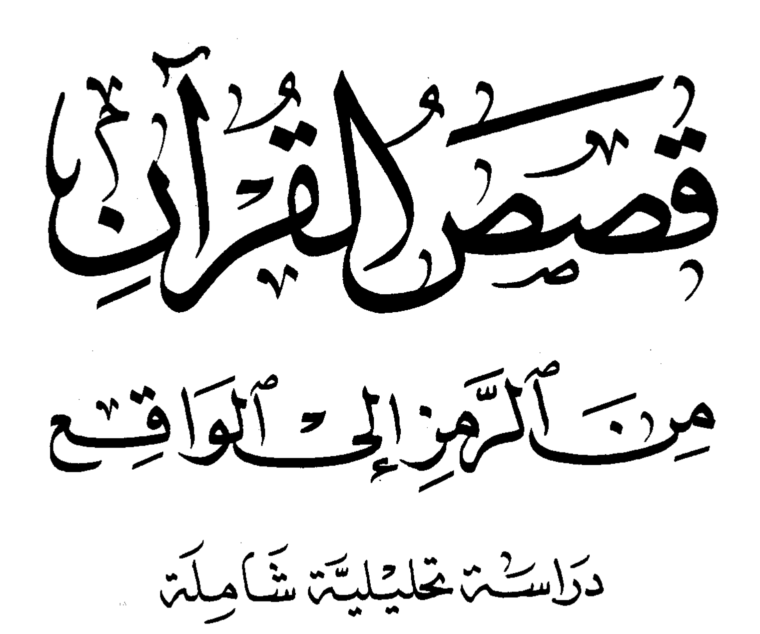
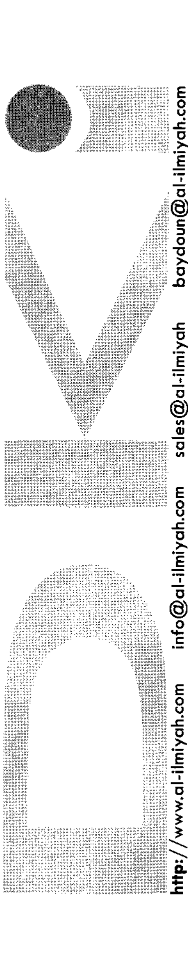


تأليف

الأستاذ الدكتور هادي حسن حمودي





الكتاب : قصص القرآن
من الرمز إلى الواقع
دراسة تحليلية شاملة

Title : Qaṣaṣ al-Qur'ān min al-Ramẓ ilā al-Wāqiʿ

Stories of The Coran
from symbolism to reality
A comprehensive Analysis

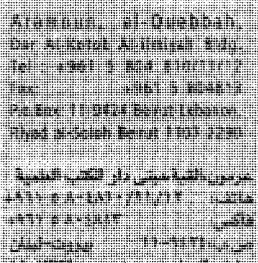
التصنيف : دراسات قرآنية
Classification: Coranic studies

المؤلف : الأستاذ الدكتور هادي حسن حمودي
Author : Prof. Dr. Hadi Hassan Hammoudi

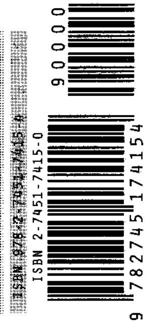
الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت
Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages	320	عدد الصفحات
Size	17* 24 cm	قياس الصفحات
Year	2012 A.D. -1433 H.	سنة الطباعة
Printed in : Lebanon		بلد الطباعة : لبنان
Edition : 1st		الطبعة : الأولى

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon


Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.

ISBN 978-2-7451-7415-4





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

صدق الله العظيم

سورة يوسف/3

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

شاءت إرادة الله، تعالى، أن يخلق الإنسان، فكانت السماوات والأرض، ثمّ كان الإنسان الذي من طين الأرض خُلق، وفي الجنّة بدأ حياته. وكانت إرادة الله أن يكون خليفته في الأرض.

ذلك لأنّ ذات الإنسان مركّبة من الخير والشرّ، ولأنّ الشرّ، في لحظة من الزّمن، انتصر على الخير، خرج آدم من الجنّة، فصار لزاما عليه وعلى أبنائه أن يكدحوا لتيسير سبل عيشهم، أي أن يعتمدوا على أنفسهم في بناء حياتهم، وأن يحقّقوا رسالة الخلق في إعمار الأرض، لأنّ الله "استعمرهم" فيها أي طلب منهم عمرانها. والعمران هنا لا يقتصر على العمران المادّي بل يشمل العمران المعنوي، الروحي والنّفسي، أيضا.

ولذلك احتاج الإنسان - منذ تلك الحقبة، ولكي يستطيع تحقيق ذلك - إلى "هدى" يأخذ بيده نحو ما هو أفضل وأحسن وأكمل. فكانت الرسالات السماويّة التي ساعدته على تطوير تفكيره، وتنمية نفسيّته، ووضعت له المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي تمكّنه من استنباط قوانين يضبط بها مسيرته الاجتماعيّة، ويحقّق عن طريقها، أمنه وسلامه واطمئنانه.

ومن تلك الرسالات السماويّة الإسلام، الذي هو آخر أديان السماء. فاجتمعت في قرآنه الكريم تلك المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي تفرّقت أشتاتها في الأديان الأخرى. ولقد عبّر القرآن عن ذلك بأساليب متنوّعة، منها آيات التشريع وآيات قصص الأنبياء والأمم التي سبقت ظهور الإسلام.

ولقد جعل الله في قصص القرآن الكريم دروسا وعظات للنّاس يستفيدون منها في حياتهم التي أرادها الخالق سعيدة رضيّة رخيّة آمنة مطمئنّة، ولكنّ وساوس النّفس تأخذ بعض النّاس إلى غير الحقّ، فتضلّهم عن الصراط المستقيم. وإلا فإنّ التنزيل العزيز لا

يذكر القصّة لذاتها ومن أجل ذاتها، بل للاستفادة منها واكتساب الخبرة بالاطّلاع على تجارب الأمم الأخرى، السالفة واللاحقة. ولذلك نرى القصّة الواحدة مفرّقة أحداثها في أكثر من سورة، حيث يُنتقى لكلّ سورة من أحداث تلك القصّة ما يوافقها ويوافق غاياتها وسياقها.

ومما ذكره القرآن الكريم من قصص الأمم والأنبياء نستفيد فوائد جمّة يجب علينا أن نمعن النّظر فيها لاستجلاء غامضها وبيان مكنونها، والتعرّف على أهدافها والرسالات التي تريد إيصالها للنّاس.

وللأسف، فإنّ كثيرين مِمّن تناولوا تلك القصص، ومِمّن قاموا بكتابة (تفاسير) للقرآن الكريم، لم يلتفتوا إلى الغاية من مجيء تلك القصص، فانشغلوا بأمور شكليّة أضاعت المضامين فغمُض على كثير من النّاس تلمّس العِبَر والعظات من تلك القصص، واستخلاص المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة، من أحداثها وواقعاتها، وتوظيفها لمصلحة مسيرتهم الحضاريّة في هذه الأرض. أليس من الغريب أن تقع الخلافات التي تصل أحيانا إلى ما لا يُحمد عقباه، في مسائل ثانويّة تماما، مثل الاختلاف في جنس النملة التي كلّمت سُليمان، عليه السّلام، وهل كانت ذكرا أم أنثى؟! ثمّ كيفيّة تسبيح الحيوانات وبأيّة لغة؟! وحين يصف القرآن الكريم مدينة إرم بأنها ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ ﴾ [الفجر: 8] ترى مِنَ المفسّرين مَنْ يقول لك انّها مدينة ليس لها مكان محدّد بل هي تدور حول الأرض. إلى غير ذلك من مسائل يلاحظها كلّ من يتصفّح أيّ تفسير من تلك التفاسير. وسنرى في صفحات كتابنا شيئا من هذا. وإنّما نشير اليه لأنّنا نعتقد أنّ القصص القرآنيّ له أهداف محدّدة، وعلينا أن نفهم تلك الأهداف، وأن نفهم المبادئ العامّة والقواعد الكليّة التي تحملها قصصه وأمثاله، كي نستفيد منها في توجيه سلوكنا ومشاعرنا، أمّا الاختلاف في الجزئيات التي لا تؤثّر في المسار العامّ للقصّة، ولا تنتقص شيئا من أهدافها، فمِمّا لا مبرّر يدعو للتشاغل به والاختلاف الحادّ بشأنه. وكمثال على ذلك نشير إلى شيء مِمّا داخلَ قصّة النبيّين داود وسليمان من خرافات ليس لها أيّ سنَد من آيات القرآن الكريم نفسه، ولا من العلم أيضا. وسنكتفي ببعضٍ من تلك الخرافات لأنّ استعراضها جميعا يُثقل كتابنا بما يمكن الاستغناء عنه.

أساطير شوّهت صورة الأنبياء

وعلى سبيل المثال، ففي قصّة داود وسليمان، عليهما السلام، كثيرا ما يقرن القرآن الكريم بين داود وسليمان، ويصفهما بأنّهما نالا علما وحكما صائبا: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ ﴾ [1]. فالمهمّ هنا العلم، وضرورة سعي المرء لاكتسابه والإفادة منه. ولكنّ المرويات شغلت الناس عن ذلك.

وفي مواضع معيّنة ينفرد كلٌّ منهما بقصته. وعلى الرغم من ذلك فإنّ التنزيل العزيز لا يفصّل مجريات حياة كلّ منهما، وإنّما يعرضهما على النّاس وهما رجلان مكتملا العقل حَسَنا التفكير. فلا نجد ضرورة للخوض في تفصيلات لم يذكرها القرآن، إذ لا نفع فيها، ولا في الخلاف والجدال بشأن ما مرّ بهما وعليهما، وما صدر منهما، قبل المرحلة التي تحدّث عنها القرآن.

في سورة سبأ يتحدّث القرآن عن الفضل الذي حظي به داود، والقدرة التي حظي بها سليمان: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى

(1) سورة النمل 15 – 16.

ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾[1]. فليس من المهمّ، هنا، أن نتجادل في ماهيّة الجنّ، ونختلف في سرعة الريح التي سُخّرت لسليمان، وكيف كانت الجبال تؤوّب معه والطير. ولا في سائر الجزئيّات التي يذكرها النّصّ السالف، لأنْ لا أحد يستطيع أن يزعم أنّه يملك قرارا نهائيا بشأنها.

ولا نشك في أنّ المراد من هذه الآيات، ليس الاختلاف بين النّاس في جزئيّاتها، بل المراد أن نعلم أنّ الإنسان مهما يؤتى من نِعَم وقوّة، فمصيره إلى الزوال والاندثار. وذاك هو سليمان الذي طلب من ربّه مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده، ونال ما تمنّى، آل مصيره إلى الهلاك، حتّى لم يُعرف موته، لولا أنّ دابّة الأرض المَهِينة هي التي أشعرتهم بموته. وليس في ذلك انتقاص لمنزلة سليمان، ولكنّها الحقيقة التي تشمل كل النّاس. وتريد الآيات من النّاس أن يتساءلوا، ولو بينهم وبين أنفسهم: أنّ سليمان، وهو مَن هو قوّةً وعظمةً، قد انتهى تلك النّهاية، فكيف لأيّ إنسان آخر لم يُؤتَ بعض ما أوتي سليمان، يأمل بالخلود، ويأخذه ذلك الأمل إلى ظلم النّاس والعدوان عليهم؟! وهذه الفكرة من شأنها أن تقود النّاس إلى طريق الرشاد، طريق الحق والعدل.

وما أصدق الشاعر حين قال:

ومُرادُ النفوس أصأل من أن نتعادى فيه وأن نتفانى[2]

فعلام الحسد والبغضاء؟ وعلامَ العدوان على الآخرين من أقرباء وغير أقرباء؟ وعلام الطمع والجشع؟ وعلامَ البخل والتقتير؟ وعلام التفاخر بما سوف يؤول إلى الزوال؟ ﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ ﴾[3]. فالتفاخر، إن كان لا بدّ من التفاخر، فبالعلم النّافع والعمل الصالح اللذين يجعلان القلب سليما من كلّ الأحاسيس المريضة الضارّة.

---

(1) سورة سبأ 10 - 14.

(2) ديوان أبي الطيب المتنبي، 374، ت، د. عبد الوهاب عزام. بيروت 1978.

(3) سورة الشعراء 88 - 89.

كما علينا أن نستفيد من النّص السابق أن آياته تذكر تحديدا لِمعنى الشكر، على غير ما هو متداول لدى النّاس من أنّ الشكر هو ما يتقلقل به اللسان، حيث جاء فيها: ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾ فالشكر عمل أولا، ثمّ قول ثانيا. أمّا الشكر باللسان فحسب، فليس فيه دليل على صحّة الشكر واقتناع المرء به ما لم يقترن بالعمل الصالح، وذلك هو فحوى قوله تعالى: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾ [1].

وتقرن **سورة الأنبياء** بين داود وسليمان، حينما استُفتيا بشأن أغنام أتلفت زروع قوم آخرين، فحكم داود بالأغنام لأهل الزرع تعويضا عمّا تلف من زروعهم، وحكم سليمان بأن تؤدى الأغنام لأهل الزرع يستفيدون منها، ويقوم أصحابها بإصلاح ما فسد من الزروع، ثمّ يستعيدون أغنامهم. ولكلّ منهما جعل الله فضلا: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [2].

فالمهمّ، هنا، لا التشاغل بأيّهما أفضل، والتماس التبريرات لكلّ حكم صدر عن داود أو عن سليمان، بل المهمّ أنْ ندرك مغزى القصّة ونأخذ بدلالته. وندرك أنّ من فضل الله على داود أن علّمه ﴿ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ ﴾ فـ"الصنعة" فضلٌ من الله ومِنّة يَمتنّ بها على النّاس. فلمَ لا نتعلّم أن (الصناعة) كلّها فضلٌ من الله؟ وأنّ علينا أن نتعلّمها ونستفيد منها، إلى جوار الزراعة والتجارة وسائر

(1) سورة فاطر 10.

(2) سورة الأنبياء 78 - 82.

صور النشاط الحيوي الذي يصوغ الحضارة والتقدّم والمدنيّة؟ ولِمَ لا نتعلّم كيف (نتحصّن) في مواجهة كلّ (بأساء) أو ضرّاء؟ فأمّا التشاغل في كيفية غوص الشياطين وعملهم فمِمّا لا نفع فيه ما دمنا لا نملك حقيقة ثابتة ونهائيّة نفسّر الأمر بموجبها.

ويتفرّد داود بحادثة أخرى، حين أتاه خصمان يحتكمان اليه بشأن محاولة أحدهما مصادرة ما يمتلكه الآخر، نقرأ في سورة ص: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (1).

ومن عجب أننا وجدنا من يأخذ هذه الآيات إلى غير ما يدلّ عليها لفظها، ففسّرت بمجموعة من الأساطير والخرافات التي لا دليل عليها. فإنّ قوله تعالى: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾ لا يعنِي أنّه أراد أن يتزوج امرأة رجل آخر رآها عريانة بعد أن دلّته عليها حمامة من ذهب فأرسل زوجها (أو خطيبها) للقتال عساه يُقتل فيخلو لداود مجال تزوّجها!! على ما تحدّث به بعض الأقدمين (2). ولكنْ، لِمَ لا يعنِي هذا

---

(1) سورة ص 17 - 25.

(2) انظر، مثلا: تفسير الطبري 156/23 - 162. واعتبر ابن كثير هذه الرواية من الإسرائيليات، في تفسيره 38/4. وشكك بها الزمخشري في الكشاف 78/4. ولكن بعض المعاصرين ما زال يأخذ بها للإساءة إلى الأنبياء.

النّصّ أنّ داود، وقد أعجبه ردُّه لِمَن استفتاه قد اعتبر ذلك الإعجاب افتتانا فاستغفر ربه وخرّ راكعا وأناب؟! ولـمَ لا يعنِي أنّه قد حكم لأحد الخصمَين من غير أن يستمع للطرف الثاني، فتعجّل في حكمه، وإن كان حكمه صحيحا، ولكن كان عليه أن يستمع لهما معا، ولذلك: ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾، معلنا توبته، على الرغم من أنه لم يظلم احدا في حكمه ذاك، ولكنه التحرّج وتوخي الحق. بمعنى أنّه، بغياب تصريح الآية بسبب محدّد جعل داود يظنّ أنّ الله قد فتنه، يجب أن نأخذ بالمعنى الأكثر قربا من سياق الآية، ومضمون القرآن الكريم في تنزيه الأنبياء عن مثل هذا السلوك. فالنبيّ داود، كسائر الأنبياء، ونظرا لأنّه كان يتحرّج في أحكامه وعلاقاته بالنّاس خشية أن يصدر عنه ما يسيء إلى الآخرين، جعله الله خليفة في الأرض وأمره أن يحكم بالحقّ ولا يتّبع الهوى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾[1]. ولا ندري كيف يمكن أن تتحقق هذه الخلافة لداود لو صحّت الرواية المنقولة عن عشقه لتلك المرأة وإرسال زوجها أو خطيبها للحرب كي يُقتل؟!

ومن هنا، فإنّ فهمنا للمغزَى الحقيقي لهذه الآية وغيرها يجب أن يدفعنا للاقتداء بذلك السلوك والأخذ بتلك الأخلاق، ليكون كلّ واحد منّا مؤهّلا لتحقيق رسالة الخلق واعتبار الإنسان خليفة الله في الأرض.

وزاد الله من فضله على داود فوهب له ابنه سليمان، الذي حاز من القوّة والقدرة والمنعة ما لم يحزه أحد. وفي طوايا ذلك حادثة حملت القدماء إلى أمر لا نجد له ما يثبته:

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾

---

(1) سورة ص 26.

رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

ومن عجب أيضا أن بعضهم زعم أنّ هذه الآيات تدلّ على أنّ الشمس قد رُدّت لسليمان، إذ إنّه انشغل بتفقّد الخيل عن الصلاة ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ متصورين أنّ الضمير في ﴿ تَوَارَتۡ ﴾ يعود على الشمس. ولكن الشمس لم تُذكر في الآية، لا تصريحا ولا تلميحا. وعلى فرض أنّ الصلاة كانت حينذاك على هيئة الصلاة في الإسلام وتوقيتاتها، فإنّ الجياد عُرضت عليه بالعشيّ أي بعد انتهاء أوقات الصلوات النّهاريّة التي تنتهي عادة بصلاة العصر، والعصر قبل العشيّ، بلا شك. فالأولى أن يعود الضمير على ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾ حيث طلب ردّها وطفق يمسح سوقها وأعناقها، تعبيرا عن حبّه لها. وأما قوله: ﴿ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴾ فيعنِي أنّه أحبّ الخير صادرا في ذلك الحبّ عن ذِكْر ربّه، لا بمعنى أنّه تشاغل عن ذكر ربه. فجدير بنا أن نفهم الآيات كما يدلّ عليها لفظها وسياقها وأن نأخذ منها أهدافها وغاياتها. وهذا ما نحاول أن نفعله في كتابنا هذا.

****

يتضمّن هذا الكتاب طائفة من قصص الأنبياء التي جاءت في التنزيل العزيز، إضافة إلى قصّة هابيل وقابيل، لا على أساس أنّهما من الأنبياء، ولكنْ باعتبار العِبَر والعِظات المهمّة جدًا التي حملتها تلك القصّة، ولذلك جعلنا عنوانه: (تأملات في قصص القرآن) ولا (تأمّلات في قصص الأنبياء).

إنّ تحليلنا لتلك القصص أوصلنا إلى أنّ من الأنبياء مَن استهلّ مرحلة جديدة من تواريخ الأمم، وأنّ منهم مَن كان مرسَلا لفئة من النّاس أو أمّة من الأمم، وأنّ منهم من أرسل للعالَمين كافّة، رحمة ومودّة ورأفة.

رأينا آدم يبدأ قصّة الخليقة فيما أسميناه بـ(مرحلة التأسيس الأول للعالم)، ورأينا نوحا يبدأ مرحلة ثانية أسميناها بـ(مرحلة التأسيس الثاني للعالم)، ورأينا إبراهيم الخليل يستهلّ المرحلة الثالثة التي اكتملت بظهور الإسلام وأسميناها

(1) سورة ص 30 - 33.

بـ(مرحلة التأسيس الثالث للعالم) وهي مرحلة التأسيس الفكري، بعد أن كانت المرحلتان الأولى والثانية، مرحلة تأسيس عمراني جديد. فكلّ واحد من هؤلاء الأنبياء كان مستهلَّ مرحلة تاريخيّة اختلفت عمّا سبقها، وتواصلت معها أيضا. اختلفت بحكم التطوّر البشريّ، المادّي والروحي. وتواصلت بحكم أنّها حافظت على المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للأديان السابقة. إذ لا فرق بين تلك المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة بين دين وآخر، أيّا كان ذلك الدين، وأيّا كان القوم الذين ظهر بينهم. فالأديان، عموما، هي دعوة للعمل الصالح المرتكز على العلم النّافع، لِما فيه خير النّاس.

وفي كلّ مرحلة من المراحل الثلاث المذكورة يظهر أنبياء حملت قصصهم تجاربَ غنِيّة نافعة ومفيدة، فعرضنا لطائفة منهم. وإذا كنّا لا نعرف شيئا عن الأنبياء الذين ظهروا بين آدم ونوح، فإنّ التنزيل العزيز عرض علينا قصص أنبياء عديدين ظهروا بين نوح وإبراهيم الخليل، وكذلك بين إبراهيم الخليل وظهور الإسلام. وعلى الرغم من أنّ جميع تلك القصص مهمّة ونافعة ومفيدة، إلّا اننا اقتصرنا على أبرزها وأوسعها، لأنّ هذه تتضمّن ما تضمّنته تلك من دروس إضافة إلى عبَر وعظات أخرى. ولقد سرنا في ترتيبها زمنيّا بحسب الإشارات القرآنيّة التي علّمتنا أن النبيّ هودا جاء بعد نوح، وأن النبيّ صالحا جاء بعد هود، وهكذا.. كما عُنينا بالناحية اللّغويّة في فهم بعض الأسماء والأحداث والمصطلحات، لِما لذلك من أهمّيّة في تصحيح بعض المفاهيم التي شاعت في كتابات المعنيّين بالقرآن، ومفسّريه.

واستفدنا مِمّا قاله الأقدمون، ارتكازا حينا، وحوارا حينا آخر، من غير أن نُلبس ما قالوه ثيابَ القداسة، بل نظرنا إليه باعتباره رأيا بشريّا قابلا للصواب والخطأ، مستحقّا للاحترام في الحالتين.

د. هادي حسن حمّودي

مرحلة التأسيس الأول للعالَم

القرآن ليس كتاب تاريخ، فهو لا يريد أن يقصّ القصص على النّاس كي يتعلّموا التاريخ، ولكنّه يريد أن يوصلهم إلى مستوى من العقل والفكر والفهم والإدراك، بحيث يفهمون مغزى القصص التي يقصّها عليهم، ويستفيدون مِمّا فيها من عِظات وعبَر. ولذلك تجزّأت قصص القرآن وتوزّعت في سور عديدة، فيأتي من القصّة، في كلّ موضع، ما يتلاءم مع السياق وما يتضمّنه من تعاليم أو قواعد أو أوامر، من أجل إيضاح أهداف تلك القصص وغاياتها، وما يُمكن أن نستفيده منها. وهذا ما سنلاحظه في كل قصص القرآن باستثناء قلّة اكتفى القرآن الكريم بذكرها في موضع واحد شامل، كما في قصّة النبيّ يوسف، عليه السلام، إذ تضمّنتها سورة واحدة في مائة وإحدى عشرة آية.

*** من سورة البقرة:**

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

تساؤل ينعى على الكافرين كفرَهم بالله، ويعود إلى تذكيرهم بنعم الله التي بها يعيشون، وهو التّذكير الذي يفصّل ما جاء قبله، ويتواصل إلى آخر السّورة. ومنه أنّهم كانوا أمواتا فأحياهم ثمّ يُميتهم ثمّ يحييهم يوم القيامة. وكلّ هذه نِعَمٌ على النّاس، فالحياة نعمة، والعودة إلى الله نعمة، حيث يلاقي المرء نتيجة أعماله الطّيبة التي أدّاها في حياته. أمّا عن كونهم أمواتا ثمّ أحياهم، فإنّ الإنسان قد خُلق من الطين، أي من تراب ليس فيه حياة، ومن ماء منه كلُّ شيء حيّ، فذلك هو الإحياء الأوّل، ثمّ يعود المرء ترابا، أي ميّتا، ليُبعث من جديد إلى حياة أخرى، هي العودة

يوم المعاد، أي: يوم القيامة. ومن تلك النِّعَم التي يُعدّدها الله أنّه خلق للنّاس ما في الأرض جميعا، وخلق سبعَ سموات، وهو عليم بكلّ شيء. وكأنّ هذه الآية إضافةٌ إلى ما جاء في الآية 22 من السورة نفسها.

ثمّ يعود بهم القرآن ليُفصّل الآيتين (28 - 29) فيواصل تعداد نِعَم الله إلى آخر السّورة. مبتدئا من قصّة الخلق، التي جاء منها، هنا:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

تشتمل هذه الآيات على جزء من قصّة الخلق، ونستخلص من هذا الجزء:

* إنّ الله أعلمَ الملائكةَ بأنّه جاعلٌ في الأرض خليفة له. فتساءلوا عن سبب ذلك، خاصّة أنّ هذا المخلوق الجديد سيُفسد في الأرض ويسفك الدّماء، بينما هم يسبّحون بحمد الله ويقدّسونه. فذكّرهم ربُّهم بأنّه يعلم ما يعلمون وما لا يعلمون. وبلا ريب فإنّ هذا النّصّ يتّخذ من ذلك الحوار وسيلة بلاغيّة وبيانية ليبيّن شيئا آخر مفاده أنّ الله يعلم أنّ الإنسان الذي سيخلقه سيُفسد في الأرض ويسفك الدّماء وأنّ الملائكة يسبّحون بحمده ويقدّسون له، غير أنّه، تعالى، يعلم أيضا، أنْ ليس كلّ النّاس ينطبق عليهم ذلك الوصف، فإنّ منهم مَن سيهتدي بهدى الله وسيلتزم به. ومهما كانت النزعات النّفسية المودعة فيه، فلن يُفسد في الأرض ولن يسفك الدّماء، أيّا كانت المغريات والأهواء والأطماع التي تستكنّ في أعماق النّفس. فالإنسان مخلوق من تراب وماء، من موت وحياة، وبذلك فإنّ فيه نزعتين نزعة الخير ونزعة الشّرّ، فَمِن النّاس من يذهب في طريق الشّرّ، ومنهم من يذهب في طريق الخير.

* ومن أجل تثبيت أهمّيّة العلم، وأنّه من جملة المعايير التي يَفْضُل الإنسان بها

الملائكةَ، إن استثمر ذلك العلم فيما ينفع النّاس ويُصلح الأرض ويُعمرها. علّم الله، تعالى، آدمَ، الأسماء كلّها، ثمّ عرض على الملائكة تلك المسمّيات، أي المخلوقات المتسمّية بتلك الأسماء، وسألهم أن ينبئوه بأسمائهم، فتبيّن لهم عجزهم، فأكّدوا الحقيقة التي كانوا يعرفونها من قبل، وهي أنّ الله يعلم ما لا يعلمون.

إنّ هذا النّصّ يبيّن، إضافة إلى ما ذكرناه من أنّ العلم الذي تعلّمه آدم جعله مخلوقا متميّزا عن الملائكة، فإنّه يشير إلى أنّ أولئك الذين كانوا يعبدون الملائكة إنّما هم على ضلال، فالملائكة، أيّا كانت هيئاتهم وحقيقتهم، هم عباد الرّحمن، لا يملكون من أمرهم شيئا. ثمّ هم مجبولون على الخير، ولا يملكون قدرة على فعل الشرّ والسّيّئات. أمّا الإنسان الجامع في ذاته بين الخير والشرّ، فإنّه إنْ أخذ طريق الخير والتزم به فذلك يعنِي أنّه أفضل مخلوق خلقه الله، لأنّ له الاختيار، بعد أن يبيّن الله له السبيلَين، سبيل الخير وسبيل الشرّ.

* وأمرهم ربّهم بأن يسجدوا لآدم، وما ذلك سجود عبادة، وإنّما سجود استجابة لأمر الله، وما كان ليأمرهم بالسجود لآدم إلّا من بعد أن نفخ فيه من روحه وعلّمه الأسماء كلّها، فالسجود هو لعظمة الله التي تجلّى شيء يسير منها في شخص آدم، مادّة وروحا، وعلما مُكتسبا من ربّه.

* ورفض إبليس السجود لآدم مستكبرا عليه. وسيبيّن القرآن في مواضع أخرى سبب ذلك الاستكبار، وما نتج عنه.

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

* ثمّ إنّ الله خلق لآدم زوجه وأسكنَهما الجنّة، وأباحَ لهما أن يأكلا منها رغدا حيث شاءا، باستثناء شجرة منعهما من الاقتراب منها.

* لكنّ (الشّيطان) تمكّن من إغرائهما وإغوائهما فدنَوَا منها وتناولا من ثمرها، فأخرجهما الشّيطان مِمّا كانا فيه من نعيم. فكان الخروج من الجنّة. وأنبأهم ربّهم أنّهم سيكونون أعداء فيما بينهم، وأنّه أباح لهم أن يستقرّوا في الأرض إلى حين معلوم.

* وتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

* وإضافة إلى النِّعَم السّابق ذكرها والتي هي تأكيد على ما جاء في الآية 28، فإنّ الله وعد آدم بأن يُنزّل عليه ﴿ هُدًى ﴾ فَمَن تبع ذلك الهدى، فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. أمّا الذين سيُكذّبون بذلك الهدى ويكفرون به فإلى جهنّم مصيرهم.

* من سورة آل عمران:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾.

* من سورة النساء:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾.

* من سورة الحجرات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

* من سورة الأعراف:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ

وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ذلك أنّ إيجادهم على الأرض، بحدّ ذاته، هو فضلٌ من الله ومُنّة. فلقد خلقهم الله، وصوّرهم بشخص أبيهم آدم، ثمّ أسجد له الملائكة: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ على ما جاء في الآية 11 من هذه السّورة، فسجدوا إلّا إبليس لم يكن من السّاجدين. فساءله الله، وهو العليم، عن سبب عدم سجوده حين أمره ربّه، فقال إنّه أكرم من آدم، إذ هو مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين. فأمره الله بمغادرة الجنّة مطرودا منها إذ ليس لأحد من المتكبّرين أن يكون له موضع فيها. فسأل إبليس ربّه أن يؤجّله إلى يوم يُبعثون. فأمهله الله إلى ذلك الوقت. وآنذاك تعهّد إبليس أنّ يسدّ على النّاس الصراطَ المستقيم فلا يُبصرونه، وأن يأتيهم بمختلف السُّبُل والوسائل حتّى لا يكون أكثرهم شاكرين. فطرده الله من الجنّة وجعله مذؤوما مدحورا، وجعل له ولِمَن اتّبعه جهنّم، حتّى تمتلئ بهم.

إن قوله ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ يتضمن معنىً مهمّا يجب الالتفات إليه، فإبليس سيقعد ذلك الصراط، ونراه يعني أنّه سيتّبع معهم شتّى الطرق والأساليب التي من شأنها أن تبعدهم عن الصّراط المستقيم بما في ذلك أن يأتيهم من عقائدهم نفسها التي يُفتَرَض بها أن تقودهم إلى ذلك الصراط، فينحرفون عنه بشعور وبلا شعور.

وبعد طرد إبليس من الجنّة، أمر الله، تعالى، آدم أن يسكن هو وزوجُه الجنّة وأن يأكلا من ثمارها ما شاءا، باستثناء شجرة واحدة، أمرهما ألّا يقرباها، لأنّهما إن اقتربا منها كانا من الظّالمين. والظّالمون لا مكان لهم في الجنّة. وهذا مثل دلالة الآية التّاسعة من هذه السّورة.

غير أنّ الشّيطان وسوس لهما كي يُرِيَهما سوءاتهما، وغطّى وسوستَه بالقسَم (فقاسمهما) كأي منافق يزعم أنّه الشفيق الناصح الباحث عن مصلحة المخدوعين به. فأوهمهما أنّ ربّهما إنّما نهاهما عن تلك الشّجرة كي لا يكونا مَلَكين أو أن يكونا من الخالدين. ولم يعترضا على وسوسته بأنْ يقولا، مثلا، أنّهما يرضيان بما يريده ربّهما، فإذا لم يكن يريدهما مَلكَين أو لا يريدهما من الخالدين، فهم يرضيان بذلك. وإنّما أطاعا تلك الوسوسة التي نجحت في خداعهما حيث ذاقا من الشّجرة، فبدت لهما سوءاتُهما وطفقا يقطعان من ورق الجنّة ما يسترهما ويستر سوءاتهما. وناداهما ربّهما موبّخا لهما: ألم أنْهَكما، من النّهي والمنع، عن تلك الشّجرة؟ ألم أُبيّن لكما أنّ الشيطان عدوّ مُبين واضح لا خفاءَ بعدائه لكما؟ فشعرا بالخطيئة تحيط بهما، فبادرا إلى الاعتراف بها والاستغفار منها، وإلّا فسيكونان من الخاسرين. وهذا شبيةٌ بِما مرّ في الآية التاسعة من هذه السورة ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾. فأمَرهما ربّهما بالهبوط من الجنّة، وأخبرهما أنّ بعضهم سيكون عدوّا لبعض، وأنّ لهم في الأرض مُستقرّا ومَتاعا إلى حين. ففيها يحيَون وفيها يموتون ومنها يُخْرَجون ليوم القيامة.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ

حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

* من سورة الحجر:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

في هذا القسم توظّف السّورة بعض مجريات قصّة آدم لتأكيد المعاني التي مرّت في الأقسام السابقة منها. منذ أن خلق الله آدم من الطين المفخور المحدّد.. وإلى إخراجه من الجنّة. أما الجزاء يوم القيامة فيتمثّل في:

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

* من سورة الإسراء:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

سُلۡطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴿٦٥﴾﴾.

توضّح الآية 60 السابقة على هذا النّصّ المختصّ بخلق آدم، أنّ إعلان إحاطة الله علما بالنّاس، والرؤيا التي شاهدها النّبيّ، والشجرة الملعونة في القرآن، كلها نُذُر تخويف للنّاس، وفتنة، ولكنّ من النّاس مَن لا يزداد بهذه الآيات إلّا طغيانا كبيرا.

ثمّ يتطرّق السّياق إلى قصّة آدم، عليه السّلام، ليستخلص منها عداء إبليس لآدم وذرّيته، ويذكّر النّصّ بأنّ الله، تعالى، قد توعّد مَن اتّبع إبليس أن يجعل مصيره نار جهنّم خالدا فيها. فليُغْرِ مَن استطاع أن يُغريَهم، وليبذل جهده معهم، وليشاركْهم في أموالهم وأولادهم، وليُمنِّهم بالوعود الكاذبة. إذ على الرّغم من كل ما سيفعل فإنّه لن يكون له سبيل على عباد الله الجديرين بصفتهم، فليس له أيّة قدرة عليهم.

* من سورة طه:

﴿ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٍ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

ومن هذا الوحي والذّكرى ما مرّ بآدم من أحداث، فلقد عهد الله إليه عهدا

فنسيَه، فالتذكّر والنّسيان جائزان على البشر، وغير جائزين على الخالق. ولم يكن لآدم عزمٌ على أن يتذكّر ولا ينسى خاصّة ما أوصاه الله به من عدم طاعة الشّيطان. فمنذ بداية خلق آدم أمر الله الملائكةَ أن يسجدوا له، فسجدوا له طاعةً لأوامر الله، إلَّا إبليس رفض أن يسجد. فنبّهَ اللهُ آدمَ إلى أنّ هذا عدوٌّ له ولزوجه، وأنّه سيحاول إخراجهما من الجنّة، فيسبّب له الشّقاء والعناء. وهو ما دام في تلك الجنّة فله ألَّا يجوع ولا يَعرى، ولا يظمأ فيها ولا يشعر بالحرّ والتّعب. ولكنّ آدم نسيَ هذا العهد، فأطاع الشّيطان حين وسوس له بوجود شجرة في تلك الجنّة هي شجرة الخلود والـمُلك الذي لا يزول، فلمّا أكلا منها بدت لهما سوآتهما، فأخذا يحاولان أن يستترا بورق الجنّة. فكان ذلك عصيانا من آدم ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ أي أطاع هواه فخاب وخسر ما كان فيه من نعيم. ثمّ اجتباه ربّه، بعد أن توجّه هو وزوجه إليه، تعالى، بالدّعاء أن يغفر لهما. ثمّ آتاه (الهدى) الذي وعده به. ونتيجة فعلة آدم وإخراجه من الجنّة خضع هو وأبناؤه وحفدته على مرّ الزمن، إلى قوانين هذه الحياة الدّنيا التي منها الصراع والعداء والحسد والبغضاء وغيرها، مِمّا سيتجلى لاحقا فيما حدث بين ابني آدم اللذين قتل أحدهما أخاه. وهكذا سيظل العداء قائما بين الشّيطان والإنسان على مرّ الزمن.

*** من سورة ص:**

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

يتحدّث هذا النّصّ عن خلق آدم، أيضا. فقد أخبر الله ملائكته أنّه خالقٌ بشرا من طين، فإذا سوّاه ونفخ فيه من روحه فليسجدوا له، وهذا السّجود امتثال لأمره تعالى، ولعظمته، لا السجود لبشر خلقه الله بحدّ ذاته. فسجد الملائكة جميعا، إلّا إبليس استكبر وصار من الكافرين، فالاستكبار صفة ملازمة للكافرين. فساءله الله، وهو العليم بالجواب، عن سبب عدم سجوده لِما خلقه الله بيديه، وهو تعبير عن القدرة، بطبيعة الحال. فهل كان سبب السجود استكبارك، أم كونك من العالين بحيث يصحّ لك أن تتّخذ قرار عصيان أوامر الله؟! فأجاب إبليس أنّه خيرٌ من آدم، فقد خلقه الله من نار وخلق آدم من طين، والنّار، عنده، أكرم من الطّين، فلا يصحّ سجود المخلوق من النّار لمخلوق من الطين. ونتيجة هذا الاستكبار طُرد من الجنّة.

ولأنّ إبليس يريد أن يصدّق وعدَه، وأنّه أفضل من آدم وذرّيتّه سأل ربّه أن يمهله إلى يوم يُبعثون، فأمهله الله إلى ذلك اليوم. وهنا تعهّد إبليس بأنْ يُغوينّهم أجمعين إلّا عبادَ الله المخلصين أي الذين استحقّوا أن يَمُنّ الله عليهم بفضله فيبعدهم عن إغواء إبليس. وفي مقابل ذلك، تعهّد الله، أيضا، أن يملأ جهنّم من إبليس ومِمّن تبعه جميعا.

****

ومن هنا نتبيّن أنّ قصّة الخَلْق قد ذُكرت في سور متعدّدة، هي: (**البقرة 28 - 39**). (**آل عمران 59**). (**النساء 1 - 2**). (**الحجرات 13**). (**الأعراف 10 - 27**). (**الحجر 26 - 43**). (**الإسراء 61 - 65**). (**طه 55**). (**طه 114 - 126**). **ثم سورة (ص 67 - 85)**. وفي كلّ موضع من تلك المواضع حكم بالغة ودروس عظيمة الأهميّة للنّاس جميعا:

ففي سورة البقرة تُذكر قصّة الخلق بحيث نخرج منها بالحقائق التالية:

1 - إنّ الإيمان بالله قانون طبيعيّ، منبثق من شكر نِعَمِ الله على البشر. لذلك سُبقت آيات الخلق الأوّل بتساؤل يوبّخ الكافرين: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[1]. ثمّ يذكّرهم التنزيل العزيز ببعض تلك النِّعَم، ومن بينها خلقهم ومنحهم الروح والحياة وتسخير كلّ ما في الأرض من خيرات لخدمتهم وما عليهم إلّا أن يأخذوا أنفسهم بالجدّ والاجتهاد من أجل التعرّف على كيفيّة الاستفادة من تلك الخيرات لِما فيه نفعهم وسعادتهم واطمئنان قلوبهم.

2 - إنّ الإنسان قد خُلق ليكون (خليفة) الله على الأرض. وأنّ ذلك المخلوق يجب أن يمتنع عن الإفساد في الأرض وعليه ألّا يقارف سفك الدماء وإلّا فهو غير جدير بأن يكون خليفة الله في أرضه. ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[2]. حيث إنّ هذه الآية تستبطن مسائل على درجة بالغة الأهميّة والخطورة، منها:

أ - المقابلة بين الإفساد في الأرض وسفك الدماء، من ناحية، وتقديس الله من ناحية أخرى. فتلك تناقض هذه مناقضة حادّة. لذا فإنّ من يُفسد في الأرض ويسفك الدماء، لا يقدّس الخالق بل لا يبالي بأوامره ونواهيه. حتّى إذا ادّعى غير ذلك.

ب - إنّ مِنَ النّاس مَنْ هو جدير بأن يكون خليفة الله، فهو لا يُفسد في الأرض ولا يسفك الدماء. وذلك فحوى قوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ردّا على الاستفهام الذي يعمّ كلّ النّاس ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾؟ إذ يشمل النّاس جميعا، وهو تعميمٌ دالّ على خطأ في فهم أهداف خلق الإنسان. فاذا كان هناك من يتّصف بالصّفات السيئة الشّريرة، فهناك أيضا من يتصف بالصفات الحميدة الخيّرة. والله يعلم ما لا يعلم المتسائلون. فكان ذلك التساؤل وسيلة لبيان هذه الحقيقة.

ج - إن العلم مسألة ضروريّة للإنسان، وهي من فطرته وطبيعته وسنّة الله فيه،

---

(1) سورة البقرة 28 - 29.

(2) سورة البقرة 30.

وبالعلم صار آدم أفضل من الملائكة حتّى إنّهم سجدوا له بأمر الله، تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[1].

د - ونستنتج من هذه الآية، أيضا، أنّ من مبرّرات الخلق أن يأخذ الإنسانُ نفسه بالعلم والمعرفة. وأنّ أفضليّة آدم على الملائكة اعتمدت على أنّه عَلِمَ ما لم تكن الملائكة تعلمه ولا تعرف عنه شيئا. ولذلك حثّ القرآن الكريم على طلب العلم في كثير جدّا من آياته البيّنة. ولا يعنِينا في هذا المجال ما تشاغل به السابقون من ماهيّة تلك الأسماء، هل هي أسماء الملائكة أم البشر أم مخلوقات الله الأخرى. لأنّ القرآن ليس كتابا تاريخيّا ولا كتابا قصصيّا بل هو كتاب يقدّم للنّاس تعاليم تنفعهم في صياغة حياتهم، وإسعاد أنفسهم وإخوتهم في الدين والإنسانيّة. ومن أسلوبه أنّه يعرض تلك التعاليم في أطُر متنوّعة، مباشرة وغير مباشرة، عن طريق القصص والأمثال والأحكام وغيرها.

وجعل القرآن هذا العلم الذي تعلّمه آدم من صور الغَيب التي علّمها الله للنّاس وأودعها فيهم، وذلك قوله، تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[2].

فهذه المخترعات التي توصّل اليها العقل البشريّ، مِمّا نراه ونستفيد منه فوائد شتّى، على سبيل المثال، لم تكن أشياء ملموسة محسوسة، فهي غيبٌ لم تدركه الأجيال السابقة، فلمّا أوقد الإنسان في ذاته شعلة التفكير، واستفاد من قوانين الله وسننه في الحياة، وصل إلى هذه المخترعات والمكتشفات، وهو يواصل مسيرته لاستفادة أكبر وتطوّر أهمّ وأعمق.

3 - ثمّ تنتقل القصّة القرآنية الواردة **في سورة البقرة** إلى الحديث عن الصراع الأزليّ بين الخير والشرّ، فترمز إلى ذلك بشخصيتي آدم وإبليس. وإذا كنّا نعرف آدم

---

(1) سورة البقرة 31.

(2) سورة البقرة 33.

باعتباره الإنسان الأوّل الذي سكن الأرض، فلا مبرّر لأن نشغل أنفسنا فيما اختلف فيه الأقدمون في تحديد شخصيّة إبليس، وإنّما نكتفي بما ورد في القرآن عنه، ونقف عند ذلك.

ولـمّا كان آدم مخلوقا من طين الأرض، فإنّ طبيعته، في أصلها، تميل إلى الخير منسجمة مع المكان الذي خُلق منه ويعيش فيه، حتّى يطرأ على تلك الطبيعة ما يُخرجها عن خصائصها، فتخرج من الخير إلى الشر. وهكذا يبقى الصراع محتدما في داخل الإنسان، وفيما حوله، إلى أن يحقّق التوازن بين نفسه والطبيعة، بالتوجّه نحو الخير، وآنذاك ينعم براحة البال واطمئنان الضمير، وهدوء النفس الذي يسعى كلّ امرئ إليه، وقد لا يفهم كيف يحقّقه إلّا بعد زوال الفرصة وفوات الوقت الملائم. ولذلك فتح الله، أبواب التوبة أمام النّاس كفرصة سانحة، في جميع الأوقات للعودة إلى الفطرة السليمة التي فطر اللهُ النّاس عليها. وعلى هذا الأساس نفهم قوله تعالى في **السورة نفسها**: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1].

ولَـمّا كنّا نجهل كيفيّة ذلك الخطاب، ولا نعرف شيئا كثيرا عن إبليس، هذا، الذي يقول أهل اللّغة الأقدمون أنّه مشتقّ من الفعل (أبلَس) بمعنى فشل وانهزم، والذي لنا فيه رأي آخر سنبيّنه عمّا قريب، فنستطيع اعتبار المورد كلّه رمزا إلى ذلك الصراع بين الخير والشرّ. وتذكّرنا الآية الكريمة بأنّ إبليس هذا (أيّا كان المقصود به) هو عدوّ للبشر منذ اللّحظة الأولى التي خلقوا فيها. وهو عدوّ لله أيضا. ويبدو لنا، والله أعلم، أنّ (إبليس) مصطلَح على مشاعر السوء والشرّ التي تعتري الإنسان أحيانا، أو كثيرا ما تستولي على هذا وذاك وذلك من البشر، لتقوده إلى هاوية ما لها من قرار، هي هاوية مزيّنة بالإغراءات المتنوّعة، إغراءات ماديّة أحيانا وروحيّة ونفسيّة أحيانا أخرى. وسنرى أنّ هذا المصطلح سيتحوّل إلى مصطلح آخر هو (الشيطان) حين تتحوّل إرادة الشرّ إلى سلوك بشري منطلق من أسواء النّفس الأمّارة بالسوء.

---

(1) سورة البقرة 34.

4 - وما دام رمز الشرّ هذا الذي أطلق القرآن الكريم عليه مصطلح (إبليس) عدوّا للبشر، اغتاظ منهم لأنّ الله كرّمهم بالعقل والعلم والحكمة وحبّ الخير وسائر النّعم التي تأهّل الإنسان للاستفادة منها، ورفض السجود لأبيهم تكبّرا عليه، فإنّ عليهم أن يتّخذوه عدوّا لهم، وبالتالي لا يطيعون أوامره التي يوسوس إليهم بها، والتي تقودهم، بالتأكيد، إلى التعاسة، والأحزان، لهم ولغيرهم، كما فعل مع أبيهم آدم، حيث أغراه وأقنعه ثمّ تخلّى عنه، وتركه وذريته يقاسون قدرهم على الأرض، بدلا من نعيم الجنّة.

ومن الطبيعي أنّ الله، تعالى، أرحم من أن يترك النّاس ضحيّة تلك الوساوس، بل أخذ على نفسه عهدا أن يبيّن لهم الطريق الواضح عبر أنبيائه ورسله، والهدى الذي يرسله معهم.

****

أبواب التوبة لا تغلق

وكان أن سكن آدم وزوجه الجنّة، وأبيح لهما أن يأكلا منها رغدا حيث شاءا ورغبا، باستثناء شجرة واحدة منعهم ربّهم من الدنوّ منها. وجاء في تعليل ذلك المنع أنّهما إن أكلا منها كانا من الظالمين: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1]. أمّا الحديث عن ماهيّة تلك الشجرة، فاجتهادات بشريّة لا نستطيع التعويل على أيّ منها في غياب النصّ الذي لا يقبل النقض. فكلّ ما يمكن أن نقوله عنها أنّها شجرة يعدّ الدنوّ منها والتناول من ثمرها ظلما. فهل كانت شجرة حقيقيّة، بجذورها وفروعها وأغصانها وأوراقها، أم هي رمز لشيء آخر أو أشياء أخرى؟

فإنْ كانت شجرة حقيقيّة، بحسب ما ذهب إليه المفسّرون، فربّما جعلها الله رمزا إلى ما يُلحق ضررا بالإنسان من طعام. فلقد صرنا نعلم أنّ من النباتات والأشجار ما هو سامّ وما هو ضارّ وما هو نافع. بل إنّ لها تأثيرات نفسيّة متباينة، وصار علماء الطب النفسي في هذا العصر، وفيما سبقه من عصور، يعوّلون كثيرا على النباتات سواء في طعوم ثمارها أم روائحها أم ألوانها أم تركيبها، في علاج أمراض عديدة. كما أنّ الأطبّاء النفسيين يقدّمون نصائحهم لبعض مرضاهم في حالات مرضيّة نفسيّة معيّنة، بتجنّب أنواع معيّنة من الطعام، لأنّهم يرون أن مكوّنات ذلك الطعام، نباتيّا حينا وحيوانيّا حينا آخر، تؤثر سلبا على هورمونات الجسم، وغدده الصّمّ، وسائر نشاطاته الحيويّة، فتسبّب مضاعفات نفسيّة غير محمودة. بل ذهب بعض علماء الاجتماع إلى تقرير أن نوعيّات من الجرائم تحصل نتيجة تناول

---

(1) سورة البقرة 35.

أغذية معيّنة أو أطعمة متضادّة، وذلك حين تكون طبيعة جسم المتناول لها مما يتأثّر بتلك الأغذية أو تضادّ الأطعمة تأثّرا سلبيا. فكما أنّ من الأطعمة ما هو ضارّ ببعض الأجسام، فإنّ هناك أطعمة ضارّة ببعض النّفوس والأرواح وما فيها من المشاعر والأحاسيس، وهذا ما أثبته العلم الحديث الذي لم يتوصّل، بعد، إلى الكشف عن طرقٍ تُوْقِف ذلك التأثير، لأنّ المسألة تختلف من إنسان لآخر، بحسب طبيعته ووراثته وجيناته أو مورّثاته الحيويّة، وما زال الإنسان ذلك المجهول.

فهل لهذه الشجرة، إن كانت شجرة حقيقيّة، دور في تغيير تركيبة نفسيّة آدم وزوجه، أو في تغييرات جسديّة ما؟! ليس لنا أن نجزم بشيء، وإنّما نكرّر أنّهما مُنعا من الاقتراب منها لسبب لم يوضّحه القرآن لأنّ المهم معرفة العبرة من وراء القصّة لا تعليل مجرياتها.

وعلى الرغم من ذلك، أوضحت القصّة القرآنيّة سببا عامّا لمنع آدم وزوجه من الاقتراب من تلك الشجرة، وهو أنّهما إذا اقتربا منها كانا من الظالمين. وليس في القصّة ما يشير إلى تعليل هذا. كما أنّ آدم لم يسأل ربّه عن السبب الذي يجعل الاقتراب من تلك الشجرة ظلما، لأنّ آدم رأى أنّ المهمّ أن يطيع أمر ربّه من غير نقاش ولا اعتراض، خاصّة وأنّه مصنوع بيد الله، وأنّ خالقه قد أسجد له ملائكته، وقد رأى كلّ ذلك عِيانا، فلزمه أن يأخذ أوامر ربّه بتسليم وإذعان، وبلا حوار ولا مناقشة ولا اعتراض. ومن جهة أخرى فإنّ القرآن لم يبيّن من ذلك السبب إلّا قوله، تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [1].

فكان سبب المنع، إذن، ألّا تبدوَ لهما سوآتُهما، فإنّ انكشافها سيقودهما إلى أن يكونا من الظّالمين. ذلك أنّ معظم صور الظلم مردّها إلى سيطرة الغرائز على المرء، طمعا في مال، أو استسلاما لهوى النّفس، وفي مقدّمته الغريزة الجنسيّة التي كثيرا ما ساقت النّاس إلى غير الطريق المستقيم، اغتصابا وعدوانا وتطاولا على حرمات الآخرين، حين يفقد المرء السيطرة عليها.

وبالتأكيد فإنّ التناسل لم يكن محرّما على آدم وزوجه، وإلّا فلماذا خلق الله

---

(1) سورة الأعراف 22.

لآدم امرأة، ثمّ جعل في ذرّيّتهما الذكور والإناث! فاذا كان ذلك مباحا لهما بحكم قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [1] بل إنّه ليس مباحا فحسب، بل يعتبره الله تعالى فضلا ومنّة يَمْتَنّ بها على خلقه وآية من آياته: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [2].. فلماذا، إذن، منعهما، تعالى، مِنَ الاقتراب مِنْ تلك الشجرة، إن كانت هي الشجرة التي تدفعهما إلى التناسل، بحسب ما يتّفق عليه كثير من المفسّرين؟ وماذا في الأمر إن بدت لهما سوآتُهما؟ وإذا لم يكونا يعرفان سوآتهما فكيف كانت العلاقة الجسديّة بينهما قبل أن يقتربا من تلك الشجرة؟ ثمّ لماذا يكونان من الظالمين إن بدت لهما تلك السوآت، خاصّة وأنّهما يمارسان أمرا طبيعيا، ومنسجما مع خلقهما وتكوينهما النفسي والجسدي؟!

وللإجابة على هذه التساؤلات ينبغي الالتفات إلى الحقائق التي تذكرها القصّة القرآنيّة فيما يتعلّق بهذا الموضوع:

* فهناك، أولا، آدم وزوجه، رجل وامرأة.
* وهناك، ثانيا، جنّة يسكنان فيها.
* وهناك، ثالثا، شجرة مُنعا من الاقتراب منها.
* وهناك، رابعا، إبليس الذي وسوس لهما.
* وهناك، خامسا، تناول آدم وزوجه من تلك الشجرة.
* وأخيرا بدت لهما سوآتُهما.

فمن هذه الحقائق نستنتج ما يلي:

1 - إنّ العلاقة بين آدم وزوجه، كانت علاقة مخلوقين من نوع واحد يؤنس أحدهما الآخر، إذ ليس من المعقول أن يستأنس الإنسان إلا بإنسان مثله، فلا آدم

(1) سورة النساء 1.

(2) سورة الروم 21.

يستأنس بالملائكة ولا الملائكة يستأنسون بآدم. كما أنّ هدف الخلق لم يكن بقاء آدم مع الملائكة، ولا أن يظلّ في الجنّة سواء كانت جنّة سماويّة أم جنّة أرضيّة، على ما سنراه، وذلك بحكم قوله، تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ في الآية المارّ ذكرها. فآدم خليفة الله في أرضه، وأبناؤه خلفاء الله في أرضه، أي على هذه الأرض، فكيف يمكن أن يبقى مستأنسا بالملائكة ومنعّما في جنّة ليس فيها معاناة ولا جهد؟

فاذا كان هذا مُحالا بحكم قصّة الخلق ذاتها، صار لا بدّ أن يعيش آدم في الأرض بعد أن يكون قد اعتاد على مخلوق من جنسه ونوعه. أي إنسان مثله. فخلق الله له امرأة (يسكن إليها) وجعل بينهما (مودّة ورحمة) إلى أن تستقرّ تلك القيم في نفسيهما، ثمّ يحدث أن يتناولا من تلك الشجرة ويطّلعا على سوآتهما، فيكون خروجهما من الجنّة نتيجة طبيعيّة لذلك كلّه. وفي هذا درس بليغ في أنّ العلاقة بين الرجل والمرأة ليست علاقة جسديّة أوّلا وأخيرا، وإنّما هي علاقة مودّة ورحمة، علاقة استئناس، أوّلا، ثمّ، بعد ذلك، العلاقة الجسديّة التي ستكون جزءا من ذلك الاستئناس، وتلك المودّة والرحمة.

2 - وليس من دليل على أنّ سبب خلق زوج لآدم، هو فقط، التناسل أو إشباع الغريزة المستكنّة فيهما، بل إنّ ذلك الإشباع هو جزء من طبيعة العلاقة بينهما. أي أنّ تلك العلاقة كانت علاقة إنسان بإنسان آخر، حتّى لو كان أحدهما رجلا والآخر امرأة. ولم تكن علاقة ذكر بأنثى.

3 - إنّ الأصل في العلاقة بين الزوج وزوجه علاقة مودّة ورحمة، وألفة وتآلف، قبل أن تكون علاقة إشباع للغريزة، وذلك فحوى المودّة والرحمة التي جعلها الله بين الزوج وزوجه. فإنّ في قوله، تعالى: ﴿ لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ [1] دلالة على أنّ الغاية هي (سكَن) الزوج إلى زوجه، بكل ما تحمله الكلمة من معنى. فالسَّكَن:

(1) سورة الروم 21.

الهدوء والراحة والاطمئنان، ومنه السّكِينة بمعنى الوقار[1]. وذلك أنّ الزوجين يُسْعَد كلٌّ منهما بالآخَر، ويطمئنّ إليه، ويأمن في العيش معه. وهي الغاية الأسمى من الزواج. وأمّا العلاقة الجسديّة فهي جزء من تلك العلاقة، وليست العلاقةَ كلَّها. وقد رسّخ الله، تعالى، تلك العلاقة بما أمر أن تكون فيه من المودّة والرّحمة. فبلا مودّة ورحمة، يفقد الزواج معناه، إذ لا يعود أحد الطرفين سَكَنا للآخر، وتنتفي بينهما الروح الإنسانيّة النبيلة التي تضفي على علاقتهما الجسديّة سحرا وجمالا. وفي الوقت، نفسه، نحن لا ندري طبيعة العلاقة بين آدم وزوجه قبل أن يوسوس لهما إبليس بالتناول من تلك الشجرة، وإنّما ندري أنّ الأساس في العلاقة بين الزوج وزوجه هو توفّر المودّة والرّحمة والاطمئنان، وسائر اشتراطات التساكن المشار إليه في الآية الكريمة ﴿ لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا ﴾. ويبدو أنّ التناول من ثمار تلك الشجرة، سيُحدث تغييرات جسديّة ونفسيّة لدى آدم وزوجه لا نعرف ماهيّتها، ولكنّها ستنتقل وراثة من آدم إلى ذرّيّته، بحيث تؤدّي بهم، خاصّة مَن لا يأخذ بالهدى الذي وعد الله آدم بأن يؤتيَه له بعد إخراجه من الجنّة، إلى تغليب العلاقة الجسديّة على علاقات المودّة والتراحم والتساكن بين الرجل والمرأة. وحينذاك لا تتحقّق كامل أهداف العلاقة الزوجيّة، بل يتحقّق جزء منها. وذلك لأنّ الغريزة قد تغلّبت على ما سواها من مشاعر إنسانيّة رهيفة رقيقة.

إنّ هذه الإلماعة من القصّة القرآنيّة ينبغي أن تدفعنا إلى النظر في أحوالنا المعاصرة، ومدى استجابتنا لاشتراطات الحياة الزوجيّة الهانئة الهادئة، ولنتساءل: هل ينظر الذين مَنّ الله عليهم بالزواج إلى علاقتهم مع الطرف الآخر في العلاقة الزوجيّة هذه النظرة الكريمة المتسامية، نظرة الألفة والتآلف والتساكن والمودّة والرحمة، أم أنّ الزوج (رجلا أو امرأة) لا يعتبر الطرف الآخر إلا متاعا يتمتّع به، جسدا أو مالاً أو جاها، ثمّ لا يتذكره إلّا استجابة لغريزة أو حاجة إلى مال وجاهٍ؟!

وثمّة فرق كبير بين أن تكون الغريزة هي المسيطرة، ويتحوّل إشباعها إلى غاية

(1) معجم مقاييس اللّغة، أحمد بن فارس 3 /88.

وهدف، وبين أن تكون واحدة من مكوّنات الحياة الزوجيّة التي شرّعها الله لتحقيق السعادة الحقّة، لا لإشباع الغرائز فحسب. وبتغلّب الغريزة على ما سواها، لم يعد آدم وزوجه مستأهلَين البقاء في الجنّة. وصار لا بدّ لهما من أن يعيشا في أجواء تلائم ما تكشّف لهما من سوآتهما، أو ما اكتسباه من تغيّر جسمانيّ ونفسي نتيجة تناولهما من تلك الشجرة، ولا توجد تلك الأجواء إلّا خارج تلك الجنّة، حيث يعودان جزءا من الطبيعة التي منها خُلقا، يصارعان صعوباتها، وينتفعان منها منافع شتّى ليبنِيا عليها، هما وذرّيّتهما من بعدهما، جنّتهم الأرضيّة التي تؤهّلهم للخلود في جنّة سماويّة. وتعرض القصّة القرآنيّة وسوسة الشيطان لآدم وزوجه واغترارهما بتلك الوسوسة فتناولهما من الشجرة المحرّمة عليهما، فإخراجهما من الجنّة، بآية أوجزت الحدث إيجازا بليغا، سيفصّل التنزيل العزيز الكلام عليه في موضع آخر: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

ولكنْ، ولأنّ الله رحمن رحيم ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾[2] فإنّه لم يكن ليكلّف المرء إلّا ما في وسعه، ونظرا إلى أنّ ذريّة آدم قد ورثوا عن أبيهم آدم وزوجه التغييرات التي سبّبها تناولهما من تلك الشجرة، فقد علّم اللهُ الإنسان كيف يسيطر على نزواته وغرائزه، وكيف يتحكّم فيها، وترك له حريّة تحديد مسيره ومصيره، بغير اقتسار ولا إكراه، فان سيطر على تلك النزوات والغرائز ووجّهها إلى ما خُلقتْ له، نال الخير والسعادة والاطمئنان، وإن تركها تسيطر عليه، وتوجّهه نحو الشرّ والعدوان، كان الخسران المبين نتيجة حتميّة له. وهو خسران قريب من ذلك الذي نابَ أبويهم آدم وزوجه، حين أطاعا وسوسة إبليس، فطُردا من الجنّة، وما كان لهما أن ينالا رضا الله وغفرانه، لولا أن تداركهما الله برحمته، فأرسل له ولذريّته

(1) سورة البقرة 36.

(2) سورة الأنعام 12.

هدى ونورا: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [1]. وهنا ثبتت سنّة الله، من فعل الخير فجزاؤه الخير، ومن فعل الشرّ فالشرّ جزاؤه. ويتساءل بعض الدارسين للقرآن الكريم، والمعنيّين بالأديان عموما، عن سبب وجود تلك الشجرة في الجنّة، لماذا خلقها الله فيها، وهو يعلم أنّه لا ينبغي لآدم الدنو منها؟! فهل أراد اختباره؟ وهل في الجنّة اختبار؟

وقد سبق لمفسّرين قدماء أن تحدّثوا عن هذا الموضوع، ولكنّهم وضعونا في حيرة من الأمر، إذ توهّموا في النّصّ غموضا فأرادوا، بحسن نيّة وسلامة طويّة، أن يزيلوا الغموض الذي توهّموه، فاذا بهم يُغمضون فيه ويختلفون كثيرا، فحار قرّاؤهم أيَّ وجه يختارون وأيّ معنى يأخذون به! ولو اكتفى أولئك المفسرون بواضح النص، ما داموا لم يملكوا الأدوات الضروريّة لفهمه حقّ الفهم، وما داموا لم يقع بين أيديهم نصّ موثّق آخر يفسّر ما خالوه غموضا وإبهاما في سياق النّصّ المشار إليه، لَما أحوجوا قراءهم إلى الاختلاف في المراد منه، ولَما أوقعوهم في حيرة وشقاق.

وألحقوا بهذا الموضوع موضوعا آخر، حين تساءل كثير منهم عن كيفيّة دخول الشيطان للجنّة وكان قد طُرد منها؟ وعن كيفيّة الوسوسة؟ وعن "أزلّهما"، هل هي الزوال أم الإزالة؟ أم هي أزالهما عنها، أي عن الجنّة؟ وراحوا يتناقشون على صفحات تفاسيرهم وشغلوا أنفسهم بما لا طائل تحت كثير منه. لأنّهم آمنوا بأنّ في النّصّ غموضا وإبهاما، فأهملوا هدفه، ولو انصرفوا إلى بيان المغزى من القصّة القرآنيّة، أو لو جمعوا الأمرين معا لكان خيرا لهم ولنا. غير أنّ لهم عذرهم من مواضعات أزمنتهم، وطبيعة المناهج التي اتّبعوها في دراساتهم.

ونؤكّد، هنا، أنّ من الظلم البيّن أنْ نطالبهم بغير ما استوحَوه من طبيعة العلوم التي كانت سائدة في أزمانهم. كما أنّ من الظلم الفادح أن نأخذ كلّ ما قالوه بلا

(1) سورة البقرة 38.

تمحيص وتدقيق ودراسة، فهم بَشَرٌ، أوّلا وأخيرا، يجوز عليهم ما يجوز على سائر البشر من صواب وخطأ.

والملاحَظ أنّ بعضا من المعاصرين، وعلى الرغم من التطوّرات العلميّة الكبيرة في الأزمنة الحديثة، وخاصّة في علم اللّغة وعلم الأجناس البشريّة قد أعاد تلك التساؤلات، بحسن نيّة، حينا، وبسوء نيّة، أحيانا، فقال: لماذا وجدت تلك الشجرة في الجنّة؟ وهل يجوز أن تكون فيها، في حين أنّ الجنّة دار ثواب، لا دار اختبار، ودار سلام وسعادة واطمئنان، لا دار عمل ينتظر الجزاء؟ وتساءل: ألا يتناقض هذان الأمران؟ ثمّ تحدّث عن الشيطان والوسوسة ودخوله إلى الجنّة التي كان قد طُرد منها، وقرّر أنّهما ضدّان لا يجتمعان.

الإنسان بين قَدَره وإرادته

الجواب، من وجهة نظرنا، أنّ الله تعالى خلق الإنسان وأهّله ليكون سيّد مصيره، فجعله قادرا على الاختيار بين الخير والشرّ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ ﴾[1]. فهو، سبحانه، الذي ألهم نفس الإنسان بما فيها نفس آدم ﴿ فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾. ثمّ إنّ الإنسان له أن يزكّيها فيكون من المفلحين، وله أن يدسّيها ويظلمها فيكون من الخائبين الخاسرين ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾[2]. وتلك واحدة من سُنن الله التي أودعها الإنسانَ، في كلّ الأزمنة والأمكنة، ما دام النّاس جميعا توارثوا تلك الصفات من أبويهم آدم وزوجه. فالشرّ موجود تمثّل له قصّة الخلق بالشجرة وكان لآدم وزوجه أن يمتنعا عن تناول ثمرتها، ولكنّهما لم يفعلا، بل انخدعا بوسوسة الشيطان الذي منّاهما بأنّ تناولهما من تلك الشجرة سيجعلهما مَلَكَين أو يجعلهما من الخالدين أو يؤهلهما لِمُلك لا يَبلَى. فساقهما طمعهما بتلك المُغرَيات إلى عصيان أمر ربّهما، ولم يدركا، إلّا بعد فوات الأوان، أن الشيطان كان كاذبا في ادّعائه، على الرغم من أنّ الله، تعالى، قد علّمهما أنّ الشيطان عدوّ لهما: ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝ ﴾[3]، فانخدعا بمعسول كلامه، وتناولا من الشجرة ولكنّهما لم يُصبحا مَلَكين ولم يحظيا بالخلود ولم ينالا المُلْك الذي لا يبلَى، بل كانت النتيجة

(1) سورة الشمس 7 - 8.

(2) سورة الشمس 9 - 10.

(3) سورة طه 117.

أن بدت لهما سوآتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة عسى أن يسترا ما بدا لهما من سوآتهما.

هذا من حيث حريّة الاختيار التي يملكها الإنسان، أمّا من حيث كون تلك الشجرة بمثابة اختبار لآدم، ممّا يناقض كون الجنّة دار ثواب لا دار اختبار، فهذا يعتمد على مفهوم الجنّة ومعناها، في هذا السياق، وهو ما سنجيب عليه، في موضعه، حين ننتهي من بحث معنى (إبليس) وكيفيّة عودته إلى الجنّة بعد أن طُرد منها، وهذا موضوع يرتبط بذاك إذ لا يصحّ أن يدخل الجنّة إبليس أو شيطان.

من الواضح أنّ (إبليس) صار مصطلحا ورمزا لوسوسات النّفس، وكذلك الشيطان. فأمّا تجسيده فللتوضيح وضرب الأمثلة وتوجيه الانتباه إلى الهدف من القصّة القرآنيّة. فهو شيء في داخل كلّ إنسان، ألا ترى أنّ ثمّة علاقة مشابهة لهذه الحالة في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ ﴾[1] ؟ ثم ألا تلاحظ الصلة بين وسوسات الشيطان للإنسان وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾[2] ؟ ولم يقل فمِن إبليس ولا مِن الشيطان. وكذلك قوله، تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ ﴾[3] ؟ فالنفس شيء لا سبيل إلى تحديده. وانظر إلى مشاعرك الذاتيّة إذ أنت تحسّ بها، ولكن أتدري من أين انبعثت؟ هل جاءت من هيجان الأعصاب؟ ولماذا اهتاجت الأعصاب؟ لماذا تنتفض مرعوبا حين يفاجئك ما لم تتوقّع من صوت عال عنيف، أو رؤية حيوان شرس؟ وحين تشعر بالهدوء والطمأنينة والسعادة، هل تدرك، بدقّة، بواعث ذلك الشعور؟ هل وصل العلم إلى معرفة الحسد والحقد والحبّ والبغض وغيرها من مشاعر وأحاسيس وتأثيراتها في الذات والآخرين؟ أريد من وراء هذه الأسئلة وكذلك مثلها الكثير مِمّا لم أذكره إذ هو في مظانّه من كتب علم النّفس، أن أبيّن أنّ الإنسان ما

(1) سورة الإسراء 13.

(2) سورة النساء 79.

(3) سورة يوسف 53.

زال ذلك المجهول، وأنّ كثيرا من عوالمه الداخليّة ومشاعره وأحاسيسه وأسبابها ما زالت مجهولة تماما له وللآخرين. ولقد صدق الحكيم الطبيب ابن سينا في وصف النّفس بقوله:

نـزلت إلـيك مـن المحـلّ الأرفـعِ ورقـــاءَ ذاتَ تعـــزّز وتمـــنّـــعِ
محجـوبة عـن كـلّ مُقلـة عـارِفٍ وهـي التـي سَفرتْ ولـم تتبـرقعِ [1]

هذه هي النّفس، لم يستطع العلم إلى الآن أن يكشف عن جزء يسير من أسرارها وكيفيّتها، بل وحتّى ماهيّتها. فهل نستغرب أن تكون الشجرة المذكورة في قصّة الخلق رمزا إلى الشرور والسيّئات؟ أو كونها رمزا إلى نوع من الطعام الذي يُخرج الإنسان من حالة رفيعة إلى حالة لا تليق بسموّ إنسانيّته ورفعتها، وخاصّة حين تتحكّم الغرائز الهابطة في التصرّف والسلوك؟ وهل يُستغرب منّا ذهابُنا إلى تقرير أنّ إبليس والشيطان شيء لم تحدّد الكتب السماويّة، ومنها القرآن الكريم، كنهه وجوهره، ولكنّها حذّرت من اتّباع وسوساته، وعلّمتنا كيف نحسّ بأثره وتأثيره في أعماق النفس وظاهر السلوك أيضا؟! ونعتقد أنّ عدم توضيح القرآن الكريم لماهية إبليس والشيطان من حيث هيئتهما وشكلهما وما إلى ذلك، لأنّ هذا ليس بالأمر المهمّ بمقدار أهميّة عدم الوقوع في شراكهما، فلا داعي للتشاغل بما لا نفع فيه ولا جدوى من ورائه.

وبعد أن يذكر القرآن الكريم مجريات وسوسة الشيطان لآدم، تصل القصّة القرآنيّة إلى عِبْرَةٍ لنا أخرى هي أنّ الله، تعالى، رحيم غفور، يعلم أنّ الإنسان خطّاء، فهو الذي خلقه، ويعرف ما تهجس به نفسه، وما تفعله جوارحه، يعلم أنّ الإنسان معرّض للخطأ والخطيئة كما هو مؤهّل للحقّ والصواب. ولذلك لا يؤاخذه بالانتقام والسخط والعذاب قبل أن يفتح له باب التوبة والإنابة، وقبل أن يرسل له الرسل والأنبياء ويهيئ له من أمره رَشدا، ويقيم له الدليل تلو الدليل على أنّه مخطئ وأن عليه أن يتدارك خطأه بالتوبة وأن يعود إلى الصراط المستقيم. وليس ذلك فحسب، بل إنّ الله هو الذي ييسّر للنّاس سبل التوبة، ويمهّد لهم طريقها كي لا يكون شاقّا

(1) كتاب الماء، أبو محمّد الأزدي 3 /486.

عليهم. ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]. أي: إنّه، تعالى، علّمه كيف يتوب وجعله يعلن ندمه على ما كان منه. وظلّ هذا القانون ساريا في أبناء آدم جميعا، ومنطبقا عليهم، حين يخطئون ويرومون العودة عن خطئهم ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ ﴾[2]. وكذلك: ﴿ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[3]. وثمّة عهد كتبه الله على نفسه: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾[4]. وكثير غير هذا. فلا ييأس ذوو النيّات الطيّبة - إن أخطأوا - من رحمة الله وعفوه وغفرانه، فتلك طبيعة النّاس وهي فطرة الله التي فطر النّاس عليها: ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ﴾[5]. وهو الذي يدعوهم إلى أن لا يقنطوا من رحمة الله التي وسعت كلّ شيء: ﴿ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ ﴾[6].

---

(1) سورة البقرة 37.

(2) سورة المائدة 39.

(3) سورة الأنعام 54.

(4) سورة طه 82.

(5) سورة الروم 30.

(6) سورة الزمر 53.

مفهوم إبليس ومفهوم الشيطان

لقد ذكرنا، آنفا، أنّ هذين قد أصبحا رمزا للشّرّ والعدوان. وقد يعترض علينا معترض أنّ الله، تعالى، ذكر الشيطان وذكر إبليس، وكأنّهما مخلوقان بذاتهما وعيانهما، فكيف يمكن أن يكونا مجرّد رمزين؟ وذلك قوله، تعالى: ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]. وكذلك الآيات الأخرى التي ورد فيها لفظ إبليس والشيطان. وبالتالي فإنّ التساؤل عن تغلغله إلى الجنّة وقد طُرد منها يظلّ قائما! ولكنّ هذا الاعتراض لا وجه له. من حيث إنّنا لا نُنكر وجود الشياطين ولا وجود إبليس، وإنّما نذهب إلى أنّهما رمزان، فـ(إبليس) لفظ نراه جامعا بين معنيين: (بلس) بمعنى فشل وسقط، و(لبس) وهو ما يتلبّس نفس الإنسان، حتّى اذا ما استمكن منها عُرف بـ(الشيطان) فإذا بتلك النفس توسوس لصاحبها بالشرّ والعدوان وسائر صور السوء. وممّا لا شكّ فيه أنّ الشيطان يلج إلى النفس بمختلف الوسائل والسبُل، وحتّى النّاس الأسوياء الخيّرون معرّضون لتغلغل الشيطان إلى نفوسهم متسرّبا اليهم من قناعاتهم ذاتها، ثمّ يأخذهم رويدا رويدا حتّى يصل بهم إلى الشرّ والعدوان. ولذلك ترى أناسا يفعلون السوء ويرتكبون السيئات وهم يحسبون أنّهم يُحسنون صنعا، ولو كانوا لا يحسبون ذلك حَسَنا لَما فعلوه، فهم يطلبون الحُسْنَى ولكن يلتبس عليهم الحسَن بالسيئ. أمّا إذا لم يكونوا أسوياء فهم يتعمّدون أن يُلبسوا الحسن بالسيئ متذرّعين بهذه الحجّة أو تلك.

الفريق الأوّل يمكن أن ينصاعَ للحقّ حين تتمّ توعيته به، وتنمية إدراكه للفرق

---

(1) سورة الأعراف 27.

بين الأمرَين، الحسَن والسيئ. أمّا الفريق الثاني، فمن الصعب انصياعه للحقّ، لأنّه أساسا يدرك الفرق بين الحسَن والسيئ، ولكنّه يصرّ على انتهاج طريق الشرّ والعدوان، ويتفنّنُ في اختلاق الأعذار والحجج لسلوكه. فإبليس والشيطان، لهما سبيلٌ على مَن كان قد ارتضى انتهاج طريق الشرّ والعدوان، ثمّ إنّ نفسَه الأمّارة بالسوء تزيّن له ما يفعله ويعمله ويقوله: ﴿ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[1]. وأيضا: ﴿ ۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾[2].

وقد تقول: إنّ وسوسات النّفس ليست قاصرة على تأثير الشيطان، ففي القرآن آية تقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ ﴾[3] فدلّت على أن تزيين السوء هو من الله أيضا!! وهذا قول غريب وفهم غير صحيح للآية الكريمة. فهؤلاء، أساسا، لا يؤمنون بالآخرة، وعدم إيمانهم هذا يقودهم إلى الإعجاب بما يفعلون ويعملون ويقولون. وهذا التصرّف - بطبيعة الحال - ليس خارجا عن إرادة الله، نعم، هو خارج (على) إرادة الله بمعنى العصيان، ولكنّه ليس خارجا (عنها) أي عن قدرتها، بمعنى أنّه، تعالى، وبقدرته اللّامتناهية يقدر على تغيير حالهم، غير أنّ ذلك التغيير يجب أن يبدأ منهم هم بالذات، ثمّ إنّ الله يوفّقهم لِما أرادوه من خير. أمّا أنّ الله يأمرهم بالسوء، ويفرضه عليهم فرضا، فهذا مِمّا يناقض عديدا من آيات التنزيل التي توضح الفرق بين ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾ وبين ﴿ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾[4]. وتلك هي حركة الإنسان في اختيار مصيره من غير نسيان التوفيق الإلهي لِمَن يستحقّه، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٠٦ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ

---

(1) سورة الأنعام 43.

(2) سورة فصلت 25.

(3) سورة النمل 4.

(4) سورة الشمس 9 - 10.

عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1]. فالآيات، وإنْ كانت في المشركين ومَن يدعون مِن دون الله، وضرورة الامتناع عن سبّهم، فإنّ الحكم الوارد في آخرها عامّ في كلّ الحالات المشابهة. فمَن أراد السيرَ في طريق الحقّ والخير سيستحسن عملَه ويرتضيه، ويناله الله برضاه ويسبغ عليه رحمته الواسعة، ومَن أراد السيرَ في طريق الشرّ والعدوان، فهو أيضا سيستحسن عملَه، ولكنّه لن ينال رضا الله، ولن يكون مستحقّا لرحمته. فالأمر، في الحالتين، معقود على نيّة المرء وسلوكياته، إنْ كانت خيرا، رأى الخير حسَنا واتّبعه، وإن كانت شرّا، رأى الشرّ حَسَنا واتّبعه. فإنْ كانت الأولى فإنّ الأصل الهداية، وإن كانت الثانية فإنّ الأصل الضلال، وهذا الضلال لا يأتي من الرحمن بل من الشيطان، أو قل من وساوس النفس بأطماعها وجشعها والقيم الهابطة المستكنّة فيها.

ثمّ إنّ للمسألة وجها آخر، حيث إنّ الله قادر على إنهاء الشرّ والقضاء عليه، وعلى سيادة الخير، ولكنّ سنن الله في الخلق، اقتضت أن يكون للإنسان دوره في تحديد مصيره وهو حرّ في اختيار سبيله. والحياة، أوّلا وأخيرا، هي دار اختبار، كما نصّت على ذلك الكتب السماويّة جميعا. فيها مَن يتزكّى، وفيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء. أمّا عن دور إبليس والشيطان في هذا السياق، فلقد قلنا قبل قليل إنّنا نرى أنّ لفظ (إبليس) مأخوذ من التبلّس، بمعنى السقوط والانهزام والفشَل، ومعنى (التلبّس) أي تلبّسه لنفس الإنسان، وتلبيسه الحقّ بالباطل حتّى يرى الضحيّةُ (السليمُ الطويّة) أنّ ما يخامره من رأي أو اعتقاد أو عاطفة، هو الحقّ، فاذا ما استبان له وجهُ الرّشاد عاد عن الضلال إلى الهدى. أمّا الضحيّة (السيئ الطويّة) المسارع في دروب الشرّ فهو يشعر بالسعادة إن استطاع أن يُلبس الحقّ بالباطل، كسبا لمغنم أو مكسب أو مال، كما في:

---

(1) سورة الأنعام 106 - 108.

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾[1]. فمِن الناس مَن يطلب المال الخبيث كأن يكون من سرقة أو رشوة أو ربا أو أيّ وجه من وجوه المال الحرام، ثمّ يتبرّع بشيء منه أو يصرف شيئا منه له ولغيره، متذرّعا بأنّ السيئة تُجْزَى بمثلها وأنّ الحسنة تضاعَف إلى عشرة أضعاف! وهذا هو وحي الشيطان، وحي النفس الأمّارة بالسوء. فالآية تنذره أنّ مثل هذا المال الحرام لا يتقبّله الله، كما في الآية: ﴿ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[2] وكذلك: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[3]. فالتقوى هي التي تطيّب الإنفاق، وما التقوى إلّا العمل الصالح والنيّة الصادقة التي لا (تتبلّس) أي تؤول إلى الخسران، ولا (تتلبّس) بالشرّ والعدوان. ومن ذلك التلبّس يلتبس على المرء وجه الصواب، ولذلك جاء في التنزيل العزيز: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ ﴾[4]. ومثل ذلك قوله، تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[5]. وإنّما حدث التزيين لهذا لأنّه لم يكن على بيّنة من ربّه، فتغلغل الشيطان إلى نفسه وسيطر عليها: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾[6] لذلك أمر الله النّاس: ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ

(1) سورة البقرة 267.
(2) سورة التوبة 53.
(3) سورة المائدة 27.
(4) سورة فاطر 8.
(5) سورة الأنعام 43.
(6) سورة محمد 14.

بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [1].

أمّا لفظ (الشيطان) فهو من (ش. ط. ن) الدالّ على البُعد والشدّة، حتّى قيل للحبل الطويل الشديد الفتل الذي يُدلَى في البئر أو تشدّ به الدابّة (الشَّطَن)، فكأنّ التلبّس حين يصل إلى أعمق أغوار النّفس ويستشري في تلك الأعماق ويسيطر على ذات المرء وسلوكه، يتحوّل إلى لفظ (شيطان).

ولقد استخدم التنزيل العزيز اللّفظتين للدلالة على شيء واحد ذي دورَين، ففي قصّة الخلق هذه التي ندرسها هنا جاء اللفظان دلالة على ذلك الشيء الواحد، حيث نقرأ **في سورة البقرة:** ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ [2]. فهذا الشيء، في هذا الموضع هو (إبليس) فلَمّا تغلغل في أعماق نفس آدم صار (شيطانا) وذلك قوله تعالى في السياق ذاته: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [3]. والحقّ أنّنا نجد في كلّ مواضع قصّة خلق آدم في جميع القرآن الكريم أن لفظة إبليس جاءت حين امتنع عن السجود، فأمّا إغواؤه لآدم ولذرّيّته فجاء بلفظ الشيطان، ذلك لأنّ الأولى تعني أنّه مبلِس فيُلبِس الحقّ بالباطل، وأمّا الثانية فتعنِي زيادة تغلغله أو (إبعاده) في نفس المرء حتّى يوسوس له ويسيّر تصرفاته.

بل إن المواضع التي جاء فيها لفظ (إبليس) في التنزيل العزيز كلّها في هذا السياق، إذ ورد إحدى عشرة مرّة، منها تسع مرّات في قصّة خلق آدم، ورفض إبليس السجود لَمّا أُمِرَ به. وهناك مرّتان لا تدلّان على إلّا على معنى اتّباع إبليس: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [4].﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [5] وذلك ما تعهّد به حين أمره الله أن

---

(1) سورة البقرة 42.

(2) سورة البقرة 34.

(3) سورة البقرة 36.

(4) سورة الشعراء 94 - 95.

(5) سورة سبأ 20.

يخرج من الجنّة: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

ونصل الآن إلى بيان إجابة التساؤلات التي قال بعض المعاصرين إنّها تناقضات في القرآن الكريم، من حيث وجود شجرة في الجنّة كانت موئل اختبار لآدم، في حين أنّ الجنّة دار ثواب لا اختبار، ومن حيث تمكّن إبليس من أن يتسلّل إليها بعد أن طُرد منها، ولا يصحّ أن يكون في الجنّة شيطان أو إبليس.

(1) سورة الحجر 39 - 40.

موطن الإنسان الأوّل

إنّ جواب هذه التساؤلات يكمن في معنى الجنّة هنا، هل هي جنّة على الأرض؟ أم الجنّة التي وعد الله بها عباده المتّقين؟! فان كانت جنّة أرضيّة فلا مبرّر للتساؤلات الآنفة الذكر، إذ إنّ مثل هذه الجنّة تشتمل على مثل تلك الشجرة المنهيّ عنها، كما أنّ إبليس أو الشيطان، أيّا كان معناه، يستطيع أن يتسلّل إليها وأن يوسوس لِمَن هو ساكنٌ فيها ومستقرّ بها. فوسوسات النّفس موجودة، ولذا قال، تعالى، في وصف أصحاب الجنّة الأُخرويّة: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1]. وإن كانت الجنّةَ الأخرويّة تظلّ التساؤلات قائمة حتّى يعرف المرء المراد بالشجرة المذكورة معرفة نهائيّة، ويحدّد مفهوم إبليس والشيطان بصورة أكثر دقّة. إذ لا أحد يجرؤ على القول أنّه يعرف ذلك معرفة دقيقة، وذلك أنّ قوله، تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾[2] مستمرّ إلى آخر يوم من أيّام هذه الحياة، مهما اتّسعت معارف الإنسان ومداركه. بل إنّ الملاحظ أنّ الإنسان كلّما اتّسعت علومه ومعارفه ومداركه واختراعاته واكتشافاته، يجد نفسَه أمام مزيد من المجاهيل التي هي بحاجة إلى معرفة كنهها وماهيّتها وحقيقتها، فما إن يستطيع المرء معرفة بابٍ من أبواب العلم، حتى تنفتح له من وراء تلك المعرفة أبواب بلا عدّ ولا حصر، عليه أن يلجها أيضا لمزيد من المعرفة والتطوّر والتقدّم وفهم هذا الكون وما فيه. ومن هنا قال آينشتاين، وهو مَن هو في علوم الفلَك والكون، بعد اكتشافه للأشعة الكونيّة، إنّه لو كان العلمُ هو المحيط الأطلسي فإننا لم نبلّل به كعوب أقدامنا، بعد،

(1) سورة الحجر 47.

(2) سورة الإسراء 85.

وسيظلّ الحال على هذا حتّى يرث اللهُ الأرضَ ومَن عليها.

ومِمّا يساعدنا على فهم هذا البُعد من أبعاد الموضوع أنّ تطورات العلوم الحديثة تثبت لنا كلّ يوم أنّنا أمام مجاهيل جديدة، على الرغم من التطوّرات الهائلة التي تطرأ على تلك العلوم، ومنها ما وصل إليه علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) من أنّ الأرض لم تكن على هذا الشكل الذي نعرفه الآن، بل كانت قارات العالم الحاليّة متّصلة فيما بينها اتّصالا جغرافيا، ثمّ في عهود سحيقة في القدم، انفصل بعضها عن بعض، وحدث ذلك الانفصال بعد حصول تغييرات جيولوجيّة هائلة، لم يستطع العلم تقديم تفسير محدّد لها. وعلى الرغم من عجز العلم عن تقديم تفسير مقنع لذلك، فإنّنا مقتنعون بأنّ هذه التغييرات الجيولوجيّة الهائلة قد حدثت بفعل طوفان نوح، على ما سنبيّنه في موضعه. مِمّا يفتح أمامنا احتمالات شتّى لمعنى الجنّة الواردة في قصّة الخلق.

فمِمّا لا شكّ فيه انّ انفصال القارّات لم يكن منذ أول نشأة الإنسان على الأرض، بل بعد ذلك بمراحل طويلة من الزمن والتطوّر الحضاري، بحيث استطاع البشر أن يواصلوا حياتهم في ديارهم الجديدة على ذات الأسس والأصول التي نشأوا عليها قبل انفصال القارّات، ومن هنا نستطيع أن نفهم وحدة الأصل اللغوي للغات العالم جميعا، وأن نفسّر ظهور حضارات متشابهة الجذور والأسس في أصقاع مختلفة من العالم، بما في ذلك قارّة أمريكا الجنوبيّة التي بنَى ناسُها حضاراتهم على الأسس والقواعد التي كان الأفارقة يبنون حضاراتهم عليها. وينفعنا في هذا المجال ما ذكره علماء كثيرون في الأزمنة الحديثة من نظريات عن أصل الحضارات لتقرير أنّ منشأ تلك الحضارات في جنوب الجزيرة العربيّة، في منطقة "ما" شرقيّ عدن.

إننا حين نضع أمامنا حقيقة كون العالم قارّة واحدة قبل انفصالها إلى قارات، ونعود إلى نظريّات تفسير ظهور الإنسان الأول على الأرض، لا نجد مندوحة من الاعتراف بأنّ ذلك الإنسان الأوّل قد ظهر في الإطار الشرقي من جنوب الجزيرة العربيّة، وفي (شرقيّ عدن) بالتحديد.

وإذا كانت ثمة رؤى تراثية بأنّ موطن الإنسان الأول (شرقيّ عدن) فإنّ

النظريات الحديثة متناقضة وغير مستقرة على رؤية محددة، فتارة تقول إن موطن الإنسان الأول شمال العراق، وأخرى تقول إنه أفريقيا، وغير ذلك.

وأيا كان الأمر، فإنّ هذه النظريّات، بشتّى ألوانها، لم تستطع أن تدفع الإقرار بأنّ موطن الإنسان الأول كان (شرقيّ عدن). ونحن حين نقول (شرقيّ عدن) فإنّما نستعمل مصطلح القدماء من مفسّري الكتب السماويّة وعلماء الأديان، ومصطلح العلماء المعاصرين. ونظرا لهذا لا نجد ضيرا، ومن أجل تحديد أكثر دقّة للإنسان الأول والمكان الذي ظهر فيه، إلا الاقتناع بما قالت به الأديان السماويّة، من أنّ الإنسان الأوّل هو (آدم) وأنّه ظهر في مكان ما (شرقيّ عدن) [1].

ومن جانب آخر تتّفق الكتب السماويّة مع النظريّة القرآنيّة في هذا الموضوع، وفي موضوع خلق آدم ذاتِه، تلك النظريّة التي تقرّر أنّ (آدم) قد خُلق من أديم الأرض، أي من ترابها، وأنّ رسالته ورسالة أبنائه من بعده عمارة الأرض بناء على نظريّة الاستخلاف، ومن دلالات ذلك ما يلي:

أ - قوله، تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [2]، ونلاحظ أنّ هذه الآية وردت **في سورة هود**، وهو أوّل نبيّ بعد الطوفان، وظهر في بلاد عاد في الأحقاف في جنوب الجزيرة العربية وجنوبها الشرقي.

ب - قوله ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝ ﴾ [3] وقوله: ﴿ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ [4].

ج - وكذا ما جاء في الحديث النبويّ الشريف: (كلكم لآدم وآدم من تراب). وقد ذكر ابن عبّاس أنّ (آدم) مشتقّ من أدَمَة الأرض وأديمها، وهو وجهها، فسمّي بما خُلق منه [5]. ونصّ سعيد بن جبير على ذلك أيضا [6]. وقال الخليل بن أحمد:

---

(1) قصص الأنبياء، لابن كثير 55.

(2) سورة هود 61.

(3) سورة طه 55.

(4) سورة آل عمران 59.

(5) تفسير القرطبي 1 /279.

(6) تفسير الطبري 1 /214.

وأديم كلّ شيء ظاهر جلده وأدَمَة الأرض: وجهها، وقيل سمّي آدم، عليه السلام، لأنه خُلق من أدَمَة الأرض، وقيل بل من أدَمَة (أي سُمرة) كانت فيه [1].

وعلى هذا يكون اسم (آدم) اسما عربيّا محضا، وقد ردّ الجواليقي على مَن قال بعُجمته [2]. ومن الجدير بالذكر أن العبرانيّين ذهبوا، إلى القول بأنّ لفظة (آدم) عبرانيّة، غير أنّ اللغة العبريّة لم تكن أيّام آدم، وقد أثبت علم اللغة أنّ أوزان اللغة العبريّة وكلماتها أحدث نشوءا من العربيّة [3]. أما عن منعه من الصرف فليس بسبب كونه علما أعجميّا (سريانيّا أو عبرانيّا) بل لسببين هما التعريف ووزن الفعل، على ما قرّره أبو البركات ابن الأنباري [4].

إنّ هاتين النظريّتين العلميّتين، في خلق آدم من تراب والتي تتأكّد من مقارنة مكوّنات جسم الإنسان ومكوّنات التراب، وفي نظريّة انفصال القارّات، تجعلنا نحتمل احتمالا لا نجد ما يدفعه، من أنّ تضاريسَ العالَم الذي وُجد فيه آدم تختلف عن تضاريس العالم الذي نجد أنفسنا فيه الآن، فلا مانع من أن تكون الأرض الواقعة شرقيّ عدن، في تلك الأزمنة السحيقة (جنّة) فيحاء في أرض خصبة، خاصّة إذا عرفنا بالتحديد معنى (الجنّة).

وإذا كان جمهور من المفسّرين يذهبون إلى أنّ الجنّة التي خلق فيها آدم هي جنّة في السماء ثم أهبط منها إلى الأرض، فإنّ جمهورا آخر من العلماء رأى أنّها في الأرض، ومن هؤلاء أُبَيّ بن كعب وعبد الله بن عبّاس ووهب بن منبّه وسفيان بن عيينة وابن قتيبة والماوردي والقاضي منذر بن سعيد البلوطي والدينوري وكثيرون آخرون [5]. ونحن نميل إلى هذا الرأي لأسباب عديدة منها:

---

(1) العين 1 /97.

(2) المعرّب، الجواليقي 61.

(3) الكنز في قواعد اللغة العبريّة 43.

(4) الأضداد، ابن الأنباري 1 /74.

(5) قصص الأنبياء، ابن كثير 20.

1 - إنّ الجنّة لا يُشترط فيها أن تكون في السماء، وليس اللفظ قاصرَ الدلالة على الجنّة التي وُعد بها المتّقون. بل إنّ المعنى عامّ لكلّ بستان ملتفّ الشجر كثيفه. وقد قرّر اللّغويون أنّ الجنّة: الحديقة ذات الشجر والنّخل، وجمعها جِنان. ويُشتَرط فيها أن تكون ملتفّة الأشجار حتّى كأنّها تستر ما في داخلها، لأنّ الجذر (ج. ن. ن) دالّ على الاستتار، وقولك: جنّ الشيءَ يجنُّه جَنّاً: سَتَرَه. وكلّ شيء سُتر عنّك فقد جُنَّ عليك. والجُنّة: ما واراك من السلاح واستترتَ به منه. والمِجنّ: الوِشاح. والمِجَنّ: التُّرس. والجنّ: كلّ ما لا تراه [1].

2 - إن آدم، خُلق من الأرض ليسكن فيها خليفة لله ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [2]. والخليفة الذي عُهدت إليه خلافة الله في الأرض لا يوضع في السماء، حتّى على رأي من قال أنّه لا منافاة في ذلك لأنّ الله، تعالى، وبكمال علمه، علم أنّ إبليس سيُغوي آدم فينزله من جنّة السماء إلى الأرض، غير أنّ حكاية الخلق كلّها لا تحتمل ذلك، وثمّة من رأى أنْ لو كان آدم في جنّة السماء لما استطاع إبليس، وهو المطرود من الجنّة الوصول إليه فيها.

3 - إنّ الذين ذهبوا إلى أنّ الجنّة المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [3] هي في السماء فلأنّهم فهموا قوله تعالى ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ [4] فهما خاصًا، حيث إنّ ﴿ ٱهْبِطَا ﴾ تدلّ عندهم على الهبوط من مكان مرتفع إلى مكان منخفض، فلا بدّ أن آدم وحواء قد أهبطا من السماء إلى الأرض.

غير أنّ الآية الكريمة لا تُلزم بذلك، فالهبوط في القرآن الكريم، لا يُشترط فيه العلوّ المكانيّ، بل هو العلوّ المعنويّ، فالهبوط من مرتفع الشأن إلى ما هو دونه، كقوله تعالى في قصّة بني إسرائيل: ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ

(1) لسان العرب (جنن).

(2) سورة البقرة 30.

(3) سورة الأعراف 19.

(4) سورة طه 123.

عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ﴾ [1] ولم يكن بنو إسرائيل في السماء بل في الأرض، وكذا قوله، تعالى في قصّة الطوفان: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ ﴾ [2]. ولم يكن نوح ومن معه إلا في سفينة تمخر بهم عباب البحار الهائجة.

4 - إنّ الجنّة المذكورة في قصّة خلق آدم ﴿ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ [3] لا تحديد فيها أنها في السماء، وكلّ السياق دالّ على أنّ آدم خُلق من الأرض وبقي فيها ولم يُذكر أنّه رُفع إلى جنّة في السماء، ومثل هذا دلالة قوله تعالى ﴿ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ [4] فـ(أصحاب الجنّة) المذكورون هنا كانوا على الأرض لا في السماء بدلالة سياقها: ﴿ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ ﴾ [5]. وقوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ ﴾ [6] وقوله: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ ﴾ [7] ومثل ذلك قوله، تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ ﴾ [8] فإنّ مجرّد قوله تعالى ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ إشارة واضحة إلى أنّ لفظ الجنّة ليس قاصرا على جنّة أخرويّة أو جنّة سماويّة. وهناك كثير غير هذه الآيات مما يساعد على القول بأنّ الجنّة الي أسكنها آدم كانت في الأرض، ثمّ أهبط منها، بمعنى أخرج منها.

---

(1) سورة البقرة 61.

(2) سورة هود 48.

(3) سورة الأعراف 19.

(4) سورة القلم 17.

(5) سورة القلم 17 - 20.

(6) سورة سبأ 15.

(7) سورة الكهف 35.

(8) سورة الرعد 4.

أمّا موضع تلك الجنّة وأوّل مكان نزله آدم بعد إخراجه منها، فمسألة مختلَفٌ فيها كثيرا. ولكنْ، وبناء على معطيات العلم الحديث والكشوف الأثريّة، وما عرضناه قبل قليل، إضافة إلى نصوص التنزيل العزيز، نرى أنّ أوّل ظهور للإنسان على الأرض، هو شرقيّ عدن كما سبق أن ألمحنا إليه. وبطبيعة الحال، فإن هذه الرؤية ترجيحية وليست نهائية.

وقد رأى بعض القدماء أن المراد جبل في بلاد الهند أو بلاد السند [1]، وهو رأي مرجوح لهذه الأسباب:

1 - لأنّ الهند، يمكن أن تُحدّد بكونها شرقيّ بلاد فارس مثلا لا شرقيّ عدن، فليس شرقيّ عدن إلا ما حاذاها. وهنا يجب أن نلتفت إلى مسألة الفرق اللغويّ، بين أسماء الجهات مع ياء النسبة والتملّك، وبغيرها. فلك أن تقول تقع تركيا، مثلا، شمال العراق، أمّا الموصل فتقع شماليّ العراق. ومن أدلّة ذلك قوله، تعالى، في قصّة مريم: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ ﴾ [2] وهذا لا يعنِي ذهابها إلى بابل مثلا بل يعنِي مكانا يبعد عن أهلها بحيث تخفَى عن أنظارهم، وهو يقع إلى الشرق منهم بمسافة ما. ولذلك وُصف بأنّه قصيّ [3] نسبة إلى مكانهم. والقَصيّ لا يعنِي البُعد الكبير المتطاول في البُعد، ومثاله ما جاء في قوله، تعالى: ﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ ﴾ [4] وكلا الفريقين في موضع واحد استعدادا للقتال.

2 - لأنْ لا دليل على ظهور الإنسان الأوّل في الهند، عند القائلين به، إلا ارتفاع الجبال، وكأنّ هبوط آدم من جنّة السماء (وقد مرّ الخلاف فيه) لا يصحّ إلا على قمّة جبل هي الأقرب إلى السماء من غيرها. وعلى فرض ضرورة أن تكون قمّة الجبل أقرب من غيرها إلى السماء كي ينزل آدم إليها، فليس ثمّة دليل علميّ يؤكّد

(1) أخبار مكّة 1 /36 - 39.

(2) سورة مريم 16.

(3) سورة مريم 22.

(4) سورة الأنفال 42.

أنّه في تلك الأزمان السحيقة في القدم كانت جبال الهند أكثر ارتفاعا من غيرها.

3 - إن أوائل الأنبياء الذين ظهروا بعد آدم، كان موطنهم في ذلك القسم من جزيرة العرب، ولم يذكر التاريخ ظهور نبيّ من الأنبياء في الهند، لا في مَن تقدّم ولا في مَن تأخّر. إذ إنّ من البديهي أن يكون ظهورهم في أماكن سكناهم التي أهبط إليها آدم حيث بدأ الجنس البشري بالظهور والتكاثر والانتشار، ولو كان آدم قد أسكن الهند لبدأ انتشار البشر من هناك، ولبدأ ظهور الأنبياء من هناك أيضا.

4 - ونصل إلى طوفان نوح، وهبوط الناس من السفينة على الجوديّ، في مكان مختَلَف في تحديده، ولا نريد أن ندخل في هذا الموضوع الآن، إذ سنتطرّق إليه لاحقا في قصّة نوح. وبحسبنا أن نشير، هنا، إلى أنّ أوّل نبيّ ظهر بعد نوح، هو النبيّ هود، الذي أرسل إلى قوم عاد في الأحقاف، والأحقاف تشكّل جزءا من أرض الجزيرة العربية، لا من أرض الهند ولا من أرض السند، على ما سنتبيّنه تفصيلا في الحديث عن قوم عاد.

5 - إن الكشوف الأثريّة وتحليل النقوش والنصوص القديمة توصلنا إلى أنّ جنوب الجزيرة العربية هو موطن الإنسان الأول، وفيها ظهر العرب الذين نعتبرهم أقدم الأقوام المعروفة، وهم أجداد ما يُعرف بالأقوام الساميّة. ومنها انطلقوا شمالا نحو نجد وما والاها، وشرقا إلى بلاد فارس والهند، وغربا إلى اليمن، بل إنّ ثمّة شواهد كثيرة على أنّ العرب كانوا قد عبروا المضيق البحري الذي يفصل بلاد اليمن عن أفريقيا، وقد سمّى بروكلمان ذلك العبور استعمارا، غير أنّ الحدث باعترافه هو، انتقال قوم من مكان إلى مكان، وإيجاد وطن جديد [1] لأسباب قد تكون اجتماعيّة أو سياسيّة أو جيولوجيّة خاصّة ونحن نتحدّث عن عدّة آلاف من السنين قبل ميلاد المسيح، أو بحسب تعبير بروكلمان نفسه (ونحن لا نعرف متى هاجرت هذه الأقوام إلى هناك، ولكن يرجّح أنّ ذلك تمّ على فترات قبل ميلاد السيد المسيح بوقت طويل) [2]، ثمّ، في مراحل لاحقة من التاريخ، تغلغل هؤلاء المهاجرون في الأعماق

(1) ينظر فقه اللغات الساميّة، بركلمان 32.

(2) فقه اللغات الساميّة، بركلمان 32.

الأفريقيّة، بحيث يمكن أن نقرّر أنّ آدم قد ظهر في تلك الأرجاء، ومن هناك تكاثرت ذرّيّته وانطلقت إلى بقيّة أرجاء العالم.

فالجنّة، إذن، جنّة أرضيّة، يُمكن أن توجد فيها شجرة يُمنع الإنسان من تناول ثمرها، كما يمكن أن تتجلّى فيها وساوس النّفس التي مبعثها الشيطان.

وقد يُعترَض على هذه الرؤية بالحوار الذي دار بين الله، تعالى، والملائكة وآدم، في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [1] على أساس أنّ مثل هذا الحوار لا يكون إلّا في جنّة فيها الملائكة ومعهم إبليس. ولكنّنا نرى أنّ هذا الاعتراض مردود من أكثر من ناحية:

* ليس من الضروري أن يكون هذا الحوار قد حدث في جنّة سماويّة، إذ يمكن أن يحدث في أيّ مكان وأيّ زمان، ومثله ما حدّثنا به التنزيل العزيز في قصّة زكريّا: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾ [2] ومحراب زكريّا في الأرض لا في السماء، كما أنّه لم يكن في جنّة من جنان هذه الأرض، وإنّما في بقعة من بقاعها.

* نحن لا نعرف ماهيّة الملائكة معرفة دقيقة، ونكتفي بما ذكره التنزيل العزيز لنا، من أنّهم من مخلوقات الله، وأنّهم يعبدونه ويسبّحونه، ويحملون رسالاته إلى

(1) سورة البقرة 30 – 34.

(2) سورة آل عمران 39.

أنبيائه. لذلك لا يمتنع لدينا أن يكونوا مع آدم في الجنّة الأرضيّة التي أُسكن فيها.

* إنّ وجود (إبليس) مع الملائكة في تلك الجنّة، أيّا كان معنى إبليس وأيّا كان معنى الملائكة، يُثبت أنّها جنّة أرضيّة، إذ الجنّة السماويّة ليس فيها أبالسة ولا شياطين ولا وسوساتهم، بل ولا النّفس الأمّارة بالسوء.

* انّ قوله، تعالى لآدم: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [1] لا يصف تلك الجنّة باستثناء أنّ ساكنها لا يجوع فيها ولا يعرَى وأنّه لا يشعر فيها بعطش ولا حرارة قاسية؟! وأين هذا من وصف الجنّة الأخرويّة مِمّا ورد في التنزيل العزيز في أكثر من مائة وعشرين موضعا في توصيفها؟! ثمّ أين هذا من تلك الجنّة التي جاء في وصفها أنّ فيها ما لا عينَ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟ أين هذا من قول التنزيل العزيز، مثلا: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [2].

ولهذا كلّه، لا نرى مناصا من القول بأنّ تلك الجنّة جنّة أرضيّة لا جنّة سماويّة. وبذلك تسقط الاستشكالات التي أثارها بعضهم مما ذكرناه آنفا، كوجود شجرة مُنع آدم وزوجه من الاقتراب منها، وما إلى ذلك.

---

(1) سورة طه 117 - 119.

(2) سورة الزخرف 70 - 73.

النّبيّ آدم... وكلمات الغفران

حين ندم آدم وزوجه على ما فرط منهما واستغفرا ربّهما الودود الرحيم الغفور، قَبِلَ توبتهما، بل علّمهما الوسيلة لتلك التوبة، الكلم الطيّب يرفعه العمل الصالح. وتلك هي الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]. وهذا هو الموضع الوحيد في التنزيل العزيز الذي صرّح بتلقّي آدم لكلمات من ربّه، فما تلك الكلمات؟

مسألة حار فيها المفسّرون القدماء واختلفوا كثيرا، ولعلّ أبرز ما ذهبوا اليه أنّ تلك الكلمات تتمثّل في الدعاء الذي دعا به آدم وزوجه ربّهما، وهو: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ . ولكنّ هذا التفسير لا يستقيم مع مجريات القصّة القرآنيّة، فهما قد دعوَا ربّهما بذلك الدّعاء قبل إخراجهما من الجنّة كما هو واضح من سياق الآية السابقة. وبعد دعائهما أمرهما ربّهما بالخروج من الجنّة. ولا ينقض هذه الرؤية قوله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ ﴾[3] بتقديم ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ لأنّ الأداة (ثمّ) دالّة على تراخي المدّة، ولا يُشترط فيها تتابع ما قبلها وما بعدها،

---

(1) سورة البقرة 37.

(2) سورة الأعراف 23 - 24.

(3) سورة طه 121 - 123.

وذلك لأنّ للسياق حكمه في ذلك، فقد جاء ذكر آدم، فاستوعب السياق ما يخصّه، ثم انتقل السياق إلى طردهما من الجنّة. ولو كان النصّ: (وعصى آدم ربّه فغوى. قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدوّ. ثمّ اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى، أو ثمّ اجتباهما ربهما إليه فهدى) لوقع محظوران:

* الأول: غموض عودة الضمير في (اجتباه)، فقد سبقته جملتان، الأولى فيها مفرد هو آدم، والثانية فيها مثنّى، وهو آدم وإبليس، وجاء الخطاب في آية أخرى بصيغة الجمع ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾[1]. حيث يشمل آدم وزوجه ومعهما إبليس، لذلك لم يأتِ فيها الاجتباء، وإنّما تلقّي آدم للكلمات. وأمّا لماذا لم تتلقّ زوجه الكلمات فلأنّ لهذه الكلمات دلالة خاصّة سنتبيّنها لاحقا، بحيث تقع على آدم، لا على زوجه، المسؤوليّة الأولى في تنفيذها.

* الثاني: احتمال كون (ثم اجتباهما ربهما) شاملا لآدم وإبليس، وهذا ينافي القصّة كلّها. ولا نظنّ أن المثنّى في هذه الآية آدم وزوجه، لأنّهما لو كانا المقصودَين في هذه الآية لجاء المثنى مع (اجتباه) و(ربه)، ولصار الكلام (اجتباهما ربهما) فليس من المعقول أن يخطئ آدم وزوجه ثمّ يتوب الله على آدم ولا يتوب على زوجه، خاصّة وأنّهما معا دعواه بالدعاء ذاته ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾. ولا ينافي هذه الرؤية ما عرفناه من أنّ آدم هو الذي تلقّى الكلمات من ربّه، وأنّ الله قد تاب عليه وهداه، ذلك أن زوجه قطعة من نفسه وبدنه، فالمخلوق الأول آدم، ثم خلقت له زوجه. فما يقع عليه يقع عليها، وما يجري عليه يجري عليها، هكذا كانت حالهما. هذا إضافة إلى ما قلناه من خصوصيّة دلالة الكلمات، بحيث يكون آدم هو المسؤول عن تنفيذها. ويعيدنا هذا إلى مفهوم هذه الكلمات، فما ذلك المفهوم؟

قلنا إنّ القدماء اختلفوا فيها، وذكرنا واحدا من آرائهم، في أنّ المقصود بها: الكلمات التي دعا آدم وزوجُه ربّهما بها. وبيّنّا أنّ ذلك غير صحيح لأنّ الدعاء سبق

(1) سورة البقرة 36.

خروجهما من الجنّة، وأمّا الكلمات فتلقّاها آدم بعد ذلك الخروج.

الكلمات، جمع كلمة، وهي من الجذر (كَلم) وأصله الجرحُ والشّقّ والجمع كُلومٌ وكِلامٌ. وكَلَمَهُ يَكْلِمُهُ: جَرَحَهُ. ورجل مكْلُومٌ وكَليم، أي: جريح. وبه فُسّر قوله تعالى: ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ [1] وقرئت تَكْلِمُهُم، كما في قولك: تجرحهم وتجرّحهم. وسواء كان المقصود أنّها تحدّثهم أم تجرحهم، فإنّ معنى الجرح باقٍ في الجذر (ك.ل.م). والكِلام: الجراح. والتكليم: التجريح. وفي الحديث: (ذهب الأوّلون لم تَكْلِمهُم الدنيا من حسناتهم شيئا) [2] أي لم تؤثّر فيهم ولم تُنقص من حسناتهم شيئا. والكلمى: الجرحى. وفي الحديث، أيضا: (إنّا نقوم على المرضى ونُداوي الكَلْمَى) [3] أي الجرحى. والكُلام: أرض غليظة صليبة أو طين يابس.

وفي اللّفظة شدّة وعُسر، ومعاني الشّدّة فيها لا تقتصر على الشّدّة المادّيّة، كأنْ تقولُ: كَلَمْتُ فلانا بسيفي، أي: جرحته به؛ وإنّما تشمل، أيضا، الشّدّةَ المعنويّة، كأنْ تقول: كَلَمْتُ فلانا بلساني أو بسلوكي، وكقولهم: إنّ بقلبي كُلوما كثيرة، أي: جراحا. فذاك على سبيل الأثر المادّيّ، وهذا على سبيل الأثر الروحي والنفسي الذي لا يُرى بالعين المجرّدة. ومن هنا فإنّ هذا الأثر الروحي والنفسي يحظى بتوصيفات أخرى إضافة إلى الشِّدّة، هي الجزم والقطع والحزم والحسم. ومن المؤكّد أنّ الجراح غير الماديّة أشدّ على المرء من الجراح الماديّة، فهذه الأخيرة يمكن أن تندمل بالمعالجة الطبيّة، مثلا، ثمّ غالبا ما تُنسى بمرور الزمن، أمّا تلك فإنّ اندمالها عسير ونسيانها أكثر عسرا. وهذه المعاني الدالّة على الشدّة والحزم والقطع والجزم نلحظها في تقليبات الجذر أيضا، بناء على نظريات الاشتقاق المعروفة:

* لَكَم الدالّ على نوع من الضّرب الشديد العنيف، واللّكز والدفع في الصدر والوجه، وخُفٌّ مِلْكَمٌ ومُلَكَّمٌ: صُلبٌ شديد.

---

(1) سورة النّمل 82.

(2) النّهاية في غريب الحديث، ابن الأثير 4 /199.

(3) م. ن.

* ومنه: مَلَك، الذي يعنِي الاستئثار بالشيء بالقوّة والغلبة. والـمَلَكوت: القدرة الغالبة التي لا يدانيها شيء، وقد جاء في التنزيل العزيز: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (1). وفلانٌ يملك فلانا أي يستعبده ويسترقّه. وقولهم: نفسي لا تُمالكنِي أن أفعل كذا، أي لا تطاوعنِي، فهو بحاجة إلى قوّة يتغلّب بها على نفسه. وفلانٌ يتمالك نفسَه أي يسيطر عليها بقوّة. ومِلاكُ الأمر: قِوامُه. وفي الحديث: (مِلاكُ الدين الوَرَع) (2) فالـمِلاك: قِوام الشيء ونظامه.

* ومنه: كمل، ولا يكمل الشيء إلا بعناء ونَصَبٍ.

* ومنه لَـمَك وهو جذر كان يستخدم قديما للتعبير عن الشدّة، كقولهم: شابٌّ يَلْمَك أي الشابُّ الشديد القويّ.

* ومنه مَكَل دالّ على الشدّة أيضا، ولكن من ناحية أخرى، ذلك أنّ البئر التي تعنِي المرء في استخراج مائها، وتتطلّب شدّة وقوّة للوصول إلى ما فيها من ماء قليل، تسمّى الـمَكْلَة والـمُكلَة.

هذا من حيث المعنى اللّغوي الأصيل للفظة (كلمات) التي اكتسبت، نتيجة التطوّر اللّغوي، معنى القول من غير أن تفقد دلالتها على الشدّة. أمّا من حيث الاستعمال القرآنيّ فليس بين أيدينا نصوص تفسيريّة نطمئن اليها في فهم معنى (الكلمات) التي تلقّاها آدم أو التي تلقّاها إبراهيم الخليل، وهما النبيّان الوحيدان اللذان جاء في سياق قصّتيهما أنّهما تلقيّا من ربّهما كلمات. فمجمل ما رأيناه في كتب اللغة والتفسير، عن الكلمات التي تلقّاها آدم، أنّها تتمثّل في دعائهما ربّهما أن يغفر لهما خطيئتهما بالاقتراب من تلك الشجرة. وربط بعضهم بينها وبين ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ ولكنّ تلقّيه لكلمات الغفران كان بعد إخراجه من الجنّة، أمّا تعلّمه للأسماء كلّها فكان قبل ذلك، وقبل أن يوسوس لهما الشيطان. كما أنّ النّصّين مختلفان من حيث إنّ أحدهما يحمل لفظ (الأسماء) والثاني لفظ (كلمات)

(1) سورة يس 83.

(2) النهاية في غريب الحديث 4/ 358.

ولكلّ منهما دلالة تختلف عن دلالة الآخر.

أما عن الكلمات التي (ابتُلي) بها إبراهيم فإنّ أبرز ما قيل فيها ما نُقل عن الحسن البصري: (ابتلاه أي أنّ الله ابتلى إبراهيم بالكوكب فوجده صابرا، وابتلاه بالقمر فوجده صابرا، وابتلاه بالشمس فوجده صابرا، ثمّ ابتلاه بالنار فوجده صابرا، ثمّ ابتلاه بذبح وَلَده فوجده صابرا) [1]. على ما سنتابعه في قصّة إبراهيم الخليل. أمّا ما قيل من آراء أخرى في الابتلاء فليس ثمّة دليل عليها إلّا نُقُولٌ نتوقّف فيها، كذهابهم إلى أنّها تعنِي تقليم الأظافر وقصّ الشارب والمضمضة والاستنجاء ونتف الإبط، وما إلى ذلك، فهذا مما لا دليلَ عليه، إذ كان النّاس يفعلون ذلك من قبل إبراهيم الخليل، وليس من المعقول أنّهم قبله كانوا يتركون أظافرهم وشواربهم وشعر أبدانهم بلا قصّ ولا تهذيب طيلة حياتهم، مهما كان إهمالهم لأنفسهم، وإلّا لأصبح طول ظفر أحدهم، مثلا، عدّة أمتار، وكذلك شعر أجسادهم ورؤوسهم.

كما لا دليل على ما ذهب اليه بعض الأقدمين من أنّ المراد بالكلمات شرائع الإسلام أو مناسك الحج أو العبادة، إذ لو كان ذلك هو المقصود لظهرت تشريعات الحج والعبادة من أول ظهور الإسلام، ولَما كانت هناك حاجة لأن يكون بيت المقدس كعبة المسلمين الأولى قبل أن تحوّل القِبْلة إلى البيت الحرام في مكّة المكّرمة، لتصبح الكعبة خاصّة بالمسلمين، ولَما كان تشريع الصلاة قد بدأ بركعتين ثمّ استقرّ على عدد الركعات المعروفة اليوم.

وبالعودة إلى التنزيل العزيز، ودراسة استعمالاته للفظة "الكلمات" ودلالاتها، من أجل فهمٍ أقرب للصّواب في معنى (الكلمات) التي تلقّاها آدم، اعتمادا على قاعدة أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضا، نلاحظ أنّه استعمل مشتقات الجذر (ك.ل.م) خمسا وسبعين مرّة، منها أربع وعشرون مرّة بصيغة الأفعال الماضية والمضارعة في حالتَي البناء للمعلوم والبناء للمجهول. ومنها ثلاث مرّات بلفظ (كلام الله) وستّ وعشرون مرّة بلفظ (كلمة) وثماني مرّات بلفظ (كلمات) وستّ مرّات بلفظ (كلماته) وأربع مرّات بلفظ (الكلم) ومرّة واحدة لكلّ من (كلمتنا) و(كلمته) و(تكليما) و(بكلامي).

---

(1) بصائر ذوي التمييز 6 /36.

ولـمّا كان اهتمامنا في هذا السياق منصبّا على فهم الـ(كلمات) التي تلقّاها آدم، فسنقتصر على اللفظ ذاته ومفرده الذي هو (كلمة) ودلالاتها في آيات التنزيل العزيز.

فأمّا (كلمة) فقد جاءت في مجموعة من الآيات، ما بين كونها مضافة إلى ما بعدها، مثل (كلمة ربّك) و(كلمة التقوى) و(كلمة الفصل) وموصوفة، مثل (كلمة طيّبة). وهي في كلّ مواضعها تكتسب دلالاتها من السياق، بحسب هذه الأمثلة:

* ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾[1]. وذلك حين دعا زكريّا ربّه أن يهب له من لدنه ذريّة طيّبة. فقوله تعالى ﴿ بِكَلِمَةٍ ﴾ متعلّق بـ ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ الذي هو اسم فاعل مشتقّ، وفعله صدّق يصدّق. فتصديق يَحيى ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يدعونا إلى احتمال أنّ المراد بـ(كلمة من الله) هنا، إمّا رسالة خاصة به، وإمّا التصديق بالمسيح ابن مريم الذي هو كلمة من الله ألقاها إلى مريم، كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[2].

والذي يدعونا إلى هذا الاحتمال الثاني أمران:

أمّا أوّلهما فإنّ قصّة زكريّا ودعاءه ربّه، جاءت في سياق قصّة مريم عليها السلام، ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾[3].

وأمّا ثانيهما فتطابق التركيب في الآيتين 37 و45 من السورة نفسها، سورة آل

(1) سورة آل عمران 39.

(2) سورة آل عمران 45.

(3) سورة آل عمران 37 - 38.

عمران. ففي الآية 45 وصف المسيح بأنّه (كلمة منه) أي كلمة من الله، تعالى، وهو ذاته اللفظ الوارد في الآية 39. ومثل هذا ما جاء في الآية 171 من **سورة النساء**: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ ﴾ [1]. ولكن، لماذا وصف المسيح بأنّه (كلمة من الله)؟ وهل لذلك علاقة بالكلمات التي تلقّاها آدم؟ الآية الكريمة تدلّنا على أنّ (كلمة من الله = المسيح ابن مريم) فلفظة (كلمة) إذن لا تعنِي الحروف المكوّنة لها، لا تعنِي مجرّد الأصوات اللّغوية، لا تعنِي الكلمة التي هي واحدة من المفردات اللّغويّة، ذلك أنّنا نصف أيّة لفظة لغويّة بأنّها كلمة، فلفظة (راح) كلمة، ولفظة (أرض) كلمة، ولفظة (سماء) كلمة، والقصيدة كلمة، والخطبة كلمة. ولكّن المراد هنا لا علاقة له بكلّ ذلك وما يشبهه. أن المراد شيء واحد، هو شخص مجسّم مجسّد أي المسيح ابن مريم. ولذا فإذا أطلقتَ قولك: كلمة من الله، أو كلمة الله، فإنّ أبرز معنى يتبادر إلى الذهن هو المسيح ابن مريم. ثمّ ينتقل ذلك اللفظ إلى معانٍ أخرى، شرطَ أن يكون في سياق الكلام ما يدلّ على تلك المعاني الأخرى، كقوله تعالى: ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ ﴾ من الآية: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠ ﴾ [2] ففيها دلالة على أنّ المراد عموم (كلمة الله) التي تشمل إرادته، تعالى، وقوّته، وكتبه التي أنزلها على أنبيائه، ومنهم المسيح.

---

(1) سورة النساء 171.

(2) سورة التوبة 40.

وقد يُقال انّ إطلاق "كلمة الله" على المسيح تعني أنّه تكوّن ووُلدَ من كلمة واحدة هي (كُنْ) بناء على أنّ الله إذا أراد شيئا قال له كُن فيكون [1]. ولكنّنا لا نطمئنّ إلى هذا القول لأنّ القرآن يخبرنا أنّ كلّ ما في هذا الكون هو نتيجة إرادته وقوله (كُن فيكون). ولكنْ لم تُطلق "كلمة الله" أو "كلمة من الله" على غير المسيح. فنستنتج، من هذا كلّه، أنّ لفظة (كلمات) التي هي جمع كلمة، لا يُشترط فيها أن تدلّ على (كلمات) محدّدة معيّنة مثل (كُنْ فيكون) ومثل الكلمات التي أوحاها الله، تعالى، لآدم.

* ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [2].

فالمراد بـ(كلمة) هنا قوله: ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ فأطلق لفظ الكلمة على مجموعة من الكلمات التي تشكّل نصّا كاملا. وقد دأبت اللّغة العربيّة على هذا، فأطلقت (الكلمة) على الكلمة الواحدة، وعلى النصّ برمّته مهما كان حجمه. ولم يكن بمستطاعنا تقرير ذلك لولا السياق نفسه ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا ﴾ ثمّ يأتي تفصيل تلك الكلمة التي هي (سواء بيننا). فاختلف هذا عن سياق الكلمات التي تلقّاها آدم. فصار من العسير أن تُحدّد تلك الكلمات بالدعاء المذكور.

* ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [3]. ففي

---

(1) كما في الآية 117 من سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

(2) سورة آل عمران 64.

(3) سورة الأنعام 114 - 115.

الآية المفرد والجمع معا: (كلمة ربّك) و(كلماتِه). حيث يدفعنا السياق إلى الاعتقاد بأن المراد هنا بـ(كلمة ربّك) هو (الكتاب) الذي أنزله الله بالحقّ. و(كلمة ربك) هاهنا لا تدلّ على كلمة واحدة، بدليل مجيء (لا مبدّل لكلماته) فتلك الكلمة تعنِي مجموعة من الكلمات التي يراد بها هاهنا المفردات. وهذا أيضا من الأساليب الشائعة في العربيّة. فحين تقول عن نصّ طويل أنّه كلمة، لا يمتنع عليك أن تقول انّ ذلك النصّ (أي الكلمة) مكوّن من كلمات مفردة عديدة. ولا ينفي ذلك أنّ لفظ (كلمة) لفظٌ مفرد، وهو يظلّ مفرَدا حتّى إذا دلّ على مجموعة كلمات.

* ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾[1]. فـ(كلمة) هنا، مضافة إلى (ربّك) وموصوفة بالحُسْنَى، مما يشير إلى أمرين:

الأول: أنّه أنقذ بنِي إسرائيل من فرعون الذي كان يسومهم سوء العذاب تحقيقا لوعد آخر: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[2]. فهذا الوعد رمزت له آية الأعراف 137 بـ(كلمة ربك الحُسْنَى).

الثاني: وإلى جانب هذه الكلمة الحُسْنَى هناك كلمة أخرى تمثّل وعدا آخر جاء في مواضع عديدة من التنزيل العزيز، منه ما ورد في أوائل سورة **الإسراء**، انطلاقا من سنّة الله في الكون، وهي التي يجسّدها قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾[3].

---

(1) سورة الأعراف 137.

(2) سورة القصص 5 – 6.

(3) سورة الإسراء 7.

ذلك أن القرآن الكريم حين وصف (كلمة ربك) بالحُسْنَى في آية الأعراف 137، أفسح لنا مجالا للقول أنّ ثمّة كلمة أخرى تنال الذين يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون. حثّا على تحسين السلوك وترك الإفساد في الأرض والعلوّ فيها، بإثارة الاهتمام بالقاعدة المشار إليها، إنْ أحسنوا فلأنفسهم وإنْ أساؤوا فلأنفسهم أيضا، كما في:

﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [1] ومعلومٌ أنّ الإفساد في الأرض ليس مقصورا على زمن دون زمن ولا على قوم دون قوم، ولا على جيل دون جيل. وقصص الأمم وأنبيائها في التنزيل العزيز للعِظَة والاعتبار.

* ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠ ﴾ [2]. ومن الواضح أن المراد بـ(كلمة الذين كفروا) إرادتهم وكلامهم وأهدافهم. وأما كلمة الله فارادته وكتابه. ونلاحظ أن لفظة كلمة من قوله ﴿ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ منصوبة لأنها مفعول به لجعل الذي استتر فيه فاعل دالّ على الله تعالى. أي أن الله هو الذي جعل كلمتهم السفلى. أما لفظة كلمة من قوله ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ ﴾ فمرفوعة على الابتداء، لأنّ علوّها متواصل مستمرّ في كل زمان ومكان، حتّى إنْ تخيّل بعض الناس، وبسبب مرارة الحياة وسوء الأحوال، غيرَ ذلك. ولو كان النص (وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى وجعل كلمتَه هي العليا) لارتبط ذلك بزمن معيّن ومكان محدّد. وهذا مما لا يصحّ القول به، فكلمة الله هي العليا دائما، وإرادته نافذة بشكل متواصل، والقوانين التي أودعها سبحانه في الكون والحياة والإنسان عاملة وفاعلة باستمرار، مؤكّدة عظمته وعلمه المسبق بما هو كائن وما

(1) سورة النساء 165.

(2) سورة التوبة 40.

سيكون. وذلك ما جاء ذكره كثيرا في القرآن الكريم، مما يمكن أن نسمّيه بسنن الله في الكون والحياة والإنسان. كالسنّة الإلهيّة القائلة بأن الفتنة حين يُسمح لها بالظهور لا تصيب الظالمين بشكل خاصّ بل تعمّ الناس كافّة، فعليهم أن يتجنّبوها لئلا ينالَهم الأذى جراء وقوعها: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ (1).

* ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ (2). ولقد اختلف القدماء في تفسيرهم لـ(كلمة الكفر) على وجوه شتّى. وأيّا كان الصحيح منها فإننا نميل إلى الاعتقاد بأنّ (كلمة الكفر) تعنِي إنكار الخالق والنبوّة وما إلى ذلك من أمور تتجمّع في مصطلح آخر مضادّ لـ(كلمة الكفر) وهو (كلمة الإيمان) التي منها الإقرار بوحدانيّة الله، وتصديق أنبيائه، والإيمان بكتبه ورسالاته. ومن كلمات الإيمان الاستجابة لأوامر الله.

وأما لفظة (كلمات) فقد جاءت لوحدها من غير تعريف ولا وصف ولا إضافة في آيتين، إحداهما: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ ﴾ (3)، والأخرى قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾. ولا توضيح للمراد بها في الموضعين. لذلك كثرت التفسيرات واختلفت، وليس من سبيل للأخذ بها جميعا لما بينها من اختلافات بيّنة لا يمكن الجمع بينها.

وقد أشرنا إلى أنّ المراد من الكلمات التي تلقّاها آدم غير المراد من الكلمات التي ابتُلي بها إبراهيم، فالأولى كلمات (غفران) وأما الثانية فكلمات (تكليف). ونعني بكلمات الغفران، أنّها كانت الوسيلة ليستغفر آدم عن عصيان ربّه وليتقبّل الله استغفاره وتوبته. وأما كلمات التكليف فهي الوسيلة التي ابتُلي بها

---

(1) سورة الأنفال 25.

(2) سورة التوبة 74.

(3) سورة البقرة 124.

إبراهيم لا من أجل التوبة والاستغفار، بل من أجل أن يُجعل إماما للناس، ومن أجل أن تترسّخ قاعدة أخرى هي ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. والحقّ أنّ ثمّة فارقا شاسعا بين خليفة الله في الأرض، والذي يشمل النّاس جميعا بحكم قوله تعالى: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ الذي لا يقتصر على آدم، بل يشمل ذرّيته جميعا، خيّرهم وشرّيرهم، وبين ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ التي هي لأناس معيّنين متّصفين بصفات خاصّة، بدليل آخر الآية ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وإذا كانت لفظة (كلمات) في الآيتين المذكورتين، لم تتحدد معانيها، واستعملت بصيغة (النكرة) لا (المعرفة)، فيبدو أنّ التنزيل العزيز أرادها مبهمة، وأراد من الناس أن يبحثوا في معناها ودلالتها والمراد بها، في كلّ من الموضعين، وذلك لأنّها مشمولة بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

وإذا كنّا قد اقتربنا من تحديد دلالة الكلمات التي ابتُلي بها إبراهيم، بكونها كلمات (تكليف)، وذهبنا إلى أنّ الكلمات التي تلقّاها آدم هي كلمات (غفران)، فهل في الإمكان أن نصل إلى تلك الكلمات التي تلقّاها آدم، عليه السلام؟! ولِمَ لا تكون كلمات (تكليف) أيضا؟ وينطلق هذا السؤال من ملاحظة أنّ تكفير الذنوب لا يتمّ بالكلمات فحسب، بل بالعمل الصالح أيضا، بل إنّ من الذنوب ذنوبا لا يكفّرها إلّا العمل، بحسب ما جاء في الحديث الشريف الذي هو مصداق قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[2]. فالكَلِمُ الطيّب لوحده لا يُرفع، بل لا بدّ من اقتران ذلك بالعمل الصالح. وما الصلاح إلا ما فيه نفع المرء وسائر النّاس. ونحن حين نقرّر أن الكلمات التي تلقّاها آدم هي كلمات غُفران، لا نعني بها الدلالة المباشرة للفظ (كلمات) باعتبارها أصواتا وحروفا وجُملا، وإنّما نريد بها المعاني الدالّة عليها، تماما كالذي نلاحظه في دلالة لفظ الكلمات التي ابتُلي بها

---

(1) سورة محمد 24.

(2) سورة فاطر 10.

إبراهيم. وبغضّ النظر عن اجتهادات عديدة وتفسيرات متنوّعة مختلفة ومتناقضة، ذكرها قدماء وردّدها معاصرون. فإنّ قصّة خلق آدم توحي للمتفكّر فيها ملمحا عامّا لتلك الكلمات. حيث إننا نلاحظ أنّ لفظة (كلمات) في القرآن الكريم، شأنها شأن لفظة (كلمة) لم تأتِ مهوّمة في الفضاء بل وردت مضافة إما إلى لفظ الجلالة (الله) وإما إلى لفظ (ربّ) وإما إلى ضمير عائد إلى أحد هذين اللّفظَين كي تتحدّد ماهيّتها ودلالتها، كما نوضّحه في هذه النقاط:

1 - ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (1).

فقوله (كلمات الله) هنا في سياق تحقّق نصر الله لأنبيائه بعد أن كذّبهم قومهم وآذوهم، وبعد أن صبروا على تكذيبهم وأذاهم. فكأنّها دالّة على ذلك النصر. ولكن، ما علاقة (كلمات الله) بنصره لأنبيائه؟

إنّ في قوله تعالى في آخر الآية السابقة ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ما يدعونا إلى التأمل في قصص المرسلين كما حكاها القرآن الكريم. حيث نرى أنّهم جميعا قد أمروا بما أمروا به، وأنّهم نفّذوا ما أمروا به، وبعد أن انتهوا من التنفيذ جاءهم نصر الله.

وعلى سبيل المثال فإنّ نوحا، بنَى سفينته على الرغم من سخرية قومه منه وأذاهم: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (2). وإبراهيم، حطّم الأصنام، ورفع قواعد البيت الحرام. ونبيّنا الكريم، هاجر من مكّة إلى المدينة، وبنَى مجتمعا جديدا قائما على العلم النافع والعمل الصالح، فمنّ الله، تعالى، عليه بالنصر على المشركين، وتطهير

(1) سورة الأنعام 34.

(2) سورة هود 37 - 38.

الكعبة من الأوثان ومن الكهنة والسدنة المشركين. وهكذا في قصص سائر الأنبياء، عليهم السلام. لذا فليس لنبيّ ولا لبشر آخر أن يتوقّع نصر الله ما لم ينفّذ أوامر الله، في إطار من الإيمان الحقّ والتقوى الراسخة في أعماق النفس.

فيتّضح لنا أن المراد بـ(كلمات الله) التي لا تبديل لها، في هذا السياق، الأعمال التي أُمر الأنبياء بها، فأدّوها، ووصلوا بذلك إلى استحقاق نصر الله.

ومعلومٌ أنّ الله، تعالى، لو شاء لآمَنَ مَنْ في الأرض جميعا، ولكن شاءت إرادته أن تتحقّق (كلماته) على أيدي خلقه، كلماته بألفاظها ومعانيها التي تتجلّى في كلّ عمل خيّر لنفع الناس وتعاونهم ونشر الطمأنينة والأمن والعدل والاستقرار بينهم.

ويمكن أن مثل لذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ﴾ [1] ففي بدر اختار الله، تعالى، للمسلمين، أن يقاتلوا المشركين، لا أن يستولوا على القافلة القادمة من الشام ويعودوا إلى المدينة غانمين، فليست الغنائم الهدف، بل الهدف إعلاء شأن النبيّ والذين آمنوا معه، وإضعاف المشركين ومن معهم من المنافقين. يحدّثنا المفسّرون وأصحاب السيرة والتاريخ أنّ النبيّ لمّا بلغه خروج قريش لحماية القافلة شاور أصحابه، فقال قوم: خرجنا غير مستعدين للقتال. وقال المقداد: امض لما أمرك الله به، فوالله لو خضت بنا الجمر (أو بحر الغماد) لتبعناك، فجزّاه خيرا. وأعاد الاستشارة، فقال سعد بن معاذ: يارسول الله، لعلّك تريدنا (يعني الأنصار)؟ قال: نعم. فقال سعد: إنا آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به حقّ وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا البحر فخضته لنخوضه معك [2]. فدلّت (بكلماته) على إرادته، سبحانه وتعالى. إذ اختار لهم قتال الجيش ذي الشوكة، لا حرّاس القافلة القليلين.

---

(1) سورة الأنفال 7.

(2) انظر سيرة ابن هشام 516/1، تفسير القرطبي 85/2، الكشاف 193/2.

2 - و(من نبأ المرسَلين أيضا) ما جاء في قصّة موسى، عليه السلام: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1]. ف(كلماته) هنا في سياق إبطال السّحر الذي جاء به سَحَرة فرعون. وذلك الإبطال يؤدي إلى إثبات صحّة نبوّة موسى لفرعون وقومه ولبني إسرائيل أيضا ممن لم يكن قد آمن بتلك النبوّة بعد. ومثل هذه الدلالة ما جاء في قوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[2]. فالكلمات، هنا، تعنِي (الأفعال) أي النعم التي أنعمَ الله بها على البشر، ما أدركوه منها وما لم يدركوه. ومثلها قوله تعالى، في الآية 27 من **سورة لقمان:** ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي نِعَمه وقوانينه وسُنَنه التي أودعها في الكون والحياة والإنسان، والتي دعا النّاس إلى التعرّف عليها وفهمها ووضْعِها في خدمة الحياة وتطويرها، ليحقّق المرء جنّته على الأرض بإعمارها ونشر الأمن والاطمئنان والسلام في ربوعها بمختلف السبل والوسائل المشروعة، ولكي يكون مؤهّلا لجنّة الآخرة. وذلك هو الطريق الوحيد الذي ارتضاه الله للبشر.

3 - ونقرأ آية مشابهة للآيات (79 إلى 82) التي ذكرناها، قبل قليل، **من سورة يونس**، ولكن مع اختلاف في دلالة لفظة (الكلمات)، فقد جاء في سياق قصّة الرسول الكريم مع مشركي قريش: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ

(1) سورة يونس 79 - 82.

(2) سورة الكهف 109.

قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] أي أنّه، تعالى، يُثبت الحقّ بكلماته التي ينزلها على أنبيائه. فجاءت لفظة (الكلمات) هنا دالّة على معناها العامّ المعروف، أي الأقوال. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾[2] وذلك في سياق تساؤل بعض النّاس عن عدد أصحاب الكهف ومدّة بقائهم في الكهف، فـ(كلماته) هنا تعنِي أيضا المعنى العامّ لها وهو (الأقوال).

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾[3]. فالسياق هنا الحديث عن (الكتاب) وبالتالي فإنّ المراد بالكلمة والكلمات ما جاء في الكتاب من ألفاظ، أي أنّ المقصود، هنا، أيضا، المعنى العامّ لا الخاص.

4 - وثمّة آيات أخرى يمتزج فيها المعنيان، المعنى العامّ الذي يعنِي (الأقوال) والمعنى الخاصّ الذي هو (الأعمال والأفعال). ومن ذلك قوله، تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[4] فـ(كلمات الله) التي لا تبديل لها، تعنِي، هنا، (البشرى) التي أعدّها الله لأوليائه. وتلك البشرى صيغت لهم بكلمات (أي بأقوال) أوحى الله، تعالى، بها إلى أنبيائه. ومثل ذلك

(1) سورة الشورى 24.

(2) سورة الكهف 27.

(3) سورة الأنعام 114 - 115.

(4) سورة يونس 62 - 64.

في قصّة مريم: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [1] فالتصديق عامّ يشمل الأقوال والأفعال الإلهيّة. ومثله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ [2] فالله تعالى هو الذي خلق الموت والحياة، أي أنّه خالق كلّ شيء، وأن النبيّ الأميّ، يؤمن بذلك، كما يؤمن بسائر أقوال الله، تعالى. فتضمنت لفظة (كلماته) المعنَيين الخاصّ والعامّ: الأقوال والأفعال.

ونصل من كلّ هذه الجولة الواسعة، إلى أنّ المراد من الـ(كلمات) التي تلقّاها آدم من ربّه، هي:

أ - الأقوال أو (الكلمات) بمعناها الحرفي، التي سينقلها إلى أبنائه وحفدته والتي هي جزء من الهدى والنور الذي تعهّد الله أن يبيّنه للبشر.

ب - الأعمال التي أُمر بتنفيذها، ومنها بناء الكعبة التي وصفها الله، تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [3]. فإنّ قوله (أوّل بيت) واضح الدّلالة على أنّ آدم، حين هبط من الجنّة وسكن في الأرض التي منها خُلق، أُمِرَ ببناء بيت الله الحرام، ليكون أوّل بيت يُبْنَى على سطح الأرض. كما أنّ قوله (للنّاس) يوضّح أنّه بيت للنّاس كافّة، فهو ليس منفصلا عنهم، ولا يصحّ أن ينفصلوا عنه. لهم وُضع، ومن أجلهم بُنِيَ، مَن دخله كان آمنا، مهما تطاولت الأيّام وتغيّر الزمان. وصحيحٌ أنّه عُرف ببيت الله، غير أنّه في الوقت نفسه بيتٌ للنّاس. وما تسميته ببيت الله إلا اصطلاح على ما فيه من بركة وهدى.

ولا يقتصر الأمر على بناء الكعبة، بل على السعي في مناكب الأرض طلبا

(1) سورة التحريم 12.

(2) سورة الأعراف 158.

(3) سورة آل عمران 96.

لأسباب العَيش، ثمّ التفكير في الاستفادة المُثلى مِمّا خلقه الله، وجعل آدمَ ونسلَه مستخلَفين فيه.

و (كلمات) كما قلنا دالّة، بحدّ لفظها وجرس حروفها على المشقّة والعناء، مِمّا يوضّح لنا تلك المشقّة وذلك العناء اللّذَين تحمّلهما آدم وصبر عليهما، وشتّان بين نعيم الجنّة التي كان فيها والعناء الذي يتحمّله على الأرض تكفيرا عمّا فعل.

****

أساليب متنوّعة... ونِعَمُ سابغة

نلاحظ في الآيات التي شخّصت قصّة الخلق الأوّل، قصّة خلق آدم وإخراجه من الجنّة. أنّ القصّة صيغت بأساليب متنوّعة، وعدّ البلاغيّون ذلك ميزة من ميزات الإعجاز القرآني، حيث تعاد القصّة ذاتُها بأساليب متنوّعة ومتعدّدة، مما لا يقدر عليه أيّ بشر مهما كان ضليعا في الأساليب البيانيّة الفصيحة البليغة. وبمقدار الصحّة التي يحملها هذا الرأي، فنراه غير كافٍ لبيان التنوّع والتعدّد في الصياغة. ذلك أننا نلاحظ أنّ سياق القصص في التنزيل العزيز مهما كان متنوّعا ومتعدّدا، وأنّ تكرار القصّة القرآنيّة أيّا كان موضع ورودها، يراد منهما، استخلاص العبر والعظات، والوصول بالمرء إلى نتائج محدّدة تزيد في وعيه. إذ هي قصّة واحدة ملخّصها أنّ الله تعالى شاء أن يجعل في الأرض خليفة، فخلق آدم وأسجد له الملائكة، ولكنّ إبليس أبى أن ينفّذ ذلك الأمر تكبّرا منه، فطُرد من الجنّة التي كان فيها، لأنّه عصى ربّه أولا، ولأنّه تكبّر فيها ثانيا. ثمّ إنّه وسوس لآدم أن يأكل من الشجرة، فأطاع آدم ما وسوس له به، فأُخرج من الجنّة أيضا. غير أنّه تلقّى من ربّه (كلمات) فتاب عليه، لأنّ الله هو التوّاب الرحيم.

هذه القصّة التي ذكر التنزيل العزيز تفصيلاتها، تنوّعت من سياق إلى آخر بحسب المراد من إعادتها وتكرارها.

قلنا إنّ **سورة البقرة** جاءت بقصّة الخلق في سياق بيان نِعَم الله على البشر، وصولا إلى جواب الاستفهام الذي يُنكر عليهم ما هم فيه من ضلال. ففي الآيتين 28 و29 من سورة البقرة جاء قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ

عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[1]. ثمّ تأتي قصّة الخلق الأوّل: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ بدءا من الآية الثلاثين من السورة نفسها.

هذه السورة لم تذكر خلق آدم من طين، ولم تذكر مبرّرات إبليس لرفضه السجود لآدم، ولم تتطرّق إلى طلبه أن يمهله الله إلى يوم يبعثون، كما لم يُذكر فيها أنّ الله أمهله، ولا غير ذلك من تفصيلات نجدها في سياقات أخرى. فالسياق هنا الحديث عن نِعَم الله، والتأكيد على معانٍ سبقت الآية 28 القائلة: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾. حيث نجد قبلها تقسيم الناس إلى ثلاث طوائف، هي: طائفة المؤمنين، وطائفة الكافرين، وطائفة المنافقين. وفي طوايا هؤلاء يظهر الفاسقون ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[2] ليخرج السياق منها إلى آية ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾ المذكورة آنفا.

لذا فليس من المستغرَب أن تأتي قصّة الخلق، مؤكدة للآيات السابقة، ومستخلصة ممّا حدث بين آدم وإبليس، عبرة وعظة تبيّن أصول تلك الطوائف الثلاث، كيف تكوّنت ومن أيّ شيء انطلقت. كما توضّح مقولة الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾.

فالتركيز هنا على أمور هي:

أ - أنّ الله تعالى شاء أن يجعل في الأرض خليفة، هو آدم ثمّ خلق له زوجه، وجعل له ذريّة عليهم أن يستفيدوا مِمّا حدث له.

ب - أنّ الإفساد في الأرض (الآيتان 11و27) يناقض رسالة الخلق.

ج - أن سفك الدماء، وهو صورة من صور الإفساد في الأرض، محرّم تحريما مطلقا. وهل ثمّة إفساد أكبر من القتل وسفك الدماء؟!

---

(1) سورة البقرة 28 - 29.

(2) سورة البقرة 27.

د - رفضُ إبليس السجودَ لآدم، فقد (أبى واستكبر وكان من الكافرين).

هـ - إسكان آدم وزوجه الجنّة، ومنعهما من الاقتراب من شجرة هناك.

و - إغواء الشيطان لهما، فاقتربا من تلك الشجرة (فأخرجهما مما كانا فيه). فطُردا من الجنّة.

ز - أنّ بعضهم سيكون عدوّا لبعض. وهو إنباءٌ بما ستؤول اليه أمور البشر، لطبيعة قوانين الحياة وما يحمله كل امرئ في ذاته من أطماع وجشع ورغبة في السيطرة على الآخرين. ولذا وعد الله بأن يرسل للنّاس هدى فمن تبع ذلك الهدى سيتخلّص من مكامن الشرّ التي تعشّش بين جوانحه.

ح - أنّ لهم جميعا مستقرّا في الأرض إلى وقت محدّد، وهم في هذه الفترة معرّضون للابتلاء.

ط - تلقّى آدم من ربّه كلمات (وصفناها بكلمات الاستغفار) فتاب الله عليه (إنّه هو التوّاب الرّحيم).

وقد ذكرنا قبل قليل أنّ ثمّة مَن رأى أنّ المراد بتلك الكلمات دعاء آدم وحوّاء ربَّهما: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [1] وقلنا إنّ هذا لا يستقيم مع المذكور في التنزيل العزيز من حيث إنّ الآية المذكورة، وهي الآية الثالثة والعشرون من **سورة الأعراف**، يأتي بعدها مباشرة قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [2]. فدعاؤهما كان في أعقاب فعلتهما مباشرة، بعد أن أدركا أنّهما وقعا في ارتكاب الخطيئة، ومن ثَمّ نالا جزاءهما بإخراجهما من الجنّة. فكيف يمكن القول أنّ ذلك الدعاء هو المقصود بالكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه؟! إنّ دعاءهما يعنِي أنّهما لم يُصرّا على ما فعلا، وهذا يؤهّلهما لنيل العفو والمغفرة، ولكن، بما أنّهما اقتربا من تلك الشجرة، وتناولا من ثمرها، فليس لهما أن يظلّا في الجنّة، بل أن يهبطا منها. ويمكن أن نطلق على تلك الشجرة تسمية شجرة (الدنيا) التي لا نعرف شيئا عنها، إلّا

(1) سورة الأعراف 23.

(2) سورة الأعراف 24.

ما عرّفنا به النّص الكريم الذي يوحي لنا بأنّ التناول من تلك الشجرة يناقض البقاء في الجنّة، ويلائم الهبوط إلى الأرض. بغضّ النظر عمّا أجهد المفسّرون ورواة الأخبار أنفسهم به من توصيفات لتلك الشجرة لا نجد في التنزيل العزيز دليلا عليها.

وهكذا فإنّ استغفارهما ربّهما ساعدهما على أن ينالا غفرانه، ولكن لم يساعدهما على البقاء في الجنّة، فمَن أكل من تلك الشجرة انفصل تلقائيا عمّا حوله، فلا مكان له هناك، وإنما مكانه حيثُ ينسجم مع طبيعة أخرى قاده اليها اقترابه من تلك الشجرة وتناوله لشيء من ثمرها. إنّ تلك الطبيعة الأخرى هي الحياة بقسمَيها: الحياة العليا والحياة الدنيا. فخرج آدم وحوّاء إلى الأرض، وحقّ قول الله، تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ المارّ ذكره. فلا سبيلَ إلى اعتبار أنّ الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه هي ألفاظ الدعاء والندم. لأنّ تلقّيه لتلك الكلمات كان بعد إخراجه من الجنّة، في حين كان دعاؤه وندمُه في الجنّة ذاتها، بعد أن علم هو وزوجه سوء صنيعهما.

خارج الجنّة، إذن، تلقّى آدم من ربّه كلمات، كما أنّ إبراهيم سيُبتلى بكلمات. فآدم حين هبط من الجنّة، صار لزاما عليه أن يقوم بأشياء كثيرة يمهّد بها لأبنائه سبُل عيشهم المادّي والمعنوي. هنا يتلقّى الـ(كلمات) التي منها بناء الكعبة المشرّفة، والتي منها أداؤه للعبادات المطلوبة منه سُنّة يستنّ بها أبناؤه في حياته ومن بعد مماته. ومنها صبره على ما سيُبتلَى به من عقوق بعض أبنائه، ومنها صبره على شظف العيش بعد نعيم الجنّة، ومنها تسليمه لله تعالى في كلّ أموره، وعصيانه لوسوسات الشيطان. مما سينتقل إلى أبنائه من بعده، فتجد بينهم المؤمنين والكافرين والمنافقين، وتجد في طواياهم أيضا الفاسقين ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [1]. على أنّ ثمّة سياقا ثانيا، ذُكرت فيه الحادثة بأسلوب آخر وذلك **في سورة طه**، حيث جاء فيها: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا

(1) سورة البقرة 27.

مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ ﴾[1]. حيث لم يُذكر فيها أنّ آدم تلقّى من ربّه كلمات فتاب عليه، بل أوجزت مجريات ما حدث، فكان الاجتباء والتوبة والهدى، ثمّ الأمر بترك الجنّة. ونتبيّن من السياق أنّ اجتباء ربّه له وتوبته عليه وهدايته لم تمنع إخراجه من الجنّة. فاستعمال أداة العطف (ثمّ) تبيّن أنّ الاجتباء والتوبة والهداية لم تكن بعد الغواية مباشرة، لأنّ (ثمّ) في اللّغة العربيّة تفيد التراخي في الزمن، وهي تغاير الواو والفاء العاطفتين مثلها. نعم، لقد تاب الله على آدم لأنّه لم يصرّ على ما فعل، بل ندم على فعلته وتاب عنها واستغفر ربّه وأناب اليه، فعفا الله عنه وتاب عليه، ثمّ أخرجه من الجنّة وجعله خليفة له في الأرض، ورسم له طريق الهداية وطريق الضلال ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ إلى آخر الآيات من **سورة طه**.

وفي **سورة الأعراف** تأكيد لهذا الذي نقرّره، حيث لم تُذكر الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه، ولكنّ الآيات أضافت تفصيلات على الحوار الذي دار مع الملائكة ومع إبليس ثم مع آدم وحوّاء. ومنها نتبيّن أنّ الشيطان قد نصح آدم وحوّاء أن يأكلا من تلك الشجرة وأقسم لهما أنّ ذلك سيجعلهما مَلَكَين أو يجعلهما من الخالدين. فكان أوّل من غشّ في نصيحته وأقسم قَسَما كاذبا، فسنّ بذلك سنّة هي من أولى صفات المنافقين. فالهدف من وراء القصّة هنا نهيُ الناس عن النفاق بكلّ ما يتضمنّه من سلوكيّات وممارسات كالغشّ في النصيحة والقَسَم الكاذب.

كما تبيّن لنا هذه **السورة** شيئا جديدا، هو استخدام ضمير الجمع (اهبطوا) مع انّ المخاطب بها اثنان هما آدم وحوّاء، وذلك الشيء الجديد أنّ الذي أخرج من الجنّة أكثر من اثنين. ولقد ذهب بعض المفسّرين إلى أن المقصود في الخطاب اثنان هما آدم وزوجه، اعتمادا على ما في اللّغة العربية من جواز مخاطبة الاثنين خطاب

---

(1) سورة طه 121 - 123.

الجمع، وهو قانونٌ لغويّ معروف. كما ذهب آخرون إلى أنّ الجمع في الآية إشارة إلى ثلاثة هم آدم وحوّاء وإبليس، واعترُض عليه بأنّ شأن إبليس هو غير شأن آدم وحوّاء. ومال آخرون إلى القول بأنّ المراد بالجمع هم آدم وحوّاء وذرّيتهما، وهو الشيء الجديد الذي تطالعنا به **سورة الأعراف**. فقد جاء فيها مع الآيات التي فصّلت قصّة الخلق الأوّل: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ ﴾ [1] فخلق البشر وتصويرهم كان قد تمّ في تلك اللحظة من الزمن، وجعلوا في صُلْب آدم يتناسل جيل من جيل، والنّاس جميعا، في كل الأزمنة والأمكنة لآدم وآدم من تراب. ويصدّق هذه الرؤية قوله تعالى في **سورة الأعراف** ذاتها: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾ [2]. وكذلك في الآيات التي نحن في سبيل تفهّمها، فإنّ قوله ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ لا يقتصر على آدم وحواء، ولا يشمل إبليس، فهذا الهدى لا يصل اليه، فلا بدّ إذن من وجود أشخاص آخرين يصحّ معهم مخاطبتهم بضمير الجمع، وهؤلاء الأشخاص الآخرون هم ذرّيّة آدم الذين في صُلبه، والذين سيتوالدون على مرّ الأزمان حتّى يرث اللهُ الأرضَ وما عليها. والذين سيكونون خلفاء الله في أرضه ما استقاموا وأحسنوا، وهم إن هرعوا وراء أطماعهم الشخصيّة وأهوائهم الضارّة سيكون بعضهم أعداء بعض. وسينقضون رسالة الخلق التي أرادتهم أن يعمّروا الأرض.

وهنا أيضا نجد مصداق ما قرّرناه من أن بعض المُراد بالكلمات التي تلقّاها آدم يتمثّل في القدرة على التمييز بين الهدى والضلال ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ وهو تحقيق رسالة الخلق بكلّ ما تتضمّنه من عبادات وعلم نافع وعمل صالح:

(1) سورة الأعراف 10 - 11.

(2) سورة الأعراف 172.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

وأيّا كان الأمر، فإنّ آدم وزوجه، وعلى الرغم من قبول توبتهما، لم يعودا مؤهّلَين للعودة إلى الجنّة التي أخرجا منها. ومن أجل أن يعودا هم ومَن صلح من ذريّتهما إلى جنّة في السماء، عليهما وعلى ذرّيّتهما تحقيق رسالة الخلق، فقد جاء في هذه القصّة قول الله تعالى ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ وهذا يقتضي أن يكون خليفته في الأرض قائما بإعمار الأرض، بكل ما فيها من سهول وتلال وجبال، من أرض خصبة وصحراء قاحلة، من أنهار عذبة ومن بحر أجاج. وبكل ما في باطنها من كنوز على الإنسان أن يستخرجها ويستثمرها، لأنّه مستخلَف فيها، وعلى المستخلَف أن يصل إلى معرفة كلّ ما عُهد اليه وما استُخلِفَ فيه كي يستفيد من ذلك، فائدة شخصيّة وفائدة عامّة، تحت ظلال من التآلف والتعاون مع الآخرين.

أُخرج آدم وزوجه من الجنّة، إذن، وتُركا على الأرض يعملان ويكدحان، راضيين بحكم الله الذي وعدهما وذرّيّتهما بأن يرسل لهم الهدى والنّور وخيّر الجميع بين اتّباع النّور أو البقاء في الظلمات، بين طاعة الرحمن الرحيم الذي خلقهم وخلق لهم الأرض والسماء وجعلهم مستخلَفين في الأرض وهيّأ لهم أسباب العلم والعمل، وعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون، وبين اتّباع الوساوس المرموز لها بالشيطان وإبليس ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ ﴾[2]. وأنبأهم أنّهم على إحدى طريقتين، إمّا اتّباع الهدى والخير فمصيرهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وإمّا اتّباع الضلال والشر فمصيرهم النار وبئس المصير: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ

(1) سورة المُلك 15.

(2) سورة الكهف 29. والسرادق: كلّ ما أحاط بشيء، نحو الشّقّة في المضرِب، أو الحائط المشتمل على الشّيء، كما في كتاب العين 178/3.

بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[1].

ثمّ يواصل القرآن العزيز تناول قصّة الخلق الأوّل من زاوية أخرى، **في سورة لاحقة لسورة البقرة، هي سورة النّساء**، ولكنّه يكتفي فيها بالتذكير بأنّ النّاس، جميع النّاس، من أصل واحد، ومن نفس واحدة، فهم، مهما اختلفوا تجمعهم الأخوّة، والأصل الواحد، الذي يجب أن يحجزهم عن العدوان ومحاولة إضرار بعضهم ببعض، بل يجب أن يدفعهم **إلى** التكافل والتراحم، إلى صلة الرحم وإيتاء كلّ ذي حقّ حقّه، وأن يسعى الجميع نحو الطيّب لا نحو الخبيث مهما كان ذلك الخبيث مغريا، فهذا الإغراء مجرّد خداع ووهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾ ﴾[2]. وكذلك يستنبط التنزيل العزيز من هذه القصّة، **في سورة (الحجرات)** عِظَة أخرى ذات أهميّة بالغة في تنظيم شؤون العالم، وتنقية العلاقات بين الشعوب والأمم من الخلافات. معتبرا أنّ هدف الخلق أن يتآلف البشر ويتعارفوا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾[3].

ترى إذا كان الأمر كذلك، أي إذا كان الله، تعالى، قد خلق النّاس للتآلف والتعارف والتعاطف والتعاون وتحقيق الأمن والاستقرار، باعتبارهم، جميعا، إخوة في الإنسانيّة، يعودون إلى أب واحد هو آدم فكيف نفهم قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ

---

(1) سورة البقرة 38 - 39.

(2) سورة النساء 1 - 2.

(3) سورة الحجرات 13.

خَلَقَهُمْ ﴾ [1] وقوله: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [2] وكذلك قوله: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [3] ؟ ألا تدلّ هذه الآيات على أنّ ثمّة (قَدَرا) إلهيّا في أنّ النّاس يجب أن يكونوا مختلفين ومتنازعين، وأن الله ما خلقهم إلّا لذلك، وأنّه، تعالى، يدفع بعضَهم ببعض، وأنّ هذه سنّة قدريّة؟!

والحق أنّ هذا الفهم لهذه الآيات غير صحيح، أو هو بحاجة إلى تفصيل قول، نراه في هذه النقاط:

* أما الآية الأولى فإنّها وردت في سياق الحثّ على عدم الإفساد في الأرض والأخذ على يد الذين يُفسدون فيها: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [4].

ولقد اختلف الأقدمون في توجيه هذه الآيات الأربع من سورة هود، وبخاصّة في قوله: (فلولا كان) وقوله (ولذلك خلقهم) على هذه الاجتهادات:

* قالوا إنّ (لولا) هاهنا تدلّ على الحث فكأنّها (هلّا) و(لمَ لا) و(ألا كان). ونُقل عن الخليل قوله انّ كلّ (لولا) في القرآن بمعنى (هلّا) للتحضيض والحث إلّا التي في **سورة الصافّات** [5]. واعترض عليه أغلب المفسّرين. لأنّ (لولا) في القرآن لم تقتصر على معنى (هلّا) كقوله تعالى: ﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ

(1) سورة هود 118 - 119.

(2) سورة البقرة 251.

(3) سورة الحج 40.

(4) سورة هود 116 - 119.

(5) الكشاف 420/2.

بِٱلْعَرَآءِ ﴾ [1]. وقوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [2].
وعلى الرغم من هذا الاعتراض، رأوا أنّ (لولا) في هذه الآية دالّة على معنى (هلّا كان) وما إليها من أساليب الحث والتحضيض. ولا نرى وجها لهذا الفهم، لأنّ الحثّ والتحضيض ينصرفان إلى ما لم يقع بعد والمتكلّم يرغب في وقوعه فيحثّ عليه. والقضيّة في هذه الآية غير ذلك، لأنّها تتحدّث عن (القرون من قبلكم) أي عن الأجيال التي سبقت المخاطَبين، فلا وجه لاعتبار "لولا" للحثّ والتحضيض. وقد يقال أنّ (هلّا) تتضمّن أيضا معنى التوبيخ، أو العتاب، كما تقول لصاحبك وقد أردت منه إنجاز عمل فلم يفعل: هلّا فعلتَ ذلك! توبيخا له أو عتابا، فإنّ هذا المعنى لا يتلاءم مع هذا السياق، لأنّ الحديث عن الماضين لا عن القوم المعاصرين للرسول الكريم. وهو حديث يريد أن يقدّم موعظة لهؤلاء الذين نزل اليهم القرآن، بذكر ما كان من الأقوام التي سبقتهم، ولا يريد أن يعاتب الماضين أو يوبّخهم، إذ لا وجه لذلك بعد أن انقضى زمانهم وأصبحوا من الهالكين.

والذي نراه في الآية أنّ (لولا) هنا دالّة على النفي، وكأنّها بمعنى (لم) هذا على الرغم من أنّ هذا المعنى لم يُشر اليه القدماء في معاني (لولا) غير أنّنا نستنبطه من بناء الآية ذاتها، فكأن المراد منها: فلم يكن من القرون من قبلكم أولو بقيّة (أي أولو فضل وخير) [3] ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا مِمّن أنجينا منهم. ويترتّب على هذا الفهم، تخالُف آخر عن القدماء، حيث إنّهم لَمّا اعتبروا (لولا) هنا أداة تحضيض وحثّ، لزمهم أن يعتبروا الاستثناء (إلّا) في الآية استثناء منقطعا، أي إنّ ما بعد أداة الاستثناء ليس من جنس ما قبلها، ففي قولك: جاء القومُ إلا طيرا، فإنّ لفظة (طير) ليست من جنس القوم، لذا فإنّ الاستثناء منقطع لا متّصل [4].

وعلى ذلك اعتبروا أنّ قوله، تعالى: ﴿ قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا ﴾ منقطع عن ﴿ أُوْلُواْ

---

(1) سورة القلم 49.

(2) سورة الإسراء 74.

(3) الكشاف 420/2.

(4) شرح ابن عقيل، ت. د. هادي حسن حمّودي 1 - 300.

بَقِيَّةٍ ﴾، وذلك لأنّهم لَمّا ذهبوا إلى أنّ (لولا) بمعنى (هلّا) أو (ألا كان) صار معنى الآية أنّه لم يكن في أولئك الأقوام أولو خير وفضل على الإطلاق فلا يمكن أن يكون ما بعد أداة الاستثناء متّصلا مع ما قبلها، وأعيد الكلام على قوله (مِمّن أنجينا) وصار المعنى: (ولكنّ قليلا مِمّن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد) [1].

أمّا على المعنى الذي رأيناه للآية الكريمة، وهو أنّه ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ فإنّ الاستثناء متّصل، وما بعد أداة الاستثناء جزء مِمّا قبلها. وهذا أيضا ما تثبته أحداث تواريخ الأمم، وقصصها في التنزيل العزيز، ففي كلّ قصّة منها نجد فريقا من النّاس، ينهَون عن الفساد في الأرض، وهؤلاء هم الذين ينجَون مِمّا يحلّ بقومهم من عذاب، ومصداقه، قوله، تعالى: ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ [2].

* وعن اسم الاشارة في (ولذلك خلقهم) فقد قال بعضهم: أي أنّه خلقهم كي ينهَوا عن الفساد في الأرض، وأعاد الإشارة (ولذلك) إلى قوله: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾.

* قال آخرون انّها إشارة إلى قوله (إلّا مَن رحم) ويكون المراد بها أنّه خلقهم للرحمة.

ولكنّ سياق الآيات لا يساعد على الأخذ بأيّ من هذين الرأيين، والأولى أن يُعاد اسم الإشارة إلى أقرب مُشار إليه. فأمّا قوله (إلا مَن رحم ربّك) فلا يمكن أن يكون مُشارا إليه، لأنّه ليس شيئا ملموسا ولا محدّدا، ثمّ هو جزء من كلّ، هو استثناء من المختلفين، فالأولى أن تكون الإشارة إلى الكلّ الذي هو قوله (مختلفين). وقد

(1) الكشاف 420/2.

(2) سورة الأعراف 165.

تحرّج الأقدمون من القول بهذا التخريج وقالوا إنّ الله لم يخلق النّاس كي يختلفوا، وإنّما خلقهم كي يتآلفوا ويتراحموا ويتعاطفوا. وهذا رأي صحيح رجيح، ولكنْ، إذا أدركنا أنّ الاختلاف أمر طبيعيّ في تكوين البشر، وأنّه مُباحٌ في الحدود التي يكون فيها نافعا لا ضارّا، أي أن لا ينتقل إلى الاحتراب والاقتتال والبغضاء وإثارة الحزازات في النّفوس، توضّح لدينا أن لا حرج في إعادة الإشارة في قوله (ولذلك خلقهم) إلى (ولا يزالون مختلفين). ويمكن أن يُساعدنا في فهم هذا البُعد من دلالة الآية، قولُه تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [1]. فإنّ قوله (منكم) يعنِي أنّ تلك الشريعة وذلك المنهاج مستخلصان من قدرات كلّ منكم وأوضاعه وحالته، فاختلفت الشرعة والمنهاج من قوم لآخرين، ومن فرد لآخر، أي أنّهما وضعا بما يلائم كُلًّا منكم. وعلى سبيل المثال فإنّ من النّاس مَن يجب عليه الصيام، ولكنّ من النّاس مَن يحرم عليه ذلك، لداء أو لغيره مِمّا تحدّث عنه الفقهاء. فلذاك شرعة ومنهاج ولهذا شرعة ومنهاج. ثمّ إنّ في الشرعة الواحدة والمنهاج الواحد - بذاتهما - مجالا لتعدّد الآراء، وهو ما عُرف بالاجتهاد، فما بالك بتنوّع الأديان والأفكار والمذاهب والأطياف في داخل كل دين أو طائفة؟! فكلّ هذه الاختلافات من طبيعة البشر، وهكذا خلقهم الله، بل ولهذا خلقهم. وهو لا يناقض الألفة والتعارف والتعاون بين الناس. ونحن نجد في العائلة الواحدة، في كلّ أرجاء الأرض، قديما وحديثا، خلافات واختلافات، ولكنّها لا تنفي صلة الرحم والقربى التي تشدّ النّاس بعضهم إلى بعض. وعلى هذه الرؤية نفهم الآيتين: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [2] وكذلك قوله: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [3]. فتلك الخلافات والاختلافات قد تتجاوز الحدّ المسموح به، وتتحوّل إلى تناقض يؤدي

(1) سورة المائدة 48.

(2) سورة البقرة 251.

(3) سورة الحج 40.

إلى الاحتراب والاقتتال، فيصبح للمسألة وجهٌ آخر، حيث ينقسم النّاس إلى فريقين، فريق يسلك طريق الخير والتآلف والتعاون، ويناقضه فريق يسلك طريق الشرّ والعدوان والأذى، وعادة ما يبدأ الفريق الثاني بالعدوان والأذى، فاذا سيطر فسدت الأرض وهدمت الصوامع والبِيَع، فلا بدّ، إذن، من أن تعود الكرّة للفريق الأوّل على الفريق الثاني، كي لا تفسد الأرض ولا تُهدّم الصوامع والبِيَع والصلوات والمساجد التي يُذكر فيها اسمُ الله كثيرا. وتدلّ هذه الآية الأخيرة على أنّ تهديم الصوامع والبِيَع والمساجد من صور البغي والإفساد في الأرض، فهي بيوت عبادة. فالصوامع والبِيَع لأهل الكتاب وفيها صلواتهم، والمساجد للمسلمين وفيها صلاتهم أيضا. وهي جميعا بيوت الله التي يعدّ تخريبها بغيا وعدوانا. وهكذا نصل إلى أنّ النّاس فريقان، فريق الخير، أيّا كان دينهم، وفريق الشرّ والضلال أيّا كان دينهم أيضا. وأنّ الخلاف والاختلاف أمران طبيعيّان ما داما في إطار الرغبة بتحقيق الخير، ثمّ ينقلبان إلى ضدّهما إذا كانا وسيلة لتحقيق الشرّ والعدوان والعلوّ في الأرض والإفساد فيها. وعادة ما يظهر مَن ينهَون عن ذلك الشرّ والعدوان والعلوّ والإفساد، وهم الذين تتحدّث عنهم هذه الآيات البيّنات، بحسب ما أوضحناه وبيّنّاه. ليكون كلّ ذلك دروسا وعظاتٍ نستخلصها من قصّة الخلق وتطوّرات أحداثها.

بقي علينا أنْ نفهم دلالة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾، ذلك أنّه إذا كان الخلاف والاختلاف في حدودهما المبيّنة أعلاه، أمرين لا ضرر فيهما للنّاس، وأنّهما من طبيعة البشر ومن أسباب الخلق، فما معنى الاستثناء هنا؟ إذ انّ هذا الاستثناء دالّ على أنّ المختلفين هم غير الذين رحمهم الله وهداهم إلى التآلف والاتّفاق والتعاون.

وهذا صحيح لأنّ المراد تقسيم المختلفين إلى فريقين رئيسين، فريق على طريق الخير ولا تخرج الاختلافات بين أفراده عن إرادة الخير وتلمّس أفضل الوسائل للوصول اليه، وتنميته وتكثير نِعَم الله على البشر، وتحقيق الأمن والاطمئنان للنّاس، وفريق آخر يختلف عن ذلك الفريق الأول، وكذلك يختلف أفراده وجماعاته في اختيار السبل الكفيلة بتحقيق شرورهم. فالذين رحمهم الله وشملهم بقوله (إلا مَن رحم ربّك) فهم الفريق الأول أيّا كانت الاختلافات بينهم، فهذه الاختلافات

اجتهادات تنطلق من إرادة الخير بهدف الوصول إلى غاياته النبيلة السامية.

ومِمّا يُسند هذه الرؤية ما جاء في آيات قصّة الخلق في مواضع متعدّدة من التنزيل العزيز، كالتي في **سورة البقرة:** ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[1]. **وفي سورة طه:** ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[2]. **وفي سورة الحجر:** ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[3]. وقد تسأل عن الاستثناء في هذه الآية، فقد قال مَن لا يُعتدّ بكلامهم أنّ في الآية تناقضا، حيث إنّها تجعل الغاوين الذين يتّبعون وساوس الشيطان عبادا للرحمن! وهذا افتئاتٌ على النصّ، فمفهوم الكلام: انّ عبادي ليس لك عليهم سيطرة ولكنّ سيطرتك ستكون على الذين اتّبعوك. فالنصّ يقسّم النّاس إلى قسمَين قسم مكوّنٌ من عباد الرحمن، وقسم مكوّن من الغاوين الذين يتّبعون وساوس الشيطان، ويطيعون أوامره. فلا تناقض في النّص وإنّما هو التركيب اللّغوي المبنيّ على معطيات بلاغة اللّغة العربيّة وأساليب التعبير فيها.

وبمتابعة سور القرآن نصل إلى **سورة الأعراف** حيث نجد فيها تفصيلا واسعا لقصّة الخلق الأوّل، ودروسا جديدة، تضاف إلى الخبرة البشريّة، وتعلّم الإنسان أشياء نافعة ومفيدة، من العرض الذي يتناول القصّة بمنظور آخر، وأسلوب آخر، وغايات نبيلة أخرى، تدفع الإنسان نحو التواضع والاحتكام للعقل والعدل، ومعرفة العدوّ من الصديق، فالعدوّ ذلك الذي يزيّن لك التكبّر والظلم والعدوان، والصديق ذلك الذي يأخذ بيدك للعدل والإحسان.

---

(1) سورة البقرة 38 – 39.

(2) سورة طه 123 – 124.

(3) سورة الحجر 42.

ففي الآية العاشرة من سورة الأعراف تذكير بفضل الله على البشر من أجل أن يشكروه، بكل ما في كلمة الشكر من معانٍ: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [1].

ثم يدخل سياق السورة مباشرة إلى قصّة الخلق، إذ بعد أن اكتمل ذلك الخلق جسدا وروحا أمر اللهُ الملائكة بالسجود لآدم، فسجدوا إلَّا إبليس الذي تحوّل في هذا الموضع إلى رمز للتكبّر، مبرّرا تكبّره واستعلاءه بأنّه مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين، فهو خيرٌ من آدم. وكان نتيجة تكبّره أن أخرج من الجنّة صاغرا خانعا ذليلا في مقابل ذلك العتوّ والتكبّر.

وقد سبق أن تحدّثنا عن رأينا في إبليس والشيطان مِمّا لا نحتاج إلى إعادته هنا. ويكفينا أن نستفيد من هذه الآيات وغيرها مِمّا هو في معناها ودلالاتها أنّ التكبّر صفة مذمومة صاغها القرآن الكريم على شكل قصّة لأنّها أوقع في النّفس من الخطاب المباشر، على الرغم من أنّ الخطاب المباشر ورد في القرآن أيضا، وذلك لكي يتفهّم الإنسان ما يُراد منه بمختلف وسائل التعبير وأدواته، القصص، تارة، والأمثال تارة أخرى، والإيحاء في موضعه الملائم له، والخطاب المباشر حين يستلزم الموضوعُ ذلك.. إلى آخر أساليب التعبير الفنّي عن المعاني، مِمّا هو معروف في البلاغة العربيّة.

وقد ذهب أحد مَن لا يُعتدّ بكلامهم إلى وجود تناقض في القرآن من حيث إنّ إبليس كان له الحقّ في ألَّا يسجد لآدم لأنّه مخلوق من النّار، وآدم مخلوق من الطين، وأنّ النّار أكرم من الطين، مستدلًّا بقوله تعالى في قصّة موسى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [2]. وليس في الآية ما يُسند دعواه، لقد آنس موسى نارا فسعى نحوها كي يأتي منها بخبر أو بقبَس: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ

(1) سورة الأعراف 10.

(2) سورة النمل 8.

ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (1) وفي موضع آخر: ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾ (2). فهذه ليست النّار المعهودة المعروفة، إضافة إلى أنّ النّصين لا يقولان: بوركت النّار، كي يذهب القائل بهذا القول إلى أنّ النّار أكرم من الطين، وبالتالي فإنّ إبليس أكرم من آدم، وحقّ له ألّا يسجد له.

ولكنّ ما جاء في النّصّ من "أنْ بورك مَن في النّار ومَن حولها" لا يُسعف على القول بتفضيل النّار على الطين. فهي نار ذات سمات خاصّة بحيث تراءت للنّبيّ موسى فقط، وهو الذي أخبر أهله عنها وكأنّهم لم يروها (3).

واضافة إلى هذا فإن القائل بتبرير ما فعله إبليس قد فاتته عدّة أمور:

* فعلى فرض أنّ النّار أكرم من الطين، وقلنا إن لا دليل على هذا، فمن المتّفق عليه أنّ التكبّر صفة مذمومة، وما كان لإبليس أن يتكبّر فيمتنع عن السجود على أساس أن عنصره أكرم من عنصر آدم.

* ثم إنّ عدم السجود لآدم هو عصيان لأمر الخالق. وبسبب هذا العصيان وذلك التكبّر طُرد من الجنّة. ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ (4). وكذلك: ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (5). والحمأ المسنون هو الطين المفخور، فهو مرحلة من مراحل خلق آدم.

وتنتقل القصّة في هذه السورة إلى مستوى آخر يزيد عمّا جاء في سورة

(1) سورة النمل 7.
(2) سورة طه 10 - 12.
(3) انظر قصة موسى وبني إسرائيل في هذا الكتاب.
(4) سورة الأعراف 13.
(5) سورة الحجر 33.

البقرة، حيث إنّها تضع أمام الإنسان، وعن طريق الحوار بين الربّ وإبليس، فكرة أن ثمّة تحديا بأن يعمل إبليس على إضلال النّاس، فما على هؤلاء النّاس إلّا عصيانه والامتثال لأوامر الله:

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[1].

قلنا قبل قليل إنّه حتّى لو كانت النار أفضل من الطين فلا يحقّ لإبليس أن يتكبّر بسبب ذلك، بمعنى أن التكبّر على الآخرين مذموم وممنوع ومحرّم، حتّى لو تصوّر المتكبّر أنّ تكبّره مبرّر بسبب نَسَب أو حَسَب أو علم أو مال أو ما أشبه ذلك. وحيث لم يجز أن يتكبّر مخلوق من نار على مخلوق من طين، فكيف يجوز لمخلوق من طين أن يتكبّر على مخلوق مثله من طين أيضا؟ ولذلك قال النبي، عليه الصلاة والسلام: (كلّكم لآدم وآدم من تراب). ويا ليتنا نُدرك هذه الحكمة الخالدة، فنتواضع لبعضنا بعضا، خاصّة وأنّ الحديث الشريف يقول: (من تواضع لله رفعه). وإذا كان المرموز له بإبليس قد طُرد من الجنّة لتكبّره، فكيف يريد أيٌّ كان أن يدخل الجنّة وفي قلبه ذرّة من التكبّر؟

ونستفيد من هذا العرض الثاني أنّ التحدّي ما زال قائما، وأنّ الوساوس ستظلّ تراود الإنسان، وأنّ الإعجاب بالنفس أو بالنسب أو بالحسب أو بالمال حين يتجاوز حدّه سيؤدي لا محالة إلى الغرور والتكبّر، فيخسر المرء نفسَه كما خسر إبليس جنّته، أيّا كان تصوّرك لإبليس.

---

(1) سورة الأعراف 12 - 18.

وبعد أن تمّ ذلك، سكن آدم وزوجه الجنّة، وأبيحت لهما كلّ ثمارها وأشجارها باستثناء الشجرة التي سبق الحديث عنها، ولكنْ شاء لهما ضعفهما أمام إغراءات النفس ووساوسها، أن يَوهما فاقتربا من تلك الشجرة وتناولا شيئا من ثمارها. وكانت الوسوسة الشيطانيّة قويّة مؤثرة، حيث خاطب الشيطان ما في النفس البشريّة من تطلّع وطموح وغرور واشتهاء لما هو ممنوع عنها، وقد جاء في الأثر (الإنسان حريصٌ على ما مُنع) ولك أن تجرّب ذلك مع نفسك أو مع الآخرين، فالممنوع مرغوب حتّى لو كان ضارّا وسيئا وممقوتا، ولو أبيح ذلك الممنوع لربّما لا يقترب منه أحد.

فالإغراء المرتكز على استغلال طموحات الآخرين وأحلامهم، ما كان واقعيّا منها وما لم يكن، هو الوسيلة الأكثر سهولة لتحقيق المآرب والغايات الهابطة التي يريد الوصول اليها ذلك النّفر الذي يمارس إغراء الآخرين بشعاراته البرّاقة وألفاظه المعسولة، خاصّة إذا انطلق من قناعات النّاس ذاتها ليحرفها عن الطريق السويّ رويدا رويدا حتّى يصل بمن ينخدع به إلى نقيض تلك القناعات، وإلى خسران كل الطموح والأحلام. وهذا الإغراء يعتمد على مخاطبة الغرائز، لذلك يقع في أحابيله وحيله مَن يجري وراء تلك الغرائز.

وعلى مرّ العصور، هناك صورة متكرّرة يمارسها كلّ من يريد أن يخدع الآخرين ويُغريهم أنّ باستطاعته أن يحقق لهم المحال من الأمور. وعادة ما يقوم الشخص الذي يمارس ذلك بخداع الآخرين بشعارات وأكاذيب تنطلي على من هو مستعدّ لتصديقها والأخذ بها، ولا ينخدع بتلك الأباطيل إلا مَن لم يكن له عزم وحزم، ولا يريد الاستفادة من تجارب الآخرين، ماضين أم معاصرين له. وهذه صفة لصيقة بأنواع من النّاس قديما وحديثا. لذلك فإنّ الإغراء كان في أوّل الخلق، ويظلّ ملازما للبشر.

والإغراء يعتمد على الخداع، ولا يتورّع من يسلك هذا الطريق عن اللجوء إلى كل الأساليب والحيل حتّى تسقط الضحيّة بين يديه، ومن ذلك لجوؤه إلى القيم والعادات والتقاليد، ولقد حدث في قصّة الخلق أن لجأ إبليس إلى القسَم، وتلبّس ثياب النصيحة، مخادعة لآدم وإغراء له واكتسابا لثقته وتصديقه، ولا نستبعد أنّ اسم

إبليس قد أُخذ من التلبّس، التلبّس بثياب النصيحة والإخلاص بل وادّعاء الإيمان أيضا: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾[1]. فهو قد قاسمهما، أي: أقسم لهما بربّهما إنّه لهما لَمِن الناصحين، وكأنّه يؤمن بربّهما وكأنّه مطيع له سامع لأوامره حتّى يُقسم به.

ويعطينا هذا التصوير حقيقة ملحوظة على مرّ الأزمان وتطاولها أنّ المخادعين الذين يريدون إغراء النّاس بالأباطيل والتلفيقات، لا يردعهم رادع عن اللجوء إلى العبارات الدينيّة، من آيات وأحاديث نبويّة وحكم وأمثال، إذ انّهم يدخلون إلى نفوس النّاس من قناعاتها ومعتقداتها، ثمّ يسحبون الضحيّة إلى حيث يريدون. وهؤلاء صنوف وأنواع، ولكنّ أخطرهم على الإطلاق أولئك الذين لا يتورّعون عن تحريف الأديان عن رسالتها الخيّرة التي تريد إعمار الأرض وبناء البشريّة بناء سويّا، وتحقيق رسالة الخلق بكلّ جوانبها. فتراهم يفسّرون القرآن تفسيرا كيفيّا، ويحرّفون الحديث النبويّ عن موضعه ومناسبته، بل عن لفظه ومعناه الحقيقي أحيانا. ويمتاز هؤلاء بأنّهم يتناقضون من فترة لأخرى، بحسب ما تقتضيه مصالحهم الذاتيّة الضيّقة، فتراهم يفسّرون آية واحدة تفسيرات متناقضة، مرّة لها دلالة على كذا، ومرّة لها دلالة على نقيض ذلك، بحسب أهوائهم ووساوس نفوسهم وتطلّعاتهم غير النقيّة.

وعن هذا الطريق ذاته وصل الشيطان، مهما كان المقصود به، إلى غايته المعجونة بالحقد على آدم وزوجه: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ

(1) سورة الأعراف 20 - 21.

لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

وتفيدنا القصّة من ناحية أخرى، أنّ الشيطان، بأيّة كيفيّة تصوّرناه أو تخيّلناه، كان عدوّا لأبينا آدم، وما زال عدوّا لنا، وعلينا أن نتّخذه عدوا، فلا نطيعه ولا نتّبع وسوساته. ولَمّا كنّا نجهل صورة الشيطان وكيفيّة وسوسته، ولا نعرف شيئا عن إبليس وكيفيّة تغلغله في المشاعر والأحاسيس، ولَمّا كنّا لا نجد فائدة في اللجاج حول الشيطان وإبليس، هل هما شيء واحد أم شيئان مختلفان، مع أننا سبق أن بيّنّا أنّ إبليس يظل بحالته حتّى يتغلغل في مشاعر الإنسان وأحاسيسه، وحينذاك يُصطلح عليه بالشيطان، وعلى الرغم من ذلك فإنّ أمامنا طريقا واضحا نسلكه لتشخيص الحالة الواقعيّة للآثار المترتّبة على سلوكنا، ذلك أنّ السلوك المنبعث من العقل والضمير والعدل، والمنسجم مع الطبيعة السامية للإنسان، هو الفطرة السليمة؛ أمّا السلوك المنبعث من الحقد والحسد والبغضاء والأطماع وغيرها من مشاعر هابطة دالّة على ضعف النفسيّة وهشاشة الفكر، فهي الوساوس التي يمكن أن توصف بالشيطانيّة والإبليسيّة وما إلى ذلك من أوصاف ترمز بشكل واضح إلى جميع الشرور التي يهدف القرآن إلى تخليص النّاس منها.

ومن جهة أخرى، تؤكد القصّة في هذا الموضع على أنّ الله حين أخرج آدم وزوجه من الجنّة لم يترك ذرّيّتهما هملا ضالين، بل دعاهم إلى التعرّف على عدوّهم الذي أخرج أبويهم من الجنّة. وكأنّه يفصّل هنا معنى (الهدى) الذي مرّ في الآية 38 من سورة **البقرة**: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. وتضيف القصّة الواردة في الأعراف إضافة خطيرة لم تُذكر في سورة **البقرة**، وهي أنّ بنِي آدم سيكون بعضهم عدوّا لبعض. وربّما كان ذلك تعبيرا عن التغييرات التي حصلت لآدم وزوجه بعد اقترابهما من تلك الشجرة التي ذكرنا أنّنا لا نعرف عنها شيئا، وحاولنا أن نقترب من موضوعها بما وصل اليه علم الطب، وخاصّة الطب النفسي في هذا العصر من تأثير الأطعمة على الأمزجة والطباع،

---

(1) سورة الأعراف 22 - 23.

وعلى الصحّة والمرض، وعلى النفس والروح والبدن، فربّما كان ذلك التغيّر، والذي ترثه ذرّيّة آدم هو الذي أوجد في نفوس بعض أبنائه مشاعر الحقد والبغضاء والأطماع والجشع، وهي أهمّ أسباب الشعور بالعداوة تجاه الآخرين. وهذا هو الذي منع آدم وزوجه من أن يكونا من أهل الجنّة، فصار من المحتّم أن ينفصلا عنها. ومن ثمّ احتاجا إلى التوبة الحقيقيّة والدعاء المنطلق من القلب والعمل الصالح وسائلَ لتطهير النّفس مِمّا علق بها نتيجة ذلك السلوك، والارتقاء إلى درجة استحقاق العودة إلى الجنّة: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [1].

وتضيف **سورة الحجر** على ما مرّ أنّ الإنسان مخلوق ﴿ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [2]. كما تفصّل الكلام على طلب إبليس أن يؤجّل الله عقابه له إلى يوم القيامة لكي يُثبت صواب موقفه من آدم وذريّته، على أساس أن البشر المخلوق من الطين ثم من الصلصال (وهو الطين اليابس) المسنون (أي المنحوت على صورة الإنسان) لا يستحق أن يسجد له الملائكة ولا أن يسجد له مخلوق من ﴿ نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [3].

ثمّ تقدّم القصّة هنا تأكيدا على ما سبق ذكره في المواضع الأخرى، من أنّ الشرّ يتحدّى الخير، وأنّ الغواية متواصلة ولن ينجو منها إلّا الأقوياء في ذواتهم

(1) سورة الأعراف 24 - 27.

(2) سورة الحجر 26.

(3) سورة الحجر 27.

الواعون لحقيقة الحياة المدركون لدورهم في تنفيذ رسالة الخلق المبنية على الخير والتي تسعى لتحقيق الخير: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[1].

وفي سورة الإسراء مسألة أخرى تُلفت النّظر، وهي وصف الله، تعالى، لإبليس بأنّه سيستثير مَن يتّبعه بصوته وسيجلب عليهم بخيله ورَجِله وسيشارك أتباعه في أموالهم وأولادهم ويعدهم بالباطل ويخدعهم بما يثيره في نفوسهم من غرور: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾[2].

إنّ هذا الحوار الذي يعرضه القرآن بين الرب وإبليس يكشف أنّ مَن يتّبع وساوس نفسه الأمّارة بالسوء، ولا يأخذها بالحزم والعقل والعدل، سيتحوّل إلى واحد من أتباع رمز الشرّ إبليس أو الشيطان، ثمّ سيتحوّل هذا الشخص إلى واحد ممّن يستعان بهم لتوريط الآخرين وإغوائهم وإغرائهم وتزيين سوء أعمالهم لهم، ويتمّ ذلك بالصوت أي بالكلام، وبالممارسة المرموز لها بالخيل والرجال، فالممارسة لا بدّ أن يقوم بها أحياء لا جمادات. وهكذا، وفجأة، يرى المتورّط نفسه وقد فَقَدَ ذاته وفَقَدَ إنسانيّته وتحوّل إلى عنصر ضارّ بالمجتمع، فعليه أن يعود إلى وعيه ورشده، أو أن يُعاد إليهما بقوّة النظام، وله فيما حدث لآدم وزوجه عبرة وعِظة، وتلك هي غاية القصّة برمّتها.

---

(1) سورة الحجر 39 - 43.

(2) سورة الإسراء 63 - 65.

أمّا المشاركة في الأموال والأولاد فالمقصود بها المال الحرام الذي يحصل عليه المرء عن طريق السرقة أو الغشّ في العمل أو التطفيف في الميزان أو الاحتيال على الآخرين، فهذا المال الحرام سيصرفه صاحبه، أو يصرف جزءا منه على أولاده وأهل بيته. وبذلك فهو يطعمهم خبيثا لا طيّبا، ويعلّمهم سلوك طريق الشرّ لا الخير، ولذلك تأثيرٌ خطير في تربيتهم وتوجيههم وتحديد سلوكهم.

وتضيف سورة (طه) إلى ما مرّ أمورا عديدة، منها:

1 - التأكيد على أنّ الإنسان من التراب جاء وإلى التراب يعود ومن التراب يُبعث يوم القيامة: ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [1]. فيكون هذا بمثابة التمهيد الأوّل للدخول إلى قصّة الخلق. وكذلك لإثارة انتباه النّاس إلى أنّهم، ما دام أصلهم ذاك، ونهايتهم هذه، فلا مسوّغ للتكبّر والغرور والعدوان على الآخرين، قولا أو فعلا، ولا مبرّر لارتكاب أيٍّ من المعاصي والشرور. كما نستفيد من هذا التمهيد أنّ الإنسان، ما دام ابن الأرض، فعليه الاهتمام بالأصل الذي جاء منه، فمنه يتغذّى ومنه يشرب، وعلى ثراه يسير، ومن هوائه يتنفّس، ومن بحاره وأنهاره يستخرج الحلية وألوانا من الطعام.. إلى غير ذلك من منافع وفوائد. فعليه إعمار الأرض، وعليه المحافظة على نقاء البيئة، وعليه تطوير نفسه والآخرين، ومشاركتهم في السرّاء والضرّاء، فالأرض ليست ترابا فحسب، بل عالم قائم بذاته. كما أنّ الإنسان ليس ترابا فحسب، بل فيه روح أودعها الله في جسده، وله نفس، وله عقل، وطبيعة حافلة بالقيم والأفكار والأحاسيس والمشاعر.

2 - ثمّ يأتي تمهيدٌ آخر يتضمّن أمرين مهمّين جدّا:

أ - أما الأمر الأول فهو النّهي عن العجلة في قراءة القرآن بل وجوب تدبّر معانيه عند تمام آياته لا قبل تمامها. وذلك قوله تعالى:

﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ

(1) سورة طه 55.

وَحْيُهُۥ ﴾ [1].

وبلا ريب فإنّ هذا تعليم للنّاس أن يتأنّوا في إبداء آرائهم ورؤاهم وتفسيراتهم لآيات القرآن. ولقد رأينا من بعض النّاس عَجَبا أنّهم يقتطعون من السياق القرآنيّ شيئا، ثمّ يوجّهونه الوجهة التي تخدم مآربهم بغض النظر عن سياق الآية وسبب نزولها، فتراهم يأخذون النصّ المبارك إلى غير ساحته ويوجّهونه بعكس ما يُراد منه.

وإذا كان الخطاب في هذه الآية للنبيّ الكريم، وهو مَن هو في علمه وتُقاه، فكيف بالآخرين الذين يتعاملون مع القرآن وآياته البيّنات؟! إنّ علينا جميعا أن نتواضع أمام القرآن، وأن لا نعجل بالحديث عنه، حتّى نستوعب السياق ونتدبّر في ألفاظه ومعانيه، وبكل ما يحيط به، فهما منطلقا من ذاته لا من شيء خارج عن سياقه.

ب - وأما الأمر الثاني فهو التأكيد على دور العلم في حياة الإنسان، وذلك قوله تعالى في تمام الآية المذكورة: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [2]. ولَمّا كان سياق الآية عن القرآن العزيز، نتبيّن أنّه كلّما زاد علم الإنسان بالعالم والكون وبما حوله زاد معرفة بالقرآن، وكلّما عرف قوانين الكون والحياة أدرك القرآن بشكل أفضل، من جميع النواحي، واستفاد منه فائدة مثلى في صياغة حياته وشدّ عرى علاقاته مع سائر النّاس على أسس من ذلك العلم.

هذا إضافة إلى أنّ العلم المذكور هنا عامّ شاملٌ، ولم يأمر اللهُ النبيَّ بأن يطلب الزيادة في أيّ أمر من الأمور باستثناء العلم، تعظيما لمنزلة العلم ودفعا للنّاس إلى طلبه. فمن عجب أن يقف ناسٌ ضدّ العلم وضدّ التفكير العلمي المنهجي، ويريدون من الآخرين أن يظلّوا على جهلهم، تائهين في عالم من الخرافات والأساطير، ثمّ هم يدّعون أنّهم مسلمون وأنّهم يهدفون إلى الخير. ولا ندري أيّ خير في التقوقع والجمود، وأيّة طاعة لله في الانعزال عن العالم ومتغيّراته وانتقالاته العلميّة التي من غيرها يسيطر التخلّف والجهل، ويظلّ المرء ضحيّة لأمراض وعلل وأدواء وأميّة

---

(1) سورة طه 114.

(2) سورة طه 114.

متفشيّة لا تنشر إلّا المزيد من البؤس والشقاء.

ثمّ تأخذنا القصّة المذكورة في سورة (طه) إلى عالم آخر، إلى الطموح غير الواقعي الذي يسعى له بعض النّاس، بحسن نيّة غالبا، وإذا بهم يخسرون، لا ذلك الطموح فحسب، خاصّة إن كان نتيجة وساوس النّفس وتطلّعاتها غير المشروعة، وإنّما أيضا الوضع الذي هم فيه. فآدم، كان موعودا بأن تُيسّر له في الجنّة كلّ شؤون حياته، وتلبّى له جميع احتياجاته، ولكنّه لم يكن له عزمٌ يحجزه عن الوقوع في دائرة الإغراء بأن يكون مَلَكا أو أن يكون خالدا وبأن يحوز على مُلك لا يَبْلَى، فخسر الجنّة، ولم يتحوّل إلى مَلاك، كما لم يحصل على الخلد ولا على المُلك الذي لا يبلَى، وكاد يخسر رضوان ربّه لولا أنّ الله غفور رحيم فاجتباه مرّة أخرى وهداه لما هو صواب: ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (1).

وتمثّل الآيتان الأخيرتان من النصّ السابق درسا مضافا إلى ما مرّ، لأنّ القصّة القرآنية لا تُذكر لذاتها ولا للمتعة والاستئناس، وإنّما لتربية النفس والضمير، وتنمية إرادة الذات في سلوك طريق الخير والسعادة والاطمئنان، فمَن أعرض عن ذلك الطريق، وأصرّ على إعراضه، فإنّ له معيشةً ضنكا، أي: ضيّقة تعيسة شقيّة. ولا تحسبنّ السعادة إلّا الوميض الذي ينبثق من ضمير نقيّ ونفس مطمئنة، وهذا لا

(1) سورة طه 117 - 126.

يتحقّق للإنسان إلّا إذا راض نفسه على حبّ الخير وعمله، وعوّدها على الصبر حين تضيق سبُل الحياة، وتشتدّ المشكلات، فبالصبر ثم ببذل الجهد والعمل تتغيّر الظروف وتتيسّر سبل الحياة ولو بعد حين. فالإنسان بين قَدَره واختياره.

وتلخّص سورة (ص) المعاني المارّة في المواضع الأخرى، بأسلوب آخر، وهو يعتمد على الحوار أيضا من أجل تثبيت القيم التي دعت إليها النّصوص السابقة، مع مسألتين، أولاهما في بداية القصّة، وثانيتهما في آخرها.

أما التي في بدايتها فتأكيد أنّ قصّة الخلق كلّها هي من الغيب ولم يكن النبيّ على علم بها من قبل أن يُنزّل عليه القرآن: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾[1].

وأمّا التي في آخرها فإنّ النبيّ البشير النذير لا يطلب من وراء دعوته أجرا. فهو ينقل لهم حقائق الوحي، ليتذكّر من شاء منهم أن يستقيم: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾[2].

فالدعوة إلى المُثُل العليا والقيم السامية يجب أن تتجرّد من أيّ هوى شخصيّ أو مصلحة ذاتيّة وكذا من وسوسات النّفس وأهوائها، وإلّا فهي دعوة بعيدة كلّ البعد عن الإسلام وأهدافه. وقد جاء في التنزيل العزيز: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾[3].

وأخيرا.. فإنّ قصّة الخلق الأوّل رسمت للنّاس طريقين طريق الهدى وطريق الضلال، طريق الألفة والمحبّة والتعاون وسائر القيم السامية، وطريق الخلاف

(1) سورة ص 67 - 70.

(2) سورة ص 86 - 88.

(3) سورة الصف 3.

والشقاق والإفساد في الأرض وسائر الصفات المناقضة لمعاني الإنسانيّة التي يحملها كلّ فرد في ذاته. وبمقدار سموّ تلك الذات وتلاؤمها مع القيم الرفيعة يسمو الفرد ويسمو المجتمع مستفيدا من تجارب السابقين مما يقصّه القرآن الكريم ويفصّل الكلام عليه وسيلة لتطهير النّفس وسموّ المشاعر والأحاسيس.

****

فَرْقُ ما بين التّهيّب والتّقوّب

* من سورة المائدة:

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

****

هذه قصّة خلاف بين أخَوين، أدّى إلى أن يصير أحدهما قاتلا وصفه التنزيل العزيز بالخاسر، والآخر مقتولا، ولكن فائزا. فكيف يكون القاتل خاسرا والمقتول فائزا؟! هذا ما سنراه في هذه السّطور.

هي حادثة بطلها أخوان يمكن أن تتكرّر في أيّ زمان ومكان، لسبب ولغير ما سبب، فهكذا تحدث الجرائم عادة. لذا ليس من المهمّ أن نعرف أين وقعت هذه الحادثة، فالقرآن ليس كتاب جغرافية.. وليس المهمّ أن نعرف متى وقعت، فالقرآن ليس كتاب تاريخ. بل المهمّ ما يمكن أن نستخلصه منها من عِبَر وعظات، على ما

نحن مبيّنوه، هنا.

وفي مجريات هذه القصّة اتّفق الأقدمون في شيء واحد هو انّ اسم المقتول هابيل واسم القاتل قابيل، وأمّا ما سوى ذلك فقد اختلفوا فيه على وجوه:

* فمنهم من قال إنّها وقعت لابنَي آدم صلبيةً.

* ومنهم مَن قال إنّها وقعت لاثنين من بنِي إسرائيل.

* ومنهم مَن قال إنّ علامةَ قبول القرابين نزول نار عليها فتحترق.

* ومنهم من قال إنّ القرابين التي لا تُقبَل هي التي تنزل عليها النّار فتحترق.

* ومنهم من تساءل عن السبب الذي حدا بهابيل إلى أن لا يدافع عن نفسه، على الرغم من وجوب الدفاع عن النّفس في مواجهة العدوان؟

* ومنهم من تساءل عن السبب الذي جعل هابيل يريد لأخيه أن يَبُوْءَ بإثمهما وأن يكون من أصحاب النّار، بدلا من أن يريد له الهدايةَ كي ينجوَ مِمّا هو فيه مِن إثم وشرّ؟

* ومنهم مَن تساءل عن المساواة بين قتل امرئ واحد وقتل النّاس جميعا في قوله تعالى: ﴿ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾؟

* واختلفوا في معنى الإحياء في قوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ ﴾؟ وهل في طوق الإنسان أن يحيي ويُميت؟!

* ومنهم مَن انشغل بالغراب الوارد ذكره في القصّة، متسائلا تساؤلات تختلف من واحد لآخر: هل هو مُوْحىً إليه أن يفعل ذلك؟ أم هو مَلَك جاء على هيئة غراب ليعلّم قابيل كيف يواري سوأة أخيه؟ وهل كان غرابا واحدا أم كانا غرابَين، قَتَل أحدُهما الآخرَ ثمّ دفنَه؟!

* واختلفوا في معنى (سوأة أخيه) هل تعنِي الجثّة كلّها، أم تعنِي (عورة) أخيه؟

* واختلفوا في هل يختصّ الحكم الوارد في تحريم القتل ببنِي إسرائيل؟ وإذا لم يكن كذلك فكيف نفهم قوله: ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ مِمّا يعطي فكرة أنّ هذا الحكم خاصٌّ بهم؟!

ومعظم هذه الخلافات خلافاتٌ شكليّة لا علاقة لها بمغزى القصّة وهدفها. وما الذي سنستفيده إذا كان هناك غرابٌ واحد أو غرابان؟ وإذا كانت النّار هي التي تحدّد القرابين المقبولة من تلك التي لا تُقبَل؟ وما الذي ننتفع به حين نتشاغل بالاختلاف في أن النّار تحرق القربان المقبول أم أنّها تحرق القربان المرفوض؟ وكذا قل في سائر الخلافات والتساؤلات التي ذكرنا بعضها آنفا مِمّا تحفل به كتب القدماء وكثير من المعاصرين أيضا.

وكيفما يكن الأمر، فسنجيب على أبرز تلك التساؤلات ونحاول رسم صورة للحادثة قد تضع حدّا للخلافات المذكورة، أو تصحّح بعض ما فُهم من هذه القصّة التي تمثّل أوّل جريمة قتل حدثت في التاريخ، وذلك بعرض مجرياتها، ودراسة ظروفها والمآل الذي وصل إليه كلّ من الأخوَين.

ولنا في هذه القصّة استقراءٌ نُجمله في هذه النقاط:

أوّلا: لم يحدّد التنزيل العزيز اسم القاتل ولا اسم المقتول، لأنّ التنزيل العزيز لا يولي أهمّيّة لذلك. وأيّا كان اسم هذا وذاك، فالمهمّ المغزى العامّ للقصّة وهو تحريم القتل والعدوان.

وقد ذكروا أنّ اسم القتيل (هابيل) واسم القاتل (قابيل) وهما اسمان مستغرَبان قليلا، ولم يُستعملا عبر التاريخ إلّا على نطاق ضيّق وقليل. والذي يبدو لنا أنّ كلّ اسم منهما علمٌ مركّب تركيبا مزجيّا، أي أنّه مكوّن من جزأين. أمّا (هابيل) فهو من (هابَ إلّ) وأمّا قابيل فهو من (قابَ إلّ). والإلّ، عند ابن فارس [1]، تعنِي: الله، جلّ ثناؤه، والإلّ: العهد [2]. وكلمة (إلّ) تعنِي الربّ والإله أيضا [3]. والإلّ: الرّبوبيّة [4].

(1) هو العالم الجليل أحمد بن فارس (ت 395 هـ) له مجمل اللغة ومقاييس اللغة والصاحبي في فقه اللغة، وغيرها. انظر في ترجمته: نزهة الألبّاء 320، إنباه الرواة 94/1، يتيمة الدهر 400/3. وأيضا: أحمد بن فارس، د. هادي حسن حمودي.

(2) مجمل اللغة 150/1. ت، د، هادي حسن حمودي، الالكسو 1985. وانظر: العين، للخليل بن أحمد 123/1. تحقيق وتنظيم دكتور هادي حسن حمودي. مسقط 1994.

(3) لسان العرب (ألل).

(4) كتاب العَين للخليل بن أحمد، ت. د. هادي حسن حمودي 122/1.

ثمّ لَمّا تمّ المزج أُبدلت الهمزةُ ياءً، وهذا كثير في اللّغة العربيّة طلبا لسهولة النّطق. فيكون معنى الاسم الأوّل أنّ المتسمِّي به قد (خافَ الله) لأنّ (هاب) تعنِي (خاف). ويكون معنى الاسم الثاني (عصى الله) لأنّ "قاب" من الجذر اللّغوي "قوب" الدالّ على القلع والخلع [1]، كما يدلّ على الهروب والافتراق [2]. فكأنّ (قابَ إل) يعنِي أنّه خلع طاعة ربّه وهرب منها. ومن هذا الجذر اللّغويّ يقال: تقوّب جلده، أي: تقشّر، فكأنّ طبقة منه قد انقلعت عنه.

ومن البديهي أنّ هذين الاسمين ليسا اسميهما الحقيقيين، لأنّ من المستحيل أنّ آدم (أو غيره في حالة كونهما ليسا ابنيه صَلبية) يمكن أن يسمّي أحد أبنائه بما يدلّ على عصيانه لله وخلعه لطاعته. ولذلك نحتمل أنّ هذين الاسمين أطلقهما اللاحقون على الشخصَين المعنيّين. وكان هذا أحد أبرز سببين من أجلهما لم يذكر القرآن الكريم اسمَيهما. أمّا السبب الآخر، فما سبق أن قلناه، من أنّ هدف التنزيل العزيز من ذكر هذه القصّة لا يتعلّق بأسماء الأشخاص بل يتعلّق بالسلوك نفسه، فسواء كان هذان الاسمان اسميهما أم لا، فالمعوّل أن نعرف دلالة القصّة ومغزاها. وأمّا ما قمنا به هنا، فمحاولة لمعرفة أصل هذين الاسمَين من حيث اللّغة، لا من حيث إنّهما ذُكرا في التنزيل العزيز.

ثانيا: أنَ ابنَي آدم هذين، قدّم كلّ منهما قُربانا، فتقبّل الله قُربان أحدهما، ولم يتقبّل قُربان الآخر. والمفروض أنّ "القُربان" هو ما "يتقرّب" به الإنسان إلى ربّه، لأنّه من الجذر اللّغويّ (ق.ر.ب) الدالّ على ذلك المعنى، ولكنّ مِنَ النّاس مَنْ يقدّم قربانه هذا لا على أنّه عمل صالح قائم على أساس التقى، وإنّما من أجل غايات ومطامح قد تكون بعيدة كلّ البُعد عن الصلاح والتّقى.

وتوضّح الآية السبب في القبول وعدمه أنّ الأوّل كان (تقيّا) فقبل الله قربانه والثاني لم يكن تقيّا فلم يُقبل منه قربانه. ونستنتج من ذلك أنّ "التقرّب" إلى الله تعالى، سواء بنَذرٍ أم بغيره من صور العبادة، لن يتقبّله الله ما لم يكن المرء تقيّا،

(1) مقاييس اللغة، 37/5. لسان العرب (قوب).

(2) مقاييس اللغة 38/5.

بمعاني التقوى التي هي حُسن الاستخلاف في الأرض، علما نافعا وعملا صالحا.

ولنا، هنا، أن نتساءل:

* هل يتقبّل الله قرابين المنافقين؟

* هل يتقبّل قرابين الذين يؤذون الآخرين ويكفّرونهم بدلا من استمالة قلوبهم باللّطف والإيناس والاستئناس؟

* هل يتقبّل اللهُ قرابين الفظّ الغليظ القلب الذي يتعامل مع النّاس باستعلاء واحتقار؟

* هل يتقبّل الله قرابين الذين يأتون إلى ربّهم وقد آذوا هذا واعتدوا على ذاك، وحاسَبوا النّاس وكأنّهم أرباب؟

* وهل يتقبّل الله قرابين الذين يسعون في الأرض فسادا، ببثّ الفُرقة وزرع الفِتَن وتمزيق وحدة المجتمع ويعرقلون نموّه وتطوّره ويحاولون تعطيل عجلة السير في طريق الطمأنينة والأمن والأمان؟

* وهل يتقبّل الله قرابين الذين يقطعون صلة الرحم، ولا يقومون بما أوجبه الله عليهم من التكافل والتساند والتعاون على البرّ والتقوى؟

* وهل يتقبّل الله من الذين يكنزون الذهب والفضّة ولا يوظّفونها لصالحهم وصالح الآخرين، وخاصّة المعوزين من الذين لا يجدون عملا منه يعيشون؟

* وبالجملة.. هل يتقبّل الله قرابين مَن ظلم نفسَه أو ظلم غيرَه أو ظلمهما معاً؟! إنّه لا يتقبّل ذلك منهم لأنّها أساسا ليست (قرابينَ) وإنّما مجرّد مراءاة للنّاس ومخادعة للنّفس.

إنّ القرابين، حين تستحقّ وصفها، هي عبادة، منها ما هو كفّارة عن الذنوب والسيّئات، ومنها ما هو نَذر ومنها ما هو جزء من مراسيم العبادات كالحج، وهي في كلّ الأحوال ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [1]. فهذه القرابين من ذبائح وغيرها تقدّم للفقراء والمعوزين والمساكين والمحتاجين، كمظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي، والله غنِيّ عنها. وعلى الرغم من أنّها - حتّى لو

(1) سورة الحج 37.

كانت قرابين للمراءاة والخداع - ستقدّم لحومها للمحتاجين والفقراء والمساكين، فإنّ الله لا يتقبّل إلّا الطيّب منها، لأنّه يريدها أن تنبعث من نفس نقيّة، وأن تأتي من مال حلال، وإلّا فإنّ قبول القرابين غير المنبعثة من نقاء النفس والمال الحلال، سيشجّع على انتشار السوء والشرّ والعدوان، فيظهر من يقول لك انّه يسرق فتكون له سيئة واحدة، ثمّ يقدّم شيئا مِمّا سرق قرابين فيكون عمله مشمولا بقوله تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[1]. أو أن يظلم النّاس، تطفيفا في الميزان، أو أكلا للسحت الحرام، ثمّ يتظاهر بالتقرّب إلى الله بالقرابين خداعا للآخرين كي يواصل تعدّيه عليهم وظلمه لهم. والعبادات جميعا لن يتقبّلها الله إلا أن تكون نابعة من الضمير طواعية، وأن يتّصف صاحبها بما ألزمه الله به من قيم وتعاليم.

ونقف هنا عند مسألة جديرة بالبحث، هي ما قاله المفسّرون من نزول نار تحرق القربان الذي يتقبّله الله، على رأي الأكثرين منهم، أو تأكل القربان الذي لا يتقبّله الله على رأي فريق آخر. وقد اعتمد الفريق الأول على تفسير خاصّ به لِما جاء في الكتب السماويّة في هذا الموضوع، ومنه قوله تعالى، في القرآن الكريم: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾[2].

ألا يبدو غريبا أن يُرتَكَزَ على هذه الآية لتأكيد ما شاع من أنّه في فترة من الفترات كانت النار تنزل على القرابين التي يتقبّلها الله فتحرقها؟! فهل في الآية أدنى إشارة إلى ذلك؟! أليس في إحراق القرابين إلغاء لهدفها والغاية من تشريعها، ما دام لن يصل إلى الله لحومُها ولا دماؤها ولا أيّ شيء منها، وإنّما هي صورة من صور التعاطف والتكافل بين النّاس؟ فاذا احترقت فماذا يستفيد النّاس منها؟! والحق أنّ

(1) سورة الأنعام 160.

(2) سورة آل عمران 183.

الآية لا تتضمّن أيّ دليل على تلك الفكرة التي شاعت في كتب التفسير، وربّما ما زالت إلى الآن شائعة في بعض الأوساط.

كلّ ما في الآية الكريمة أنّ هناك من زعموا أنّ الله قد عهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتّى يأتيهم بقربانٍ تأكله النّار. وهو زعم باطل، فإنّ الله لم يعهد إليهم بذلك، فلا وجهَ للإقرار بأنّ ثمّة نارا تأكل هذا القربان ولا تأكل ذاك. بل هو ادّعاء كاذب قالوه على وجه التعجيز، لأنّهم يدرون أنْ ليس ثمّة نار تأكل قربانا وتدع غيره.

وأمّا جواب التنزيل العزيز لهم ﴿ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ ﴾ فهو يتضمّن الشهادة على إرسال الرسل إليهم، بالبيّنات، ولم تُذكَر القرابين والنار التي تأكلها.

وفي الوقت نفسه، فنحن لا نستطيع استخلاص هذا المعنى من: (وبالذي قلتم) ذلك لأنّ أولئك القوم كانوا يقولون إنّ مِن أنبيائهم مَن قدّم قُربانا فأكلته النّار فكان ذلك دليلا على صدق نبوّته، عندهم. ولكنْ، لو أنّهم كانوا صادقين في قولهم هذا فلماذا قتلوا أولئك الأنبياء، وهم بزعمهم، قد قدّموا قرابين أكلتها النار؟

ومن جهة أُخرى، فهم لم يقدّموا ما يسندون به دعواهم، كما أنّ التنزيل العزيز. لم يذكر في أيّ مورد من موارده وجودَ مثل ذلك الحدَث. وهو ما نستبينه بوضوح وجلاء في قصص الأنبياء جميعا، مِمّن نحن ذاكروهم في هذا الكتاب، ومِمّن لم نذكرهم أيضا.

إضافة إلى أنّ آخر الآية ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ يمثّل شهادة بليغة على أنّهم كاذبون في كلّ ما ادّعوه، كاذبون في أنّ الله قد عهد إليهم بذلك العهد المزعوم، وكاذبون في أنّ مِنْ أنبيائهم مَنْ فعل ذلك، وفي أنّ النّار قد أكلت قربانه. فالكذب هنا شامل لجميع ما ذكروه، وليس من مبرّر لجعله قاصرا على جانب من كلامهم دون آخر.

وهذه المسألة، وأعنِي بها مسألة النّار التي تأكل القربان، تناقض الغاية من القرابين. فالقربان، وهو كلّ ما يتقرّب به النّاس لربّهم، عملٌ من أعمال البرّ يوضع في خدمة النّاس، وليس له أيّ مبرّر لولا توفّر خمسة أمور فيه:

أ - أن يكون من مال حلال. وقد جاءت آيات عديدة تثبت ذلك، كقوله،

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧ ﴾ [1].

ب - أن يقدّم بطواعيةِ نفسٍ راضيةٍ وضميرٍ نقيّ.

ج - أن تكون النيّة فيه، حقّا وحقيقة، أنّه يُراد به وجه الله، تعالى. وعن هاتين النقطتين نذكر قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥ ﴾ [2].

د - أن يكون نافعا للنّاس. فلا معنى لقربان يحمل في تضاعيفه ضررا لهم، كأن يذبح خرافا أو أبقارا أو جِمالا أصابها وباء يضرّ من يتناول لحومها، معتبرا ذاك قياما منه بنَذر أو أضحية أو قربان.

هـ - أن لا تخالطه المُنّة والأذى. فإنّ مِنَ النّاس مَن يُحسن إلى غيره ثمّ يُتبع إحسانه مَنّاً وأذىً بحيث يُفقده مغزاه، فيُشعرُ مَن ادّعى الإحسانَ إليهم بالمذلّة والمهانة، ويخسر هو، من جرّاء ذلك، جزاءَ الإحسان. وعلى هذا المعنى جاءت آياتٌ عديدة في التنزيل العزيز، كقوله، تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢ ﴾ [3]. بل إنّ التنزيل العزيز ذهب إلى النّعي على مَن يُتبع إحسانه منّاً وأذىً للآخرين الذين أحسن إليهم، فتزول عن عمله صفة الإحسان: ﴿ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣ ﴾ [4] وتكون خسارته مضاعفة،

---

(1) سورة البقرة 267.

(2) سورة البقرة 265.

(3) سورة البقرة 262.

(4) سورة البقرة 263.

خسارة مال، وخسارة أجر وثواب كان يزعم أنّه يرجوهما، بل يتحوّل ذلك إلى ضرر يلحقه هو قبل غيره: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾[1]. والمَنّ والأذى يتّسع مداهما ليشمل أنواعا عديدة من السلوك على المرء أن يتوقّاها.

فلولا هذه الأمور الخمسة، لا يُعدّ القربانُ قربانا. فاذا زعم الزاعمون أنّ ثمّة نارا تأكل القرابين انتفى الهدف الأصيل الذي من أجله تمّ الحثّ على تقديم القرابين. وهو أن تكون لمصلحة النّاس. وإذا كانت لفظة (قربان) قد اختُصّت بمرور الأيّام بالذبائح، فإنّ معناها أعمّ وأشمل. فكلّ عمل يتقرّب به المرء إلى ربّه هو (قربان) وهو من القُرب أُخذ، أي من الرغبة في التقرّب إلى الله. ومن المعلوم أنّ من أوّليّات ذلك التقرّب خدمة النّاس ومساعدتهم، سواء عن طريق الإطعام، أم المساعدات الماديّة والعينيّة، أم عن طريق المشاريع الاقتصاديّة النافعة التي يشتغل فيها المحتاجون إلى عمل يعيشون منه، في الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها، وهذه أفضل أنواع القربات إلى الله، لأنّها هي التي ستوفّر للمحتاجين إمكانيّة اكتفائهم غذاءً وكساءً وسكَناً. أمّا الاكتفاء بالإطعام، أو بتوفير بعض المساعدات الماديّة والعينيّة فهو من الأهميّة بمكان لكنّه ليس بمغنٍ عن إقامة تلك المشاريع. كما أنّ العمل في حدّ ذاته هو (قربة) يتقرّب بها المرء إلى ربّه، ولا ننسى الحديث الشريف الذي يقول: (إنّ من الذنوب ذنوبا لا يكفّرها إلّا العمل) فاذا مَنّ المرءُ على الآخرين لأنّه يعمل من أجل أن يُعينهم أو يساعدهم أو يُعيلهم، خسر كثيرا من جزاء عمله. وقُل الشيء نفسَه في طلب العلم الذي هو واجب على جميع النّاس بحسب قدراتهم وما هم مؤهّلون إليه. فإنّ ثمّة من النّاس مَنْ يَمُنّ على أهله أو مجتمعه بعمله أو طلبه العلم، وكأنّه لا يعتبر ذلك واجبا عليه، وقربانا يتقرّب به إلى ربّه.

---

(1) سورة البقرة 264.

فمثل هذا الشخص يجب أن يعلم أنّ العمل عبادة، وأنّ طلب العلم عبادة، وأنّ القيام بكلّ واجب من الواجبات عبادة، وهي صور من القربان الذي يتقرّب به المرء إلى خالقه، فلا ينبغي أن يَمُنّ به على أحد، ولا أن يُلحق ذلك بأذى يصيب به الآخرين، سواء كان أذىً ماديّا أم أذىً نفسيّا.

فاذا ثبتَ لدينا أنّ هدف القربان هو هذا، وأنّ فكرة الإحراق تنافي ذلك الهدف، أدركنا أنّ إحراق القرابين لا أصل له. وإنّما هو مجرّد خيال أو افتراض لا دليلَ عليه.

وربّ متسائل يسأل: إذا لم تكن ثمّة نار تحرق (أو تأخذ) القربان المقبول، علامةً على قَبوله، فكيف عرف ابنا آدم أنّ أحدهما قد قُبل قربانه وأنّ الآخر لم يُقبَل منه قربانُه؟

ونحن، في الوقت الذي نؤمن أنْ لا بدّ من علامة على ذلك القبول، نتساءل: من يستطيع الجزم بأنّ النّار هي العلامة؟ خاصّة وقد علمنا أنّ الإحراق يناقض معنى القُربان لأنّها تُتْلفه فلا تبقى فيه منفعة للنّاس مِمّا يناقض جوهر القربان وهدفه، وأنّ التنزيل العزيز يخلو من أيّة إشارة إلى ذلك؟!

القرآن الكريم لا يحدّد الوسيلة التي عرف فيها هذان الأخَوان أنّ أحدهما قُبل قربانُه والآخر لم يقبَل منه قربانه. كما أنّه لم يحدّد وسيلة القبول أو عدم القبول في المواضع المشابهة، إذ لكلّ حالة وسيلتها، ويكفينا السياق للدلالة عليها، إن وجد التنزيل العزيز حاجة للتوضيح والبيان. ومنه ما جاء في قصّة إبراهيم الخليل ورؤيا ذبحه لابنه إسماعيل، فقد ورد النّصّ على الوسيلة التي عرف بها إبراهيم أنّ قربانه قد تُقُبّل منه، بنداء ربّه له، وبافتداء إسماعيل بذبح عظيم: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [1].

أمّا إذا لم تكن ثمّة حاجة للتوضيح والبيان فإنّ السياق يدلّ على ذلك، فلنقرأ

---

(1) سورة الصافّات 103 - 107.

قوله تعالى في قصّة مريم: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ ﴾[1]. هنا صرّح التنزيل العزيز بأنّ الله قد تقبّل مريم، ولكن النّص لا يتضمّن أيّة إشارة إلى أنّ امرأة عمرانَ قد عرفت بأنّ الله قد تقبّل قربانها هذا. ونحن أيضا ما كان لنا أن نعرف ذلك لولا سياق الكلام المتضمّن أنّ الله قد أنبتها نباتا حسَنا وكفّلها زكريّا.

وفي الآيةِ التي نتحدّث عنها، نجد السياق دالًّا على تقبّل قربان أحد الأخوين، وعدم تقبّله من الآخر، وقد صرّح الأوّل منهما ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾. فقد أدرك كلاهما الحالة، وعَلِماها بعلامة دالّة عليها، كأن تكون إيحاءً أو قولا من أبيهما آدم، أو علامة من العلامات، إلى آخر ما هناك من احتمالات لا عدّ لها ولا حصر، من غير أن تكون ثمّة حاجة للإحراق وإتلاف القربان وتفريغ مسألة القرابين من بُعدها الإنساني الاجتماعي. ولو صحّت نظريّة الإحراق، لاحترقت قرابين النّاس الخيّرين كافّة، سواء مَن ذُكر منهم في القرآن الكريم أم مَن لم يُذكر، وهذا ما لا يقول به عاقلٌ قطّ.

ثالثا: ابنا آدم هذان، إذن، قدّما قُربانَين، تقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتقبّل من الآخر، فاعترض بعض الكاتبين على هذه الحالة قائلا: لماذا هذا التمييز بينهما؟ لماذا تقبّل اللهُ قُربان أحدهما ولم يتقبّل من الآخر قربانَه؟

والجواب على هذا أنّ القرابين وسائر صور الإحسان لا تُقبل إلّا بتوفّر الشروط الخمسة السابقة الذكر، أي أن تكون قائمة على التقوى. ولَمّا لم يكن (قابيل) تقيًّا، لم يكن تقرّبه نقيًّا، وبالتالي لم يُقبَل منه. ومن أدلّة انعدام صفة التّقوى عنه أنّه هدّد أخاه بالقتل، لا لشيء إلّا غيرة من أخيه الذي قُبِلَ قُربانُه. وما كان

---

(1) سورة آل عمران 35 – 37.

أجدره أن يعود إلى سريرته يحسّنها والى نفسه يُصلحها، ويزيل عنها صدأ الغلّ والبغضاء والحسد، بدلا من القتل الذي جعله من النادمين الخاسرين. وهذا مَثَلٌ يضربه القرآن لتعليم النّاس ما يجب أن يكونوا عليه لكي تُقبَل قرابينهم وأعمالهم.

رابعا: أنّ الثاني تهدّد أخاه بالقتل، فلم يردّ عليه الأوّل إلا بقول يُثبت مبدأ من مبادئ الإسلام العامّة وقاعدة من قواعده الكلّيّة، بل هو أساسٌ من أسس الأديان السماويّة جميعا. ذلك أنّ الإنسان الجدير بصفته لا يمدّ يده إلى آخر ليقتله، سواء كان أخاه أم لم يكن، لأنّه يخاف الله ربّ العالمين. ولا نجد في تعاليم السّماء عقوبة أشدّ من تلك الموجّهة للعدوان والقتل.

وربّ سائل يتساءل: لماذا لم يجابه الأوّلُ الثانيَ بالتهديد أيضا، على جري العادة التي عليها النّاس؟!

نرى أنّ الجواب يكمن في الآية ذاتها، فالأوّل كان من المتّقين، وإنّه لَمِمّا يتنافى مع "التقوى" أن يلجأ المرء إلى التهديد بالقتل. ولأنّ الأوّل أراد أن يهديَ الثاني إلى طريق الرشاد، فذكّره بالله وعقوبته للقاتلين المفسدين في الأرض، وأنذره بمآله يوم القيامة، وأنّ القتل إثم، والعدوان إثم، ومصير مَن يرتكبهما عذاب الله.

ويبقى التساؤل المذكور آنفا، ذلك أنّ الله، تعالى، قد فوّض المرء حقّ الدفاع عن نفسه حين يقع عليه عدوان، وأنّه، إنْ قُتل دفاعا عنها وردّا للعدوان الموجّه ضدّها، فهو شهيد، فلماذا لم يُدافع (هابيل) عن نفسه؟!

ولجواب هذا السؤال، علينا أن نُقرّ بأنّنا لا ندري هل دافَعَ هابيل عن نفسه أم لا، فالقصّة لم تذكر ذلك. وكلّ الذي تذكره أنّ (قابيل) تهدّد أخاه بالقتل، وأنّ أخاه نصحه، وبيّن له أنّ القتل والعدوان ظلم وأنّ عاقبة ذلك ندمٌ في الحياة، وعذابٌ أليم في الآخرة. وأنّه لا يمدّ يده لأخيه كي يقتله، لأنّه يخاف الله ربّ العالَمين فكأنّه، حقّا (خافَ إيل) على ما بيّنّاه في سبب تسميته. ثم نحن نقرّ بأنّنا لا ندري كيف قتل قابيل أخاه، فربّما قتله غيلة وغدرا، وهو ما ذكره كثير من المفسّرين القدماء.

هذا من ناحية..

ومن ناحية أخرى، فإنّ القيم السامية تدعو إلى العفو ودفع السيّئة بالحسنة، وعدم إجابة التهديد بتهديد مثله. ومن ذلك قوله، تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ

فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [1]. فمِنَ النّاس مَنْ يردّ السيّئةَ بسيّئةٍ مثلها، وقد سمّاها التنزيل العزيز بـ(سيّئةٍ مثلها) فهي سيّئة على كلّ حال، ولكنّ المرء يُضطرّ إليها ردّا للسيّئة الأولى. أمّا إذا سَمَتْ نفسُه، فهو لا يردّ السيّئة بسيّئة مثلها وإنّما يعفو ويُصلح، وله أجرُه على ذلك، وقد وصف القرآن مآل هذه الحالة بقوله: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [2] وكثير مثل هذا.

فاختار (هابيل) هذا الطريق الثاني، نصح لأخيه، وأراد أن يعلّمه السلوك الحسَن، فقال له ما قال وبيّن له عاقبة القتل والعدوان، وأوضح له أنّه إذا قتله فسيبوءُ بإثم القتل إضافة إلى الآثام التي كان قابيل قد ارتكبها في حياته، وبالتالي فإنّ التساؤل عن السبب الذي جعل هابيل يريد لأخيه أن يَبوءَ بإثمهما وأن يكون من أصحاب النّار، بدلا من أن يريد له أن ينجوَ مِمّا هو فيه! يصبح غير ذي مغزى، لأنّ هابيل لم يكن يريد السوء لأخيه، وإنّما أراد أن يبيّن له ذلك السوء وأن يحذّره منه، وينبّهه إلى أنّ جزاء القتل عذابٌ عظيم. وأنّه (أي هابيل) لن يمدّ يده إلى أخيه ليقتله، لا عن عجزٍ منه، ولكن لأنّه يخاف الله ربّ العالَمين.

ونظرا لسموّ نفس (هابيل) فإنّه لم يقابل سيّئةَ أخيه بسيّئةٍ مثلِها، بل اكتفى بنصحه وإرشاده. ثمّ انّ (قابيل) وجد غرّةً من أخيه فقتله، وقد قيل أنّه قتله وهو نائم، فلم يكن هابيل في حالة تسمح له بالدفاع عن نفسه، وحتّى لو كان قد وجد تلك الفُرصة، فلا ندري ماذا كان سيصنع لأنّه تعهّد أنّه لن يمدّ يده لأخيه ليقتله.

خامسا: تفيدنا هذه الآيات الكريمة أنّ "الخير والشرّ" لا يُقاسان بالمقاييس المادّيّة. ففي تلك المقاييس يكون المقتول هو الخاسر، والقاتل هو الفائز الرابح. أمّا في مقاييس مبادئ الإسلام العامّة وقواعده الكلّيّة، وكذا في مقاييس الأديان السماويّة جميعا، بل وحتّى القوانين الوضعيّة، فإنّ المعتدي الظالم هو الخاسر، وهو سيدفع ثمن عدوانه عاجلا أم آجلا، وأنّ المعتدَى عليه المظلوم هو الفائز، لأنّه

---

(1) سورة الشورى 40.

(2) سورة الرعد 22.

انتقل إلى رحمة الله حيث سينال عُقبى الظّلم الذي وقع عليه.

سادسا: أنّ الندم هو النتيجة الحتميّة للعدوان والقتل، حتّى إذا كان المعتدي القاتل يخدّر نفسه، ويحاول إقناعها بأنّه غير نادم على فعلته. وهنا يأتي ذكر (الغراب) الذي علّم القاتل (كيف يواري سَوأة أخيه)، فمن الغراب الذي يتشاءم منه بعض النّاس تعلّم القاتل كيف يواري سوأة أخيه، وأحسّ أنّه أعجز من ذلك الغراب، وأقلّ إدراكا وفهما منه، وأنّ عقله وتفكيره متناهيان في الصِّغَر والضآلة، ولولا ذلك لما كان معتديا قاتلا. أمّا انّه هل كان هناك غراب واحد، أم غرابان قتل أحدهما الآخر؟ فمسألة ثانويّة لا مسوّغ للتشاغل بها. ولكنّ وجود الغراب في القصّة وقيامه بتعليم القاتل كيف يواري سوأة أخيه، إشارة إلى أنّ الحادثة وقعت لابنَي آدم صلبيةً وأنّها أوّل جريمة في التاريخ، إذ لم يكن القاتل يعرف كيف يدفن أخاه. ولذا فمن الصعب أن نقتنع بأنّ الحادثة وقعت لأخوَين من بنِي إسرائيل، لأنّ النّاس في عصر بنِي إسرائيل كانوا يعرفون كيف يدفنون موتاهم.

أمّا التساؤل عن المقصود بـ(سوأة أخيه) وهل السوأة الجثّة كلّها أم المقصود عورة أخيه؟ فالواضح أنّ المقصود الجثّة كلّها، وإنّما ذُكرت السوأة الدالّة على العورة لزيادة بشاعة الصورة وثِقَل الجريمة على كاهل القاتل. وإلّا فمِن غير المعقول أنّ القاتل يريد أن يواريَ سوأة أخيه لا جثّته كلّها. وهذا بابٌ في البلاغة معروف بتسمية الكلّ باسم جزء منه، لغرض بلاغيّ وبيانيّ، هو هنا زيادةُ بشاعة القتل وحَملُ النّاس على الاشمئزاز منه، والنفور عَمّن يرتكبه.

سابعا: وكان من جرّاء هذه الحادثة في التاريخ الكشف عن مبدأ أساس من مبادئ الأديان، وقاعدة كلّيّة من قواعدها أنّ الذي يعتدي على غيره ويقتله، فكأنه قتل الناس جميعا. وأنّ من (أحيا) نفسا فكأنّما أحيا الناس جميعا. وهي قاعدة لا تختصّ بقوم دون قوم ولا بدين دون دين، بل هي عامّة شاملة لكلّ النّاس. أمّا قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ فلا يفيد أكثر من أنّ هذا الحكم قد كُتب على بنِي إسرائيل، من غير أن يظهر ما يفيد أنّه أُلغي بعد ذلك، بل على العكس تماما، حيث ثُبّت في نصوص التنزيل العزيز ومنه

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (1) وقوله (إلّا بالحقّ) إشارة إلى القصاص، مع إتاحة الفُرصة للعفو وأخذ الدية تقديسا للذات البشريّة وحماية لها من القتل: ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ﴾ (2)، على تفصيلات موضّحة في آيات التنزل العزيز والأحاديث النبويّة الشريفة.

أمّا القتل العمد فقد جعله التنزيل العزيز بمثابة قتل النّاس جميعا، كما في هذه الآية، وكما نستخلصه من قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (3). فهذا التخويف والتشديد دالّ على المعنى نفسه الذي دلّت عليه قصّة ابنَي آدم. وذلك كي يعلم النّاس أنّ قتل فرد واحد ظلما وعدوانا لا يقلّ بشاعة عن قتل النّاس جميعا. فالمرء حين يعرف أنّه إنْ قتل آخر ظلما وعدوانا فكأنّه قتل النّاس جميعا، سيدرك أن كلمة (النّاس جميعا) تشمل أهله وأحبابه مِمّن يضنّ بهم على القتل، كما عليه ألّا يتخيّل أنّ قتل فرد واحد، هو قتلٌ لذلك الفرد الواحد فحسب، وإنّما هو قتلٌ للنّاس جميعا، بِمَن فيهم مَن يعزّ عليه منهم، فربّما، لو فهم ذلك، لانتهى عن ممارسته.

ونظر بعضهم في قوله (ومَن أحياها فكأنّما أحيا النّاس جميعا) فتساءل: كيف يحيي المرء نفسا؟! ثمّ كيف يكون إحياء الفرد الواحد إحياءً للنّاس جميعا؟ ومن البديهي أنّه ليس في يد أيّ فرد الإماتة والإحياء، ولكنّ الاستعمال هنا مجازيّ، بمعنى أنّ المرء حين يقتل أحدا عدوانا وظلما، فكأنّه قتل الناس جميعا، وأمّا من عفا عن عدوّه أو عمّن يتصوّر أنّه عدوّه، وهو قادر على قتله والانتقام منه، فكأنّه أحياه، وكأنّه أحيا الناس جميعا بذلك. وهذا مَثَلٌ يهدف إلى تعظيم أمر إحياء الفرد الواحد، فمِنَ النّاس من قد يتماهل في ذلك الإحياء أو لا يلتفت إليه، معتبرا أنّها

---

(1) سورة الأنعام 151.

(2) سورة النّساء 92.

(3) سورة النّساء 93.

قضيّة تمسّ شخصا واحدا، فهي قضيّة هيّنة لا تستحقّ اهتماما كبيرا. فينبّهه التنزيل العزيز إلى أنّ إحياء الفرد الواحد ليس من الأمور الهيّنة كما يتخيّل، لأنّ إحياء الفرد الواحد إحياء للنّاس جميعا.

ونعتقد أنّ هذا الحكم أكسب هذه الحادثة صفتها التاريخيّة، ونقلها من حادثة وقعت بين أخوَين بغى أحدهما على الآخر فقتله، إلى تقريرٍ شاملٍ يعمّ النّاس جميعا في كلّ الأزمان والأماكن، تحريم العدوان والقتل. ذلك التحريم المتمثّل في ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾.

أمّا عن معنى الإحياء وحدوده فإنّ الإحياء لا يقتصر على ما ذكرناه من عفو عن عدوّ أو ارتداع عن قتله، بل (الإحياء) عامّ شامل في كلّ ما ينفع النّاس: ويمنع عنهم غائلة الجوع والحرمان والفاقة، ويخفف عنهم أثقال الحياة، ويساعدهم على التطور والتقدم:

* فالإحسان إلى مَن يحتاج إلى الإحسان، من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وفي الرقاب، إحياء لهم.

* وكدّ المرء على أفراد عائلته ومَن يعولهم إحياء لهم.

* وتحرير رقبة مؤمنة إحياء لها.

* والمشاركة في تأسيس المستشفيات ومراكز العلاج وتوفير الأدوية، إحياء للمرضى الذين قد يموتون نتيجة عدم وجود مستشفيات وعلاجات.

* وتأسيس المدارس والجامعات على أسس علمية إحياء للنّاس لأنّها تقدّم لهم العلم الذي يساعدهم على تطوير حياتهم وتقدّمها ورفعتها.

* والدعوة إلى السلام والأمن إحياء للنّاس كافّة.

* والعمل من أجل تحقيق تلك الدعوة إحياء للناس جميعا لأنّها تدفع عنهم غائلة الحروب والقتل والتدمير المتبادَل.

* وإقامة علاقات حوار مع (الآخر) أيّا كان، إحياء للنّاس لأنّها تطوّر (التعارف) بين الشعوب والأمم وتزيل الحسّاسيّات بينها.

* والحرص على وحدة المجتمع ورصّ الصفوف إحياء للنّاس لأنّ تلك

الوحدة تعمّق فيهم مشاعر الألفة والتعاون والمحبّة فيعملون من أجل مستقبل أفضل لهم وللآخرين.

* وإحياء الأرض الموات، إحياء لها وللنّاس الذين سيستفيدون من غلّتها وإنتاجها.

* واستنباط الماء من العيون والينابيع إحياء للنّاس، إذ يوفّر لهم الريّ، ريّ أنفسهم وريّ مزروعاتهم وسقي حيواناتهم، ولا ننسى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[1].

وهكذا قُل في جميع جوانب الحياة، لا في العصر الحديث فحسب، بل في جميع العصور والأزمان.

هذا هو الصراع الأول الذي نشأ على سطح الأرض. ولا شكّ أنّ أيّة نّهضة إنسانيّة حقيقيّة تبدأ من القيَم التي أرادت هذه القصّة تثبيتها في نفوس النّاس وعقولهم وضمائرهم. فالقتل والعدوان ينافيان، تماما، معنى الإنسانيّة، ولا يمثّلان إلّا الخضوع للغرائز الهابطة التي تُفقد الإنسان إنسانيّته في حالة سيطرتها عليه، وتوجيهها لسلوكه، بحيث لا يقف في وجهه أيّ وازع يمنعه عن ارتكاب جريمة القتل، حتّى لو كان الضحيّة أخاه أو أباه أو ابنه، أو أيّا كان من النّاس الذين حرّم الله قتلهم.

ولذلك فالإسلام الذي يحثّ أتباعه على بناء الحضارة والمدنيّة والتقدّم بطواعيته للتلاؤم مع الظروف المستجدّة المتجدّدة كلّ حين، لم يبنِ كيانه على القتل والتدمير، ولا على الغلوّ في فهم مسائله وقضاياه، وإنما أراد لذاته أن تكون (دعوة) للتعارف والتآلف بين البشر، مهما اختلفت القناعات والإرادات والمواقف. ﴿ مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ مع التعليل الضروري لهذا الموقف ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. ولا مجال هنا للقول أن الطرف الأول الذي تهدّد أخاه ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ هو

(1) سورة الأنبياء 30.

الذي فاز نتيجة الموقف الذي اتّخذه الثاني ﴿ مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيۡكَ ﴾ ذلك أن الخسران الحقيقي ﴿ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِى وَإِثۡمِكَ ﴾ ولذا فان القاتل لم يهنأ بما فعل ﴿ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾.

فالقاتل صار الخاسر، وأما المقتول ظلما فشهيد مجّده القرآن الكريم ومجّد موقفه، وعدّه موقفا إنسانيا نبيلا.

مرحلة الطوفان

تمثّل نهاية قصّة النبيّ نوح، عليه السّلام، نهاية الأمّة الأولى وبداية الأمّة الثانية، أو الخلق الثانِي للعالم. فالخلق الأوّل بدأ بخلق آدم وهبوطه من الجنّة. ثم تمضي الأعوام والقرون بمقدار لا يعلمه إلّا الله، ويعمّ الفسادُ الأرض، فلم يبق مناصٌ من تطهيرها، بطوفان هائل يغيّر تركيبة الأرض ويعيد خلق النّاس من جديد، بِمن نجا مع نوح في سفينته.

وقد ذكر التنزيل العزيز قصّة نوح وطوفانه وسفينته في مواضع عديدة، هي:

* **من سورة الأعراف 59 - 64.**
* **من سورة يونس 71 - 73.**
* **من سورة هود 25 - 49.**
* **من سورة الأنبياء 76 - 77.**
* **من سورة "المؤمنون" 23 - 30.**
* **من سورة الشعراء 105 - 122.**
* **من سورة العنكبوت 14 - 15.**
* **من سورة الصافات 75 - 82.**
* **من سورة القمر 9 - 17.**
* **سورة نوح كلّها.**

ولن نذكر، هنا، جميع تلك المواضع، بل سنكتفي بذكر سورة نوح، إرادة للإيجاز ولأنّ ما فيها تلخيص للمواضع الأخرى، وتوضيح لها، كما أننا سنتحدث عن المواضع الأخرى باستيفاء. ونلاحظ مثل هذا في قصّة النبيّ يوسف الذي جاءت سورة واحدة تخصصت لبيان كل الظروف التي مرت به.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾

قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾.

تكشف قصّة النبيّ نوح، عليه السّلام، عن المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للدّين الذي جاء به، في سياق الحديث عمّا جرى بينه وبين قومه وصولا إلى الطوفان الذي يبدو لنا، من النّصّ القرآني والكشوف الأثريّة، أنّه لم يكن مقتصرا على منطقة معيّنة، ولم يكن مثل الطوفانات المعروفة أبدا، فقد غيّر وجه الكرة الأرضيّة، ولا نستبعد أنّ انزياح القارّات إلى تشكيلها المعروف اليوم كان من أثر

الطوفان. ومِمّا يدفعنا لاعتناق هذه الرّؤية أكثر فأكثر الصّفات الواردة لذلك الطوفان في القرآن الكريم.

وكيفما يكن الأمر، فإنّ الأسس التي دعا إليها النّبيُّ نوح، هي:

1 – ترك عبادة الأصنام والأوثان وغيرها من الآلهة المزعومة التي كانوا يعبدونها كالحيوان والنجوم والشمس وغيرها، وبدلا من ذلك عليهم أن يعبدوا الله وحده: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾[1].

2 – ومن المعلوم أنّ هذا المبدأ يعنِي أنّ ترك عبادة الأصنام، سواء من قِبَلِ قوم نوح أم من قِبَلِ غيرهم من الأقوام، تؤدّي إلى انهيار فئة كهنة الأصنام وسدَنَة الأوثان الذين كانوا يستغلّون النّاس باسم الآلهة، ويحقّقون لأنفسهم مغانم كثيرة من وراء ذلك.

3 – ومن المعلوم أيضا أنّ عبادة الله تعنِي أن تكون العلاقة بين الإنسان وربّه علاقة مباشرة لا استغلال فيها ولا وسطاء.

4 – ولَمّا كانت عبادة الأصنام ابتعاد عن تحقيق إعمار الأرض بالقسط والعدل والبناء والتشييد الموظّف لخدمة الإنسان نفسه، فقد أراد نوح لقومه مستوى آخر من الحياة، أرادهم أحرارا، لا يمتنعون إلّا عمّا حرّمه عليهم ربّهم من عدوان وظلم لأنفسهم وللآخرين. هذا كلّ ما أراده نوح ولكنّ المنتفعين من الأصنام، والمخدوعين بهم، رفضوا دعوته: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾[2] إذ لم يجدوا ما يردّون به دعوته إلّا ذلك الاتّهام، أنّه في ضلال مبين من غير أنْ يبيّنوا ما وجه ذلك الضَّلال، إن كان هناك ضلال، كما يزعمون. وهذا هو شأن العاجزين عن الدّفاع عن أباطيلهم، في كلّ زمان ومكان، فيتّخذون من الاتّهامات يقذفونها في وجوه الآخرين، وسيلة يخالونها تغطّي عجزهم وخواءهم، متناسين أنّ الحقّ أبلج

---

(1) سورة الأعراف 59.

(2) سورة الأعراف 60.

والباطل لجلج.

5 - الحوار بالتي هي أحسن، والصَّبر عليه. فالنّبيّ نوح، وعلى الرّغم من عناد قومه وسخريتهم منه ومِمّن اتّبعه، حاورهم وصبر لا على إقذاعهم في كلامهم فحسب، ولكن أيضا، على استهزائهم وسخريتهم وأذاهم. ولم نسمع أنّه لجأ إلى غير الصَّبر والحوار معهم بالحسنَى رغبة في تأليف قلوبهم، لا من أجل منفعة ذاتيّة. وهذا هو شأن المصلحين الحقيقيين في كلّ الأزمنة والأمكنة:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [1].

6 - أنّ الهدف النّهائي من وراء دين نوح أن يحظى قومه بالرّحمة وتيسير شؤون حياتهم، وأنْ ينالوا سعادة دنياهم وأُخْراهُمْ. فهذا هو هدف الأنبياء جميعا وهدف رسالاتهم، من ناحية، وهذه معارضة المعاندين لهم في كلّ زمان ومكان، من ناحية أُخرى. فكأنّهم أرادوا لأنفسهم الهلاك.

7 - ولَمّا كانت تلك إرادتُهم فإنّ هلاكهم لم يكن ظُلما لهم، بل هو نتيجة أعمالهم، بناء على سنّة الله في الكون والحياة والتي مثّلها قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [2]. وبتطبيق هذه السّنّة الإلهيّة العامّة لكلّ الأقوام على قوم نوح تظهر نتيجة مواقفهم: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [3].

8 - لا يجوز لنبيّ أن يتراجع عمّا بدأه من قَبول تبليغ الرّسالة السّماويّة، كما لا يجوز له أن يبدأ القوم بالقتال، بل أن ينصحهم ويحذّرهم، وله أن يتحدّاهم بأنْ يُهلكوه إن استطاعوا. فنظرا للمدّة الطويلة التي قضاها نوح في دعوتهم ولا يجد

(1) سورة الأعراف 61 - 63.

(2) سورة الرّوم 44.

(3) سورة الأعراف 64.

منهم إلّا الإعراض والأذى، تعدّدت حواراته معهم، حتّى إذا اعتقد أنّهم لن يستجيبوا له قال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ (1).

9 - وثمّة مبدأ آخر أظهره نوح وسائر الأنبياء، أنّهم لا يَسعَون، من وراء دعواتهم، إلى مغنم ولا إلى مال وإنّما هدفهم الإصلاح فحسب، والإصلاح بالنّصح والتوجيه والإرشاد بالكلمة الطيّبة مهما بلغ عنادُ القوم. وهذا ما طلبه منهم نوح لأنّه لن يتراجع عمّا يريده لهم من خير وعزّ وسؤدد، أما وقد رفضوا، فليعلموا أنّهم لن يضرّوه شيئا فهو لم يهدف من وراء دعوته إلى مال ولا إلى مغنم على ما جاء في الآية 72 من سورة يونس: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

10 - وتكشف سورة **هود** عن مبادئ أخرى، وقواعد جديدة تمثّل خاتمة مطاف هذه القصّة القرآنيّة الهادفة إلى بيان أهمّية الصّبر على الأذى والنّصح بالكلام الهيّن اللّيّن في التوعية والدّعوة للخير.

فقد جابهه قومه أنّ من أسباب رفضهم لدعوته أنّه بشر مثلهم، وأنّ الذين اتّبعوه هم ضعفاؤهم. وذلك لأنّهم أخذتهم العزّة بقوّتهم وعلوّهم في الأرض ورأوا أنّ من غير المقبول لديهم أنْ يُطِيعوا رجلا لم يكن بقوّتهم، كما وجدوا أنّ من المستحيل عليهم أن يساووا أولئك الضعفاء في الإيمان بما يدعوهم إليه نوح:

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (2).

---

(1) سورة يونس 71.

(2) سورة هود 27.

11 - وعلى الرَّغم من ذلك، فإنّ نوحا أخبرهم بأنّه لا يملك حقّ إكراههم على الإيمان بما جاءهم به، مع يقينه بأنّه على بيّنة من ربّه:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[1] مبيّنا لهم أنّه ليس لديه مصلحة شخصيّة، لذلك فهو يرفض الاستجابة لشروطهم التي وضعوها كي يؤمنوا به.

12 - ومن البديهيّ أنّ تلك الشّروط تناقض المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للأديان، بما فيها الدّين الذي جاء به نوح، وخاصّة طرد ضعفاء القوم، أو أن يخبرهم عن الغيب، أو أن يعطيهم خزائن الله، أو أن يُثبت لهم أنّه مَلَكٌ من الملائكة، وهي الأمور التي طالبوه بها كي يُثبت أنّه مُرْسَل من الله: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[2].

13 - ونستنتج من هذه الآية أيضا مبدأ عامّا وقاعدة كلّيّة أخرى، هي أنّ منزلة الإنسان عند الله لا تعتمد على هيئته ولا على ما يملك، حتّى إنْ كان مِنَ الذين يُعامَلون بازدراء لفقرهم أو رثاثة هيئتهم.

وقد جاء هذا المعنى في عدد من آيات القرآن الكريم، كما في الآيات من 1 إلى 6 من سورة (عَبَسَ): ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ ﴾ حتّى إنّ السّورة كلّها سُمّيت باسم الفعل (عَبَسَ) لأنّ فيها إعراضا عن أعمى، واهتماما بـ(مَن استغنَى).

---

(1) سورة هود 28.

(2) سورة هود 29 - 31.

وأخيرا تَحَدّوهُ، وبدلا من أن يبحثوا عن مستقبل أفضل لهم ولأولادهم، طلبوا منه أن يُنزل بهم العذاب والعقاب إنْ كان من الصّادقين: ﴿ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدۡ جَـٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1]. فأكّدوا حماقتهم وعدم تقدير العواقب، ولولا تلك الحماقة لطلبوا منه مثلا أنّه إذا كان صادقا فليدعو ربّه كي يهديهم، ولكنّ المتتبّع لأخبار الأنبياء والأمم عبر التاريخ يعلم أنّ مثل هذا الطلب لا يصدر إلّا من أُناس لديهم استعداد حقيقيّ للهداية، وإنّما يحجزهم عنها عدم اقتناعهم بالأدلّة التي يسوقها إليهم نبيّهم. أمّا هؤلاء فلم يكن لديهم استعداد حقيقيّ للهداية لأنّهم لا يريدون التخلّي عن مواصلة سلوكهم المضادّ للفطرة الإنسانيّة السّليمة.

14 - وهنا مبدأ آخر تكشف عنه قصّة نوح مع قومه، أنّ الإنسان مسؤول عن سلوكه وسيلاقي نتيجة ذلك السلوك، سواء رضي أم أبَى. فعلى الرّغم من كلّ الأذى الذي لاقاه نوح من قومه، وطول المدّة التي ظلّ فيها يدعوهم لِما ينفعهم ويحقّق لهم السّعادة والأمن والطمأنينة، أبَوا إلّا أن يظلّوا على ما هم عليه من ضلال، يستعبد قويُّهم ضعيفَهم، ويسيطر كهنة الأصنام وسَدَنَة الأوثان على حياتهم ويوجّهونها الوجهة التي تحقّق لهم المزيد من استغلال البسطاء الذين لم يكونوا يملكون وعيا يساعدهم على تفهّم أهداف نوح ورسالته. وبذلك وصلوا إلى مرحلة لم يعد أمامهم، فيها، إلّا أن يحلّ بهم عقابُ الله.

15 - ومِمّا نستخلصه من هذه القصّة من مبادئ عامّة وقواعد كلّيّة أن العقاب نتيجة العناد والعصيان، ليس بيد أحد من الخلق، بل هو بيد الله، تعالى، وحده. لذا حينما تحدّاه قومه أن ينزل عليهم عذاب الله وعقابه، واتّهموه بالكذب، أخبرهم أنّ العذاب والعقاب ليس بيده، وانّه إنّما يريد نصحهم لما فيه خيرهم وسعادتهم، ولكنّهم لا يحبّون النّاصحين: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ

(1) سورة هود 32.

تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ كما جاء في **سورة هود 33 - 34**. فأمْرُهم موكولٌ إلى الله تعالى.

16 - ونستنتج من الآية السّابقة وبخاصّة ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ ﴾ معنى عميقا يمثّل مبدأ عامّا في الأديان جميعا سبق أن لحظناه في قصّة الخلق الأوّل وسيظلّ في الأديان اللاحقة كافّة. تلك هي العلاقة بين الحتم الإلهيّ والحريّة الإنسانيّة. فقد تساءل بعض الكتّاب أنّه ما دام الله يريد أن يُغويهم، وما دامت إرادته نافذة سائدة، فتُصبح غوايتهم محتومة عليهم لا يملكون أن يغيّروها أو يبدّلوها، فلماذا، إذن، يُتعب نوح نفسَه، علما أنّ ذلك التعب لن يصل بهم إلى الهداية؟! بل لماذا نزلت الأديان كافة، ما دام المرء عاجزا عن اتباعها إن كان مِمّن كُتبت عليه الضّلالة؟!

لقد سبق أن أشرنا إلى شيء من جواب مثل هذا السّؤال حين عرضنا للمبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي استنبطناها من قصّة الخلق الأوّل وقصّة أوّل جريمة قتل في التاريخ. فالذي نراه أنّ هؤلاء القوم وصلوا إلى أقصى درجات العناد والتكبّر ومارسوا أقسى درجات العدوان، بحيث لم يعودوا يستحقون الهداية فهم لا يريدونها ولا يقدرون عليها، إذ تَيَبَّسَت مشاعرهم، وتحنّطت أحاسيسهم، وسيطر عليهم الجهل المركّب، وذلك أنّ الجاهل يمكن أن يتعلّم، أمّا الجاهل الذي يعتقد بأنّه عالِم فمن المستحيل أن يتعلّم، وهذا هو الجهل المركّب.

والقوم حين يصلون إلى هذه الحالة، فإنّ الله تعالى يعلم أنّهم لن يهتدوا، وأنّ السَّبيل الوحيد المتبقّي لهم أن يمعنوا في الغواية والضَّلال. وبحسب قوانين الحياة، وسنن الله في الكون، يجد النّاسُ، مَن اهتدى منهم ومَن كان على ضلال، ما يساعده على الإمعان في النّهج الذي ارتضاه، وأهّل نفسه له. ولَمّا كان هؤلاء قد وصلوا إلى تلك الدّرجة القاصية من التعصّب لِمُرتأياتهم، فإنّهم وجدوا مِنْ نِعَمِ اللهِ التي تعمّ المؤمن والكافر ما يمدّ لهم في غيّهم وضلالهم، متناسين دروس التاريخ التي تؤكّد أنّ الإصرار على الضَّلال يُهْلِك الآخذين به، وهو ما يعبّر عنه القرآن بصيغ متعدّدة، منها أنّ الله، تعالى، يمدّهم في ضلالهم: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ

يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1]. ذلك أنّ الله وضع القوانين التي يسير الكون والحياة والإنسان بموجبها، وتلك القوانين تتّسع لِما يختاره المرء. ومصداق ذلك قوله، تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾[2]. أي لم يكن عطاء ربّك ممنوعا عن أحد. فكلّ إنسان يناله شيء من عطاء ربّه، ثمّ هو الذي يستعمل ذلك العطاء في الوجه الذي ارتضاه، وهو في خاتمة المطاف يتلقّى نتيجة عمله، إن عمل خيرا نال خيرا، وإنْ عمل شرّا نال شرّا. وما مهمّة الأنبياء إلّا توضيح طريق الخير، ونُصح النّاس وإرشادهم لِما فيه خيرُهم، وتحذيرهم من مغبّة السُّوء وسلوك طريق الشّرّ، لأنّ هذا الطريق ذو عواقب وخيمة عليهم وعلى النّاس جميعا.

17 - وهنا مبدأ عامّ آخر، وقاعدة كلّيّة أخرى، نتعرّف عليها من فهمنا للآية السّابقة: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ ذلك أنّ السّعي للآخرة يختلف عن طلب الآخرة، حيث جاء قبل هذا ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ فهنا (يريد) العاجلة فحسب، من غير أن يُذكر معها (وسعى لها سعيها) أمّا مع الآخرة فلا بدّ من (السّعي) بمعنى أنّ طلب الآخرة لوحده لا يكفي، بل يجب أن تمتزج تلك الإرادة بالسّعي لها، وهذا السّعيُ لا يعنِي الانقطاع عن الحياة أو الانعزال عنها، بل، انّه يعنِي عكس ذلك تماما. ولو تدبّرنا آيات التنزيل العزيز حقّ تدبّرها، لوجدناها تحثّ الإنسان على السّعي في مناكب الأرض، والاستفادة من زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرّزق، ولوجدناها تحثّ على طلب العلم وأداء العمل، ولوجدناها تعتبر الحياة قيمة مقدّسة لا يجوز التفريط فيها، ولذا

---

(1) سورة البقرة 15.

(2) سورة الإسراء 18 - 20.

حرّمت الرّسالاتُ السّماويّة القتل، سواء كان قتل النّفس أم قتل الأولاد خشية الإملاق، أم قتل الآخرين، وسواء كان هذا القتل ماديّا عن طريق سلب الحياة نفسها ظلما وعدوانا وانتحارا، أم معنويّا كتشويه سمعة الآخرين وتسقيطهم، والإساءة إليهم، واغتيابهم، واتّهامهم بما هم أبرياء منه، ولذا حُرّمت الغيبة والنَّميمة والكذب والنّفاق والاتّهامات الباطلة وشهادة الزُّور وجميع أنواع الإساءة للذات أو للآخرين، وبالجملة فقد حُرّم كلّ ما يُعدّ قتلا معنويّا لِمَن يُوَجّه ضدّه.

18 - وحتّى مع وصول القوم إلى المرحلة النّهائيّة التي لا يجدون فيها إلّا العقاب، فثمّة باب مفتوح للتوبة والعودة إلى طريق الخير. لذلك فإنّ الله يرسل الرُّسل والأنبياء كي لا يبقى عذر لِمَن سلك طريق السُّوء والشّرّ، مع علمه المسبَق بأنّ السّالك لذلك الطريق والممعن في سلوكه، سيظلّ سادرا في طريق الغواية والضَّلال. وفي القرآن العزيز الكثير من الآيات التي تؤدّي هذا المعنى، كقوله، تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ (1) وقوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ ﴾ (2).

19 - وبذلك فإنّ الغواية صارت محتومة على قوم نوح نتيجة سلوكهم الذي وصل إلى أقصى درجات الانحطاط والتخلّف النّفسي وموت الضمير. فكلّ نهاية تنبثق من بدايتها. وبذلك صار مَثَلُهم كمثل الذين يصفهم تعالى بقوله: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (3). أي أنّهم لا يستجيبون للحقّ لأنّهم آثروا ما يكسبون من مال حرام على السّير في طريق الخير. فالمرء إنْ أخذ نفسه بالطريقة المثلَى وهي الطريقة الوسطى التي لا إفراط فيها ولا تفريط، وضع نفسه على بداية طريق الخير، ومَن أخذ نفسَه بالإفراط والتفريط، غلوّا وتعصّبا أو تكاسلا وتجاهلا وتماهلا وإفسادا في الأرض، بكلّ ما في هذا الإفساد مِن معنى، وضع نفسه على

(1) سورة النّساء 165.

(2) سورة المائدة 49.

(3) سورة المطففين 14.

بداية طريق الشّرّ والآثام. ثمّ إنّ كلّ طريق يقود السّالكين فيه إلى نتيجتهم المحتّمة التي ينتهي إليها ذلك الطريق، إلّا إذا حدث أنْ يغيّر بعض السّالكين لهذا الطريق أو ذاك من نفسيّاتهم وسلوكهم، فينتقلون إلى الطريق الآخر ويصلون إلى خاتمته.

هكذا كان قوم نوح الذي ظلّ يدعوهم ألف سنة إلّا خمسين عاما، فلم يزدهم دعاؤه إلّا فرارا من الحق. وحينما بلغ الإنذار نهايته، ولم يعد ثمّة احتمالٌ لهدايةِ أيٍّ من هؤلاء المعاندين المصرّين على ضلالهم، أوحى الله إلى نوح ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [1].

ويُلفت نظرنا هنا آخر النّصّ السّابق، حيث ينهى الله نوحا أنّ يخاطبه في الذين ظلموا، أي أنْ لا يطلب من الله الرّأفة بهم. إذ إنّه على الرّغم من تطاول الأمد الذي قضاه نوح وهو يدعوهم لما يُحييهم، وعلى الرّغم من كثرة الأذى الذي ناله، وسخرية قومه منه ومِمّن تبعه، فإنّه يريد أن يدعو الله أن يرأف بهم، حتّى إذا نهاه الله عن ذلك، كان له موقف آخر هو دعاؤه أن لا يَذَر اللهُ على الأرض من الكافرين ديّارا لأنّهم يُضِلّون عباد الله ولا يلدون إلّا فاجرا كفّارا. وهكذا استمرّت الأحوال إلى أن حُمّ القضاء فأمر الله نوحا أن يصنع الفُلك [2]. ثمّ حمل نوح معه في سفينته القلّة التي آمنت به ومن المخلوقات الأخرى من كلّ زوجين اثنين وأهله، إلّا من حقّ عليه الهلاك. فكان في ذلك منجاةٌ لهم، وأمّا الباقون فأُغرقوا بسوء أعمالهم وشدّة عنادهم وإمعانهم في تعصّبهم.

ويصوّر التنزيل العزيز على لسان نوح صورة أخّاذة تجسّد مدى عنادهم وتعصّبهم:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟

(1) سورة هود 36 - 37.

(2) سورة هود 38 - 39

وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝ ﴾[1].

فلمّا كانوا قد آثروا السّير في الطريق الذي أهّلتهم له رغباتُهم وأطماعهم، فإنّ من الطبيعي أنّهم سيظلّون سائرين فيه، وتلك سنّة من سُنن الله في الكون والحياة والإنسان، ولذا لم يعد هناك مجالٌ لأن يهتدوا.

20 - لقد أُمر نوح أن يصنع السّفينة لا أنْ ينتظر سفينة من السّماء. لأنّ سنّة الله في الكون والحياة والإنسان تُلزم الإنسان بأن يعمل ويجدّ ويكدح ويصبر على الأذى والعناء والتعب كي ينال ما يتمنّاه، ويعينه الله على ذلك. فأمّا الكسول المتواني المتخاذل عن العمل فلن يجد له من الله عونا ولا سندا.

21 - وثمّة مبدأ عامّ آخر هو أنّ الله قادر على أن يهدي النّاس جميعا من غير حاجة إلى الرّسل والأنبياء، ولكنّه، على الرّغم من تلك القدرة، منح الإنسان السُّنَنَ التي تساعده في تحديد مصيره: ﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝ ﴾[2] ومثلها ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ ﴾[3]. والآيات في هذا المعنى وافرة لمن تدبّر في القرآن الكريم.

22 - لا اعتمادَ على النَّسب: هذا مبدأ صرّح به القرآن، ونراه متجسّدا في المبادئ العامّة لدين النّبيّ نوح الذي هلك ابنه مع الهالكين ولم ينفعه كونه ابن نبيّ. فقد تخيّل أنّه سيلجأ إلى جبل يعصمه من الماء، على الرّغم من أن أباه قد نهاه أن يكون مع الكافرين ونبّهه إلى أنّه لا عاصم اليوم من أمر الله: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ۝ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ

(1) سورة نوح 5 - 7.

(2) سورة القيامة 14.

(3) سورة النّجم 39.

وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [1].

هنا، تتجلّى عاطفة الأبوّة، ذلك الشّعور المغروس في أعماق الإنسان، منذ أقدم الأزمنة وإلى الآن، حبلٌ مشدودٌ يربط الأجيال بعضها ببعض، تراه يتجلّى مرّة باستغفار إبراهيم الخليل لأبيه، وتراه مرّة في تعلّق نوح بابنه، ودعائه ربّه أن ينجيه من الغرق كالذي جاء في الآيات 45 - 47 من سورة هود: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

انتهى الطوفان ونجا المحسنون وهلك الذين حقّ عليهم العقاب: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [2].

23 - ويضع الدّين الذي جاء به نوح مبدأ عامّا وقاعدة كلّيّة هي أنّ أولئك القوم، لو لم يكونوا ظالمين، لَما حلّ عليهم العقاب: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [3]. وهذا يؤكّد ما جاء في المبادئ التي كشفت عنها قصّة الخلق، بعد أن ارتكب آدم وزوجه ما ارتكبا، مِمّا جاء في الآيتَين 38 - 39 من سورة البقرة.

24 - كما نستخلص من قصّة نوح، وعلى وجه الخصوص ما جاء في سورة

(1) سورة هود 42 - 44.

(2) الشّعراء 119 - 122.

(3) العنكبوت 14 - 15.

الصّافّات [1] مبدأ سبقت الإشارة إليه بإجمال في الدّين الأوّل الذي تلقّاه آدم، وهو عظمة الجزاء الذي يلقاه المحسنون نتيجة إحسانهم، وبشاعة العقاب الذي ينال المسيئين بما كسبت أيديهم من الإثم والعدوان. وكذلك النّعي على الذين يتعصّبون لآرائهم وأهواء نفوسهم وما أَلِفوه من السّابقين، وذلك قوله، تعالى، في الآيتين 69 - 70 **من سورة الصّافّات:** ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠ ﴾. فلولا ذلك التعصّب لِما وجدوا آباءهم عليه وهو الذي أفضى بهم إلى الضّلال، لَما حاق بهم العذاب.

25 - عبادة الله والتقوى وطاعة الأنبياء: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ ﴾ [2]. هنا مكمن الأمر كلّه، حيث ينكشف مبدأ آخر وقاعدة أخرى للأديان، إذ إنّ العبادات لا تعنِي الفروض العباديّة كالصّلاة والدّعاء والإنفاق في سبيل الخير وما إليها، فحسب، بل هي تشمل كلّ السُّلُوك الإنساني في الحياة الخاصّة والعامّة، ولذا لم يكتفِ نوحٌ بأن طلب منهم عبادة الله، بل أضاف (وأطيعوني) لئلا يتبادر إلى أذهانهم أنّ المطلوب منهم طقوس معيّنة يؤدّونها، مكتفين بها، ثمّ لهم بعد ذلك أن يمارسوا ما عهدوه من عادات وتقاليد وسلوك سيئ في حياتهم الخاصّة وفي علاقتهم مع الآخرين. ولا ريب أنّ قوم نوح قد أدركوا تماما، وعبر نقاشات متطاولة جرت بينهم وبين نوح، ما يريد نبيّهم منهم، فشعروا بأنّ دعوته تغييرٌ شامل لأوضاعهم المتخلّفة التي ورثوها وألَزموا أنفسهم بالتأقلم معها. وإلى جانبهم قلّة قليلة من الواعين الذين استجابوا لدعوته. وهذه القلّة القليلة التي استجابت له، شملها قوله تعالى، في السّياق نفسه: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾ [3].

26 - الصّبر على الأذى، وعدم اليأس من إرشاد القوم ونُصحهم ودعوتهم

---

(1) الصافات 75 - 82.

(2) سورة نوح 3.

(3) سورة نوح 4.

إلى طريق الخير بِما يستجيب له مَن أراد لنفسه ولغيره الخير والسّعادة. حيث يُلفت نظرنا في السّورة أن نوحا خاطب ربّه بما فعله مع قومه، وأعلن، على رؤوس الملأ، ردود أفعالهم وما جابهوه به [1]. فقد دعاهم سرّا وعلانية، وأنبأهم أنّ الله غفور رحيم، وأنّهم إن تابوا عن شرورهم، وأنابوا إلى بارئهم، فإنّ الله سيغفر لهم من ذنوبهم، ويمدّ لهم في حياتهم إلى أجل هم بالغوه كما هو شأن من سبقهم ومن سيعقبهم، فكلّ حيّ إلى زوال ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [2]. ولكنّ كلّ جهوده ذهبت أدراج الرّياح، باستثناء أثرها في القلّة القليلة التي آمنت به. أمّا الآخرون فإنّهم لم يكونوا يطيقون مجرّد سماع ما يقول، واضعين أصابعهم في آذانهم مستغشين ثيابهم. وذلك للتعبير عن مدى عنادهم وتعصّبهم والجهل المستحوذ عليهم. فالإنسان السّويّ يستمع إلى الآراء المختلفة، وإنْ كانت تعارض قناعاته ومتبنياته، وتكون له القدرة على التمييز بين الصّدق والكذب، بين الحق والباطل، بين إخلاص مَن يقول لِما يقول وعدم إخلاصه. ثمّ عليه أن يتّبع أحسن ما يسمع. وتلك صفة الإنسان الواثق من نفسه ومن قدراته ومن كونه يطلب الحقّ. أمّا مَنْ لم يكن يتمتّع بتلك الصّفات فليس أمامه إلا أنْ يجعل أصابعه في أذنيه، ويستغشي ثيابه، حتّى لا يسمع ما يُقال ولا يرى مَن يقول.

27 - الاستغفار واحد من المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي جاءت بها الأديان، ومنها دين نوح، حيث كان مِمّا طالبهم به، أن يستغفروا ربّهم كي يزيد في خيراتهم، ويمدّهم بالمال والأولاد ويوسّع عليهم بالرّزق والخيرات، ويمتّعهم بجمال الطبيعة ونقاء البيئة التي فيها يعيشون: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [3].

(1) انظر: سورة نوح 5 - 9.
(2) سورة الرّحمن 27.
(3) سورة نوح 10 - 12.

28 - وثمّة ملحوظة تشكلّ الإطار العامّ لقصّة نوح، وتكشف عن واحد من المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي تشترك فيها جميع الأديان. وهي أن نوحا لم يعاقب أحدا من النّاس مهما كان عنادهم له ورفضهم لدعوته، بل اكتفى بالتذكير والنّصيحة والإرشاد والتوعية، وهو شأن الأنبياء جميعا. ونثير الانتباه، هنا، إلى أنّه حين قيل له أنّ الذين اتّبعوه هم أراذل القوم، أجابهم بأنّه لا يعلم بما كانوا يعملون، وإنّما أمرهم إلى ربّهم. فليس له، حتّى مع كونه نبيّا، أن يفتّش في ضمائر النّاس، ولا أن ينتقم منهم، سواء آمنوا به أم لم يؤمنوا. ولا يتناقض هذا مع دعائه لربّه أن يُهلك الكافرين، ذلك أنّ الله قد توعّد الكافرين بالهلاك من قبل دعاء نوح ومن بعد دعائه. أمّا نوح، نفسُه، فليس له، بعد أداء رسالة ربّه، غير ذلك الدّعاء، فإمّا أن يهتدوا وإمّا أن يُهلكهم الله.

مرحلة التأسيس الثاني للعالَم
أوّل أمّة بعد الطوفان

* من سورة الأعراف:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

* من سورة هود:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ

بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾.

*** من سورة (المؤمنون) بعد ذكر قصّة نوح:**

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١)﴾.

*** من سورة الشعراء، وبعد ذكر قوم نوح أيضا:**

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا

تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

* **من سورة فُصّلت، بعد ذِكْر شيء من نِعَم الله وآلائه وأفضاله على النّاس، لحثّهم على الإيمان بالله، فإن أعرضوا:**

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

* **من سورة الأحقاف:**

﴿ ۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

* من سورة القمر:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٢١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٢٢ ﴾.

* وذُكرت بعض المعاني السابقة عن عاد في سورة الذاريات 41 - 42، وسورة النجم 50 - 55، وسورة الحاقة 6 - 8، وسورة الفجر 6 - 14.

كما أُشير إلى عاد في سورة براءة، وسورة إبراهيم، وسورة الفرقان، وسورة العنكبوت، وسورة ص، وسورة ق.

****

حينما تستحيل القوّة ضَعفاً

كما أنّ قابيل كان أقوى من هابيل، فقتل القويُّ الضعيف، وصار من الخاسرين..

وكما أن قوم نوح أخذتهم العزّة بالإثم، وبطغيان أقويائهم على ضعفائهم، فوصفوهم بالأراذل وضعفاء الرأي، فآلوا إلى الهلاك والخسران.. فكذلك عادٌ قومُ هودٍ، أصرّوا على الاستعلاء في الأرض، وأخذوا النّاس بالبطش والطغيان، فآل أمرهم إلى الخسران والهلاك، مع اختلاف في كيفيّة الهلاك والخسران. وتلك طبيعة الأمور.

ولذلك خاطب النّبيّ هود قومَه بِما خاطب نوح قومَه، وبالألفاظ ذاتها، ثمّ ذكّرهم ببعض ما يصنعون:

- فقد كانوا يبنون في كل مكان بناءات لا فائدة لها ولا هدف من ورائها، بل هي عبث بالترف الذي ابتلاهم الله به.
- ويتّخذون القلاع الضخمة انطلاقا من فكرة أنّها تخلدهم.
- وأنّهم كانوا، إذا بطشوا بالآخرين، بطشوا جبّارين، أي بقسوة وفظاظة وعنف متجاوز لكل الحدود.

ثمّ دعاهم إلى التّقوى، وإلى الإيمان بالله الذي أمدَّهم بكل وسائل القوّة، من الأنعام والبنين، والجنّات وعيون الماء. ذلك لأنّه (يخاف) عليهم عذاب يوم القيامة. كما ذكرت الآية الثالثة من السّورة بشأن النّبيّ وقومه.

فأجابه قومه أنّهم لن يستجيبوا له، وأنّهم إنّما يتّبعون مَن سبقهم في كل عاداتهم وسلوكهم. وهم واثقون أنّهم لن يُعذَّبوا. ولذلك اتّهموه بالكذب، فأهلكهم الله.

كانوا أقوياء، غرّتهم قوّتهم، ورفضوا أن يغذّوها بالقيم السامية، بل ظلّوا

خانعين لِما وجدوا عليه آباءهم ولتلك القيم المنبثقة من الخضوع للأصنام والأوثان وسَدَنتها. وحين لم يوفّر كبراؤهم العدل ولم يحقّقوا الأمن والطمأنينة للنّاس، خسروا ما كانوا قد تعبوا في تشييده وبنائه، لأنّ العدل أساس المُلك، فاذا ذهب العدل ذهبت القوة واستحالت ضعفا، وحينذاك لن تنفع القوّة شيئا في مواجهة قوانين التاريخ، وطبائع الأشياء التي هي سُنن الله، تعالى، في الكون والحياة والإنسان. تلك السّنن التي تطلب من الناس أن يتعاملوا فيما بينهم بالمودّة والمحبّة والتعاون، لا بالكراهية والسخط والحسد والتنافر:

* فالعلاقة بين الحكومات ومواطنيها، مثلا، بحاجة إلى التعاون والتضامّ والتلازم، لتحقيق مصلحة البلاد وأهلها كالجسد الواحد إذا تألّم منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسّهر والحمّى.

* والأواصر العائليّة بحاجة إلى التفهّم والتفاهم والتضحية، فعلاقة الأبناء بالآباء بحاجة إلى تفاعل طاعة الأولاد وحبّ الآباء لهم، وعلاقة الأبوين فيما بينهما بحاجة إلى المودّة والرحمة والاحترام المتبادل والتعاون على ظروف العيش.

* والعلاقة بين الأقارب بحاجة إلى صلة الرَّحِم، تلك الصلة التي شاء الله أن تكون من أولويّات صفات الإنسان.

* والعلاقات مع الجيران والأصدقاء بحاجة إلى التكافل والعناية والنّزاهة، وأن يُعين الجارُ جارَه، والصديقُ صديقَه، وأن يتفقّد كلٌّ منهم الآخر، وأن يحافظ على كتمان ما يطّلع عليه من أمور لا يحبّ الجارُ أو الصديق أن تشيع عنه.

* والعلاقة بين الأساتذة وطلّابهم في جميع مراحل التعليم بحاجة إلى إخلاص الأساتذة في عملهم، وحبّ طلّابهم لهم واتّباع توجيهاتهم وإرشاداتهم.

* وعلاقة الطبيب بمرضاه بحاجة إلى أن ينمّي حذقه وقدرته وعلمه وأن يكون هدفُه إنقاذَ مرضاه مِمّا هم فيه، وأن يلتزم بالمشاركة في تطوير الوضع الصحّي في بلده على الأقل.

* وعلاقة العاملين مع أرباب العمل بحاجة إلى الإخلاص في العمل، والالتزام بما ألزموا أنفسهم به من عقود، وأن يعتبروا هذا العمل الذي عُهد إليهم بمثابة الأمانة التي يجب عليهم أداؤها على أفضل صورة ممكنة.

* وعلاقة أرباب العمل مع العاملين بحاجة إلى أداء حقوقهم على أساس العدل والعطف وتطبيق قوانين العمل المرعيّة، وأن يأخذوهم باللّطف واللّين، إلّا إذا كان ثمّة خرقٌ للقانون، فيتدخّل القانون، حينئذ، لاستحصال الحقّ مِمّن عليه الحقّ. وليعيده لصاحبه الذي هو أحقّ به.

* وعلاقة الرجل بالمرأة بحاجة إلى الاحترام المتبادَل وأن ينظر كلّ طرف إلى الآخر على أنّه إنسان كامل الإنسانيّة، له حقوق وعليه حقوق. ولَمّا كانت المرأة في بعض المجتمعات ما زالت دونَ الرجل في حقوقها وواجباتها، صار لزاما على الرجل، في تلك المجتمعات، أن يتفهّم تفهّما كاملا لحقيقة أنّ المرأة، سواء كانت أمّا أم أختا أم بنتا أم زوجا أم زميلة عمل أو دراسة، فإنّها مسؤولة عن ذاتها بكامل الأهليّة، وأنّ لها دورها الاجتماعي، داخل الأسرة وخارجها، ولا يضيرها بشيء أنّها امرأة لا رجل. ولقد نصّت شرائع السماء على هذه الحقيقة، وجعلت كُلًّا من الرجل والمرأة مسؤولا مسؤولية مباشرة عن سلوكه وتصرفاته، اعترافا بأهليّة الطرفين وإنسانيّتهما.

* وعلاقة المرء بنفسه بحاجة إلى الصدق ومواجهة الحقيقة، وأن يكرّر المرء النظر في نواياه وسلوكه فيصحّح ما هو بحاجة إلى التصحيح، ويُلزم نفسَه بسلوك الطريق القويم المستقيم فيما يعود عليه وعلى الآخرين بالنفع والصلاح. وثمّة قاعدة معروفة في جميع الأديان، مفادها (حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا). وحتّى خارج إطار الأديان السماويّة فإنّ القوانين (الإنسانية) جميعا، ومنذ عهد حمورابي وإلى اليوم، تُلزم الإنسان بمراقبة نفسه وسلوكه، وتأمره بأن يبتعد عن الشرّ والعدوان.

* وعلاقة الأسوياء المتمتّعين بالصحّة والعافية مع المعوّقين أو ذوي الحاجات الخاصّة بحاجة إلى التكافل والعناية والعطف لا السخرية والاستهزاء منهم بسبب إعاقاتهم. فكلّ واحد من هؤلاء المعوّقين إنسان له حقّ الإنسانيّة والعَيش بسلام وأمان مع سائر أبناء المجتمع.

* وعلاقة الأغنياء بالفقراء بحاجة إلى أن يبذل الأغنياء من أموالهم التي هم مستَخلَفون فيها ما يقيم أَوَد الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، وليس ذلك فحسب، بل إنّ تلك العلاقة بحاجة إلى أن يقيم القادرون مشاريع ثقافيّة وتعليميّة وتأهيليّة، وكذلك عليهم إقامة مؤسسات اقتصاديّة من زراعيّة وصناعيّة وتجاريّة كي يشتغل

فيها مَن لم يجد عملا من أبناء المجتمع، فتنسدّ بذلك أبواب البغضاء والحسد والحاجة والفاقة، فكلّ امرئ مسؤول، مسؤوليّة مباشرة أو غير مباشرة، عمّا يصيب الآخرين، كما أنّه سيناله جزء من ذلك، إنْ خيرا فخيرٌ، وإن شرّا وسوءا فشرّ وسوء.

ومن جانب آخر، فتلك العلاقة بحاجة أيضا، إلى أن يبذل الفقير جهده لتحسين وضعه، وألّا ينظر إلى مَن آتاه الله من فضله بعين الحسد والريبة وتمنّي زوال النّعمة عنه، أو حلول النّقمة به. وعليه أن يفهم أنّ واجبه أن يفتّش عن الرزق في خبايا الأرض، وأن لا يرتضي لنفسه أن يعيش كَلّاً على الآخرين، أو أن يتطفّل على غيره، وألّا يستغلّ إحسانَ مَن يُحسن إليه متّكلاً على ذلك الإحسان ومعتمدا عليه. لأنّ هذا الإحسان قد ينقطع في لحظة من اللّحظات، فماذا سيفعل حينذاك؟ هذا إضافة إلى ما اتّفق عليه البشر جميعا من أنّ اليدَ العُليا خيرٌ من اليد السُّفلَى، فاليد العُليا هي التي تُعطي الإحسان واليد السّفلَى هي التي تأخذ الإحسان، خاصّة إذا كان ذلك الأخذ لغير ما ضرورة قصوى، بل للتواني عن البحث عن عمل، أو التكبّر على عمل ما، بحجّة أنّه غير لائق. فالعمل واجب لا مناصَ عن القيام به، ولا مهرب من أدائه، وهذا ما أجمعت عليه شرائع السماء والأرض كافّة، وتَوافَقَ عليه عقلاء النّاس.

* وعلاقات الدول فيما بينها بحاجة إلى التعاون المشترك والتنسيق بحسب حاجات مواطني تلك الدول. وبحسب مصالح العالَم بأسره، وبموجب ما صار العالَم إليه من اتّفاق على أنماط العلاقات بين الدول. أمّا التقوقع داخل شرنقة العزلة، والابتعاد عن العالَم بهذه الحجّة أو تلك، فحُكم على النّفس بالانتحار المحرّم شرعا وعُرفا.

* والعلاقة بين المجتمعات بحاجة إلى التشاور والتعاون والتعارف والتآلف لِما فيه خير الجميع. فالنّاس لآدم وآدم من تراب، وإنّما خلق الله النّاس شعوبا وقبائل وأمما ليتعارفوا وليتشاوروا في اختيار أفضل السبل المفضية بالبشريّة إلى التقدّم والازدهار والأمن والاطمئنان.

* والعلاقة بين الإنسان والبيئة بحاجة إلى أن يعمل ذلك الإنسان على نقائها، فهو جزء منها، يصيبه ما أصابها، يُسعَد بنقائها، ويَمرض ويذوي بتلوّثها.

إلى غير ذلك من احتياجات الحياة كي تستقيم الأمور وتسير بصورة طبيعيّة

توفّر السعادة والأمن والطمأنينة والعلم والصحّة للنّاس، وتحقّق لهم آمالهم والممكن من أحلامهم وتطلّعاتهم، إذ لتلك الغايات كان الخلق، أي للإنسان وبالإنسان، والله غنيّ عن العالَمين.

ذلك هو مفهوم الأخلاق الذي أخذ به الإسلام وسائر الأديان، وتلك هي بعضٌ من غاياتها السامية. وبذلك المفهوم وتلك الغايات تنمو الحضارة، وتتألّق صورها في تطوّر المجتمعات، وتنبثق عنها حياة سعيدة هانئة مطمئنة. وإذا كانت تواريخ الأمم تُثبت هذه الحقائق وغيرها، فإنّ قصّة عاد تضع أمامنا تجربة غنيّة بالعِبَر والعظات، نستعيد، هنا، بعض آفاقها لأنّها تبعث فينا الوعي بأمور شتّى، وتفتح أبصارنا وبصائرنا على جوهر المعنى الإنساني الذي يجب أن يصبح نسغ الحضارة ولبّ لبابها، وأسّ أساساتها. وما هدف القصص القرآني إلّا استفادة الأجيال من تجارب الماضين، وتبيين الغايات وكيفيّة تحقيق الآمال بتوعية النّاس بما يجب أن يأخذوا به أنفسهم، من الإعمار والبناء، في القوّة الماديّة والقوّة المعنويّة، وأن يتعاونوا من أجل الخير الذي أطلق عليه التنزيل العزيز: البرَّ والتقوى، أيّا كانت اختلافات المفسّرين والمؤرّخين بشأن أحداث التاريخ عموما، وتاريخ عادٍ على وجه الخصوص.

فهناك في منطقة الأحقاف التي كانت تشكل الامتداد الطبيعي لجنوب الجزيرة العربية باتجاه الشّرق، ازدهرت حضارة من حضارات العالم القديم، امتازت بالقوّة والتقدّم العمراني، ولكنّ أهلها استغلّوا تلك القوّة للعلوّ في الأرض والإفساد فيها عن طريق الغلبة الظالمة والبطش الشديد، وساعدهم على ذلك أنّهم كانوا على درجة عالية من التطوّر المادي. فإضافة إلى القوة العسكريّة ابتنوا مدنا متّسعة الأرجاء متشعّبة الأنحاء صارت مضرب المثل على مرّ العصور، وأبرزها مدينة "إرم ذات العماد" التي جعلها الله مثلا، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ

عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝﴾ [1]. فقَرَنهم بالظالمين الذين سعوا في الأرض فسادا وطغيانا فحلّ بساحتهم العذاب، وسقطت حضاراتهم، حيث لم يُغنِ التطوّر المادّي عن الانهيار شيئا، لأنّ ذلك التطوّر المادّي لم يصاحبه بُعد أخلاقي إنساني، والحضارة، عادة، لا تواصل نموّها إلا بالبُعدَين، البُعد المادّي والقيم الإنسانيّة.

ولا ريب أنّهم كانت لهم مدنٌ أخرى قد لا تضاهي (إرم) في الجمال والسعة والترف، ولكنّها، بطبيعة الأشياء، كانت مدنا مزدهرة عامرة. ولَمّا كان ذلك الازدهار المادّي لوحده، لا يحقق رسالة الخلق، خاصّة وأنّه مصحوب بالظلم والعدوان. ظهر النبيّ هود ليصحح لهم مسارهم من أجل أن تستمر حضارتهم بالازدهار الحقيقي. غير أنهم اختاروا طريقا آخر. إذ انّهم لما رأوا أنفسهم قد وصلوا إلى ذرى من التقدم المادي عالية جدا، نبذوا القيم السامية، فصار غنِيّهم يظلم فقيرهم، وصار قويّهم يستعبد ضعيفهم، وكثير منهم مشركون، فازدادوا غرورا بقوتهم، حتّى إذا جاء هود ينصحهم بترك ما هم عليه من ضلال، ويدعوهم إلى إثراء تطورهم المادي بالقيم الروحية والمعايير الإنسانيّة كي تدوم لهم تلك النّعم التي أسبغها الله عليهم، وكي يزيدهم قوة إلى قوتهم وقدرة إلى قدرتهم.. رفضوا دعوته وفضّلوا البقاء على شركهم وضلالهم وظلمهم وطغيانهم، فانتهى دورهم الحضاري وصاروا درسا للأجيال اللاحقة.

وتتضح لنا هذه المعاني مما ذكره القرآن الكريم بوضوح، من غير أن نجد حاجة للخلافات التي نشأت بين القدماء، في تفصيلات ثانويّة لا أهمية لها. فالعبرة هي المقصودة من جميع قصص القرآن.

تذكر **سورة الأعراف** أنّ الله قد أرسل هودا إلى قومه (عاد) فدعاهم إلى الإيمان بالله وحده. وقد سبق أن بيّنّا أنّ الدعوة إلى التوحيد تستبطن الأخذ بالقيم التي يسمو بها الإنسان، ويحقّق بها سبب الخلق ورسالته في إعمار الأرض حقّ العمران. فالإعمار ليس في البناء والطرق والقناطر والجسور وسائر صور التنمية

---

(1) سورة الفجر 6 - 14.

المادية، فحسب، بل، أيضا، في التنمية الروحية المرتكزة على القِيَم الهادفة إلى إعمار النفس وإحياء الضمير، وخاصّة في تعامل المرء مع نفسه ومع الآخرين: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[1].

ونتبين من هذه الآيات أنّ القوم كذّبوه حسدا من عند أنفسهم، لأنّه واحد منهم فاستكثروا عليه النبوّة، وهذا شأن سائر الأمم التي قصّ التنزيل العزيز قصصهم. وعلى الرغم من تكذيبهم المتواصل، وعنادهم وتعصّبهم، وأذاهم المستمر لهود ومن آمن به، لم يدخر هودٌ وسعا في نصحهم وإرشادهم بالتي هي أحسن، رغبة في تألّف قلوبهم، واستمالة مشاعرهم.

فأثار انتباههم إلى القوّة التي منحها الله لهم، وأنّه هو الذي جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وزادهم بسطة في الجسم والعلم. غير أنّهم، ونظرا لغلبة الغرور عليهم، أبوا أن يصدّقوه، باستثناء نفر منهم أدركوا الحقيقة فاتّبعوها، وهؤلاء هم الذين كُتبت لهم النجاة مع هود، وارتحلوا إلى مواطن أخرى ليستمر تاريخ البشر، وتكتمل حلقات التطوّر والتغيّر.

---

(1) سورة الأعراف 65 - 72.

ومن البيّن أنّهم أوّل قوم من بعد الطوفان، فإضافة إلى الأدلّة التي تقدّمها لنا الكشوف الأثريّة ودراسات التاريخ وعلم الأجناس البشريّة، فإنّ التنزيل العزيز ذكر هذه الحقيقة بقوله: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾[1]. فلو كان ثمّة قوم آخرون قبلهم لَما جاء هذا النّصّ الواضح الذي يؤكّد أنّ حضارتهم كانت أولى الحضارات البشريّة بعد الخلق الثاني للعالَم.

ويدلّنا هذا على المكان الذي رست فيه سفينة نوح، إذ لا شكّ أنّ ظهور أوّل قوم بعد نوح في بلاد الشحر، دالّ على أنّ السفينة التي حملتهم إنّما رست في مكان ما من تلك البلاد، حيث نزل النّاس وسائر الأحياء الذين كانوا في السفينة، فأقام النّاس لهم مدنا وشقّوا لهم طرقا، واستفادوا من النباتات والحيوانات التي كانت معهم، غرسوا النبات ودجّنوا من الحيوان ما كان قابلا للتدجين، أمّا ما لم يستطيعوا تدجينه فقد أصبح "متوحّشا". والتوحّش في اللّغة هو البُعد عن النّاس والعمران، فتلك الحيوانات التي لم يقدر النّاس على تدجينها "توحّشت" عنهم أي هربت إلى الغابات والأماكن الأخرى، حتّى لا يلحق بها النّاس، لأنّ طبيعتها عصيّة على التدجين. وظلّ الصراع دائرا بين النّاس وتلك الحيوانات إلى عصرنا الحاضر.

وفي المنطقة التي رست فيها السفينة أقام النّاس أسس حضارتهم التي سيظهر فيها النبيّ هود، بعد فترة طويلة من الزمن. وفي أثناء ذلك انتقل منهم مَن انتقل إلى أرجاء أخرى من الأرض. ولا شكّ في أنّ المرحلة بين بداية الخلق الثاني وظهور النبيّ هود، مرحلة طويلة، إذ إنّ القصّة القرآنيّة تبدأ في الفترة الأخيرة من حضارة عاد حيث كانوا قد بلغوا القمّة في التطوّر المادّيّ. ولَمّا كانت حضارتهم خالية من بُعدها الأخلاقي الإنساني، فإنّ تلك القمّة هي النّهاية التي لا يمكن أن تواصل بعدها تلك الحضارة ارتفاعها وتطوّرها. ولا شكّ، أيضا، في أنّ النّاس في تلك المرحلة الطويلة التي استغرقوها ما بين نزولهم من السفينة ووصولهم إلى تلك القمّة من التطوّر المادّي، قد انتقل منهم مَن انتقل ليسكن مناطق أخرى، قد تكون مجاورة

---

(1) سورة الأعراف 69.

لتلك الديار التي رست فيها السفينة، أو بعيدة عنها نوعاً ما، إذ انّ تكاثر النّاس في تلك المدّة الطويلة التي احتاجتها حضارتهم لتنمو وتتقدّم ولتصل إلى المستوى الذي أهّلها لتأسيس مدينة مثل "إرم"، سيفرض عليهم البحث عن ديار جديدة يسكنونها، ويواصلون حياتهم بها، ناقلين إليها القيم والتقاليد والعادات التي ألفوها في ديارهم القديمة.

وقد قيل أنّ النبيّ هودا ظهر في إرم ذات العماد أو في بلاد الشحر، وأنّه ظلّ هناك، وأنّ إهلاك عاد لم يكن إلّا في إرم ذات العِماد. فأمّا أنّ إهلاك عادٍ كان في إرَم ذات العِماد فحسب، فأمر لا دليلَ عليه، ذلك لأنّ الأنبياء يظهرون في مدينة معيّنة، ولكنّ رسالتهم تعمّ القوم كلّهم، وقد تتجاوزهم حيث يُرادُ لها أن تعمّ العالَم بأسره. فمن الحالة الأولى نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولاً ﴾[1]. ومن الحالة الثانية نقرأ قوله، تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[2]. وكان أن أُرسلَ هودٌ لعاد، وظهر في عاصمتهم، أو القرية الأمّ بحسب التعبير القرآني، وهي "إرمَ ذات العماد"، ولكنّ رسالته كانت تعمّ القومَ كلّهم، فالهلاك الذي نزل بهم، شمل المعاندين منهم كافّة، أينما كانوا. وكذلك الذين آمنوا به، سواء كانوا معه في المدينة التي ظهر فيها، أم هاجروا إليه بعد أن سمعوا بدعوته، كما حدث في تاريخ الأديان الأخرى، وخاصّة في ظهور الإسلام، حيث هاجر النّاس إلى المدينة المنوّرة وعاشوا مع المسلمين ثمّ عاد فريق منهم إلى ديارهم حين توفّر لهم فيها الأمن والاطمئنان.

لقد كان قوم هود مقتنعين بما وجدوا أنفسهم فيه، وما توارثوه من الشرك وقيم الشرك، فظلوا خانعين لكهنة الأصنام وسدنتها، وظلوا متعصّبين لِما ورثوه رافضين تغييره حتّى لو استبان لهم أنّ الخير في ذلك التغيير. وهذه الظاهرة نطالعها في جميع قصص الأمم والأنبياء في التنزيل العزيز. فكثير من الأقوام يرفضون أن يتركوا ما

---

(1) سورة القصص 59.

(2) سورة الأنبياء 107.

وجدوا آباءهم عليه، وأن يأخذوا بالجديد النّافع لهم ولأبنائهم وأحفادهم وهؤلاء هم الذين خاطبهم القرآن بقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[1]. بل نعتقد أنّ هذه الظاهرة متواصلة إلى اليوم لدى بعض النّاس، الذين يتشدّدون على أنفسهم وعلى الآخرين، ربّما بحسن نيّة، فكأنّهم يريدون إعادة عقارب الزمن إلى الوراء، وحمل النّاس على ما أراد فريق من الأقدمين حملَ النّاس عليه بالإجبار والإقسار، من لباس أو طعام، أو استخدام أدوات، أو غير ذلك، على الرغم من أنّ ذلك الإجبار والإقسار لم يرد بهما نصّ من قرآن أو حديث نبويّ. متناسين أنّ لكلّ زمن ظروفه وعاداته مع الأخذ بالأسس العامّة والقواعد الكليّة التي تؤمّن للأجيال مهما اختلف زمانها ومكانها وسائل ضبط المسيرة الاجتماعيّة إلى الأمام، نحو الخير العميم، والطمأنينة، على الضّدّ مِمّا وصل إليه تشدّد بعض أهل هذا الزّمان وجمودهم على ما ارتآه المتعصبون المتشددون من الأقدمين وما اتّخذوه من رؤى ومواقف جعلتهم يحرّمون على النّاس طيّبات أُحلّت لهم، وزينات قدّمتها الحضارة المعاصرة نفعت النّاس وما زالت تنفعهم. وكمثال على ذلك نتساءل: هل من عاقل يقبل تحريم استعمال الهاتِف (التلفون) على النّساء بحجّة أنّ لفظه مذكّر ولا يجوز استعمالهنّ له؟ ألا يذكّرنا هذا بتحريم الراديو والتلفزيون في أوّل ظهورهما. وربّما ما زال أبناء هذا الجيل يتذكّرون أنّ من النّاس مَن حرّم افتتاح المدارس ورآها ضارّة بالمجتمع. بل إنّا لنرى اليوم من يُفتي بتحريم ما لا دليل على تحريمه.

ولكنْ، وعلى الرّغم من أنّ القدماء عاشوا في ظروف غير ظروفنا، فقد ظهر بينهم مَن تفهّم منطق الحياة، ومعنى الحديث الشريف: (النّاس أدرى بشؤون دنياهم) فلم يشأ أن يسقط في هوّة ذلك الغلوّ. فكم نحن متخلّفون لا عن عصرنا هذا فحسب، بل حتّى عن تلك العصور القديمة!

(1) سورة البقرة 170.

الحضارة تفاعل المادّة والروح

في سورة هود، يؤكد هود لقومه أنّه لا طمع له ولا مآرب شخصيّة، ولا يطالبهم بأجر عمّا يقوم به من عمل وعناء، وبيّن لهم أنّ كل غايته وهدفه أن يتطّوروا إلى ما هو أفضل، بإصلاح شؤون دنياهم، كي تزدهر حضارتُهم ازدهارا حقيقيّ، وكي تصلح شؤون آخرتهم. أي أن يكونوا سعداء في هذه الحياة وفي الحياة الآخرة. ولكنّ غرورهم بقوّتهم أوردهم موارد الهلاك، وتلك سنّة الله في الكون. فالمادّة لوحدها لا تبنِي الحضارة، وهل هناك طائر يطير بجناح واحد؟!

ولو لم تكن دعوته خالصة لمصلحتهم، أو لو كانت من أجل خداعهم، لطالبهم بأجر عمّا يفعله، وعن الجهود التي يبذلها، والعناء الذي يتكبّده. ولكن، لَمّا كان هدفه إيصال رسالة السماء، وتذكير النّاس بأنّهم مخلوقون لهدف إعمار الأرض بالحق والعدل، فإنّه ينتظر الجزاء من السماء لا منهم؛ فالأحرى بهم أن يقتدوا به وأن يؤمنوا بما يدعوهم إليه. غير أنّ القوم كان لهم رأي آخر:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[1].

لاحِظْ قول هود لهم: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ فالمطر رحمة من الله، والقوّة يأمر الله النّاس أن يتّخذوها، ولكن ليس لهم

(1) سورة هود 50 – 52.

أن يستعملوها في العدوان على الآخرين، وإنّما لردّ العدوان إن وقع. ثمّ إنّ للقوّة معانيَ أخرى، إذ هي لا تقتصر على القوّة العسكريّة، بل تتعدّاها إلى القوّة الاقتصاديّة، وخاصّة إذا لاحظنا الربط بين القوّة وإرسال المطر المدرار، إضافة إلى قوّة الأجسام والنفوس. فربّ قوّة بدنيّة لا تصاحبها قوّة نفسيّة، فيكون القويّ ضعيفا لأنّه يفتقد الثقة بنفسه، والثقة بالنّفس أقصى درجات القوّة. ومن هنا نفهم التلاقي بين الأمرين في قوله، تعالى: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾. فالمطر له تأثيره في الحياة الاقتصاديّة، إذ عليه تعتمد الثروة الزراعيّة والحيوانيّة، وكذلك كثير من المشاريع الصناعيّة، إضافة إلى احتياج النّاس له في البناء والإعمار، وفي استعمالاتهم الشخصيّة. فله دور لا ينكره أحد في تشكيل الوعد الثاني وهو زيادة قوّتهم. كما نستخلص من النّصّ أنّ هودا لم يُنكر عليهم القوّة التي امتلكوها، بدليل أنّه وعدهم بأن يزيد الله في تلك القوّة، ولكنّه أنكر عليهم استخدامها في البطش والعدوان.

غير أنّ القوم تهرّبوا مِمّا يدعوهم إليه متذرّعين بأنّهم يحتاجون إلى بيّنة على صدقه، فاذا لم تكن لديه بيّنة أي شاهد على صدق دعواه، فلا بدّ أنّ أحد آلهتهم قد مسّه بسوء! فحاورهم هود، وجاءهم بالأدلّة والبراهين، وأكّد لهم أنّهم إن تولّوا فسيصيبهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، وأنّهم لن يضرّوا الله شيئا:

﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا

بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ﴾[1].

هذا الإنسان المتجرّد من الهوى الشخصيّ، يفهم الحدود التي يقف عندها في تعامله الفكريّ والعملي مع الآخرين. فالنبي هود بيّن لقومه الطريق السليم المؤدّي إلى التطوّر المتّزن القائم على القيم السامية، وحين هدّدوه لم يكن منه إلّا التوكّل على ربّه الآخذ بناصية الأحياء جميعا، مع تأكيده الدائم لهم أنّه لا يرجو من وراء دعوته أيّ مغنم شخصيّ، كي يوقنوا أنّه من أجل مصلحتهم جاء ومن أجل مستقبلٍ أفضلَ لهم ولأولادهم وأحفادهم يتحمّل العناء والأذى. كما لم يتوانَ عن إيضاح الحقيقة الخالدة أنّ الحضارة المادّيّة لوحدها لا مستقبلَ لها، فالمستقبل، دائما، للحضارة التي تزاوج بين المادّة والروح، ولذا أخبرهم أنّ الله سيستبدل بهم قوما غيرهم. وهو منطق انتقال الحضارات من قوم إلى قوم ومن مكان إلى مكان، بحسب ما اتّفق عليه علماء التاريخ والاجتماع في الأزمنة الحديثة، بعد أن قاموا بتحليل دقيق لتغيّرات الدورات الحضاريّة التي مرّت على البشريّة. فقد لاحظوا، وبناء على معطيات آثاريّة وتاريخيّة إضافة إلى النصوص الدينيّة، أنّ الحضارات تنمو ثم تسقط.. وحين تسقط في مكان تظهر في مكان آخر. وهو المنطق نفسُه الذي حكم العالم وما زال يحكمه إلى اليوم. فهذه الحضارة المعاصرة التي نراها ونلمس منجزاتها، لا يتجاوز عمرها القرنين من الزمان، ولكنّها ارتكزت على جميع الحضارات البشرية التي سبقتها سواء كانت قد ظهرت في الشرق أم في الغرب. وهذه الأخيرة أفادت كثيرا من حضارات بيزنطة وروما التي نشأت بعد سقوط الحضارات القديمة في وادي الرافدين ووادي النيل.

ونلاحظ في قوله، تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴾ إشارة واضحة إلى أنّ تلك الحضارة الماديّة كانت مفرّغة من البعد الروحي، ولم تكن إنسانيّة المحتوى. فلا ندري ماذا تفعل الإنسانيّة بحضارة لا تعترف بالقيم السامية التي تفرّق بين الإنسان ووحوش الغابات؟! ولقد مرّ على وجه الدّهر عُتاة لم يكن يهمّهم إلّا

(1) سورة هود 50 - 60.

العدوان وإلحاق الأذى بالآخرين، وكأنّهم لا يحسنون في الحياة شيئا غير العنف ولغة القتل والتدمير والتخريب. ولذلك نجد كثيرا من صفحات تاريخ البشريّة مليئة بالقسوة والفظاظة، على عكس ما أمر الله النّاس به، حين جعلهم خلفاءه في الأرض، وأبان لهم نهجه الواضح المستقيم المبنِي على التعارف والتآلف والتعاون والتكافل بين النّاس جميعا، على اختلاف مشاربهم وآرائهم. وذلك ما جاءت به كتب السماء، وما وصّى الله به أنبياءه جميعا. وبه أخذ العالم في تشريعاته الحديثة. والمفروض أن يسموَ الإنسان بذاته وتطلّعاته نحو هذا الأفق الشاسع من الأمن والطمأنينة والسلام التي لا تقوم الحضارة الإنسانيّة الجديرة بصفتها إلا عليها. أمّا البطش والقسوة والعنف وغير ذلك من صفات تبثّ بين النّاس الخوف والرعب واضطراب الأحوال، فمِمّا يقضي على أيّ تطوّر إنسانيّ، وأيّة حضارة مهما كانت.

وإذا كان هذا ما تطالعنا به **سورة الأعراف**، فإنّ **سورة "المؤمنون"**، وبعد أن تعرض لقصّة نوح وقومه، تنقلنا، مباشرة، إلى أجواء قصّة هود وقومه: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [1].

فهم قد أترفوا في الحياة الدنيا، أي في الحياة الهابطة المتدنية، لا الحياة السامية الرفيعة. وثمّة فرق كبير بين امرئ يعيش حياة سامية بمثلها وقيمها، وآخر تهبط به أطماعه وجشعه إلى حياة (دنيا) لا حياة سامية. إنّ سموّ الذات في سموّ المعنى، وإنّ سموّ الإنسان في سموّ مشاعره وأحاسيسه، وان سموّ الحياة في سموّ قيمها ومفرداتها اليوميّة وغاياتها النبيلة. فالمرء الذي يكدّ على عياله، يعيش في حياة سامية، والمرأة التي تُعْنَى بواجباتها، سواء تجاه عائلتها أم تجاه المجتمع، تعيش حياة سامية، والطالب الذي يطلب العلم ويبحث عنه ويتلقّاه ويرحل من أجل

(1) سورة المؤمنون 31 – 34.

الحصول عليه، إذا كانت الرحلة ضروريّة، يعيش في حياة سامية. والطبيب الذي لا يتاجر بمرضاه، ويُخلص في علاجهم ومداراتهم يعيش في حياة سامية، والمعلّم الذي يقدّم لطلابه عصارة علمه من أجل مستقبلهم يعيش في حياة سامية، والفرد الذي يتحوّل إلى مواطن جدير بصفة المواطنة يعيش في حياة سامية، والمجتمع الذي يتآلف أفراده ويسوده الأمن والاستقرار يعيش في حياة سامية.. وهكذا في جميع جوانب الحياة.. تلك هي الحياة السامية، بغضّ النّظر عن مستوى المأكل والملبس والمسكن، ومع أنّ هذه أمور ضروريّة جدا ولا بدّ أن يسعى المرء لتحسين وضعه المادي والمعاشي عن طريق العمل النافع المفيد، ولكنّ هذا الهدف الإنساني لا يصحّ أن يتحول إلى (أنانيّة) مقيتة تضرّ صاحبَها كما تضرّ الآخرين. فالنفس لا تشبع ولا ترتوي إذا سمح لها صاحبها أن تجرّه إلى مهاوي الجشع، لأنها ستقوده إلى حياة (دنيا) لا حياة (عليا) وتلزمه تلك الحياة الدنيا بفروض وشروط كي يكون متمكنا منها مترَفا فيها، ومن تلك الفروض والشروط:

أ - أن يستخدم ماله للأذى والعدوان والاستيلاء على أموال الآخرين بغير حقّ، كما جاء في التنزيل العزيز: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ ﴾ [1]. وما حدّثنا القرآن الكريم عنه في قصّة النبيّ داود: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [2]. فهذا لا يكتفي بتسع وتسعين نعجة وإنّما يطمع بنعجة واحدة يملكها أخوه فيريد أن يصادرها منه، ولولا أنّه كان يتصوّر نفسَه أقوى من الآخر لأنّه أكثر منه مالا لَما وجد في نفسه القدرةَ على التجبّر عليه ومطالبته بنعجته الواحدة. ومثل ذلك الذي يسعى لبثّ الخوف والذعر في قلوب الآخرين، لِما يتمتّع به من مال وقوّة يوظّفهما لِما فيه ضرر الآخرين وضرارهم، كطريق يراه يصبّ في صالحه وزيادة أمواله وقوّته. ومثل ذلك الذي يريد تجميد

---

(1) سورة الأنفال 36.

(2) سورة ص 23.

النّاس في إطار الجهل كي يستغلّهم لِجَنْي مزيد من الأموال والثروات.

ب - أن يكنز الذهب والفضّة ولا يوظّفهما للصالح العام الذي يحقّق له صالحه الخاصّ بالتأكيد. وبذلك لا ينظر للحياة إلا من خلال قيمها (الدنيا) لا قيمها السامية (العليا) وهو ما دام مقيما على ذلك فإنّه يفقد القدرة على فهم الحياة السامية واستيعابها، وربما تناساها، حتّى إذا جاء من يذكّره بواجباته الإنسانيّة تجاه الآخرين، أخذته العزّة بالإثم، وابتدع الحجج والأعذار التي يروم من ورائها القضاء على كلّ عمل فيه صلاح النّاس، بل وصلاحه هو ذاته.

إضافة إلى فروض وشروط جمّة أخرى تؤدي جميعا إلى عكس ما هو مفترض فيمن أفاء الله عليه من نعمه، وأمره بأن يؤدي حقّها، وأن يسعى بها في طرق البرّ والخير لإسعاد الآخرين، ففي سعادتهم سعادته الحقيقيّة، لو كان يعرف معنى السعادة الحقّة.

الصبر الإيجابي... والصبر السلبي

في كل أدوار التاريخ يحاول المعاندون القاسية قلوبهم أن يجعلوا تلك الحياة الموصوفة بـ(الدنيا) الغاية التي ما بعدها غاية، أمّا الحياة السامية (العليا) المعطّرة بالقيم النبيلة، فهم لا يفهمونها، ناهيك عن نكرانهم للحياة (الآخرة) نكرانا تامّا: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]. فهم يُنكرون الآخرة لإقناع أنفسهم بأنّهم يحسنون صنعا، ومن ثمّ إقناع الآخرين بأنّهم، وحدهم، الذين على صواب، وأنّهم وحدهم الذين يريدون مصلحتهم.

غير أنّهم يتناقضون مع أنفسهم، إذ يقولون عقب ذلك الكلام مباشرة، وهم يصفون النبي هودا: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[2]. وهو بيان واضح أنّهم يزعمون الإيمان بالله، وفي الوقت نفسه لا يؤمنون بأنّ ثمّة حسابا في الآخرة. يريدون من وراء ذلك الإيحاء بأنّهم أوصياء الله على البشر، وأنّهم الوحيدون المؤهّلون للتعبير عن إرادة السماء، عن طريق الأصنام والأوثان، وأنّ القيم التي تعودوا عليها، هي القيم الإلهيّة الواجبة الاتّباع. وأما ما جاءهم به هود فهو كذب وافتراء على الله.

وهكذا دأب أمثالهم في كل العصور والأزمان، كالذي قاله كُبراء مشركي قريش، حين أحسّوا أنّ القيم الهابطة التي يعتنقونها سينكشف زيفها، مما يهدّد استغلالهم للسذج والبسطاء من النّاس: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ

---

(1) سورة المؤمنون 35 - 37.

(2) سورة المؤمنون 38.

ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [1]. وهم يعنون واحدا من المرتبطين بفئة الكهنة والسدنة، كي تتواصل عبادة الأصنام واستغلال النّاس باسم تلك الأصنام والأوثان، وتستمرّ حياتهم بكل سيّئاتها وأمراضها ومآسيها. وهذه ظاهرة واضحة في جميع قصص الأمم والأنبياء في التنزيل العزيز.

وبعد أن يئس هود من هدايتهم دعا ربّه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [2]. ونلاحظ أنّ دعاء هود هو ذاته دعاء نوح من قبله ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ فكأنّه جعل النصر جزاء لصبره على أذاهم له وتكذيبهم به وسخريتهم منه، بحيث تُصبح النتيجة معادِلَة للمقدّمات التي أدّت إليها. وقد تحدّثنا عن هذه الناحية أثناء عرض قصّة نوح، فيما سبق.

وفي جميع قصص الأمم والأنبياء في التنزيل العزيز، نلاحظ أنّ الصبر يؤتي ثماره. ولذلك أمر القرآن النّاس بأن يأخذوا بالصبر في كل شؤون حياتهم كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [3]. ويجب أن ننتبه إلى أنّ الفرق كبير بين الصبر بمفهومه الصحيح وما يلجأ اليه بعض النّاس من تواكل يسمّونه (صبرا) يغلّفون به كسلهم وتوانيهم عن العمل النافع المفيد. فالصبر بمفهومه الصحيح هو تحمّل المشقّات والتضحية والعناء، واقتحام صعوبات الحياة بعزيمة لا تلين. الصبر، هنا، ظاهرة إيجابيّة، فعلى الطالب أن يصبر على صعوبات الدرس، وعلى الموظّف أن يصبر على صعوبات وظيفته، وعلى المرأة أن تصبر على صعوبات الحياة المادية، وهكذا جميع النّاس: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [4]

(1) سورة الزخرف 31.
(2) سورة المؤمنون 39 - 41.
(3) سورة العصر 1 - 3.
(4) سورة لقمان 17.

وكذلك: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (1). فالنبيّ، وقد أُمِرَ بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، أخذ بذلك الصبر ولم يتوانَ عن مواصلة دعوته النّاس للخير والعلم والعمل. هذا هو الصبر الإيجابي، وهو الصبر الذي أمر به اللهُ النّاس جميعا، وجعل له جزاء حسَنا، حتّى ليظهر لنا أنّ الصبرَ رسيلُ الإيمان، فكأنّهما صنوان متلازمان. فلا إيمانَ لِمَن لا صبرَ له. وقد جعل الله من الصابرين أئمّة يهدون بأمره، وذلك قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ (2). ووعدهم بالجنّة التي تعوّضهم عن صبرهم: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (3). وعدّ ذلك الفوز حظّا عظيما لا يناله إلّا الصابرون: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ (4). وبالصبر والتّقى يتوقّى المرء كيدَ الآخرين: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ (5). وإنّما أردف التّقى معه، لأنّ التّقى هو العمل الصالح، هو دفع السيّئة بالحسنة، هو السعي في طلب الخير، هو العفو عمّن أساء إليك، بل هو الإحسان إليه إن كان ثمّة وجهٌ للإحسان، حتّى صار ذلك الوصف الأول للمتّقين، بحكم قوله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (6).

وهذا يؤكد ما نحن مقرّروه من الفارق بين الصبر الإيجابي والصبر السلبي، فذلك الصبر الإيجابيّ هو المطلوب وهو المأمور به، إذ يزدوج بالعمل الصالح والعلم النّافع على ما سبق أن بيّنّاه من صور الصبر في الحياة اليوميّة للإنسان.

(1) سورة الأحقاف 35.
(2) سورة السجدة 34.
(3) سورة المؤمنون 111.
(4) سورة فصّلت 35.
(5) سورة آل عمران 120.
(6) سورة آل عمران 133 - 134.

والصبر، بعد هذا، حاجز عن النقمة والغضب والحسد وغير ذلك مما ينبعث من فقدان الصبر، فهي أمور مرفوضة ومحرّمة، ولو صبر المرء على ما هو فيه، وبذل الجهد لتطوير ذاته ولتحسين وضعه عن طريق التحلّي بالخُلُق النبيل الكريم وبذل الجهد في العلم والعمل والدفع بالتي هي أحسن، لما انتابته تلك الأحاسيس المرذولة.. وهكذا.. فان الصبر يعنِي أنّ على كل أبناء المجتمع، بذل جهد أكبر، والصبر على ذلك الجهد، من أجل تغيير أوضاعهم إلى ما هو أفضل وأكمل وأنضر، من النواحي المادّيّة والمعنويّة.

وفي سورة الشعراء، وبعد ذكر قوم نوح أيضا، يقصّ التنزيل العزيز قصّة هود وقومه، بما يؤكّد المعاني السابقة، ويضيف إليها إضافات نافعة نستفيد منها في حياتنا المعاصرة. فقد ذكرت هذه السورة تفصيلات عن بعض حوار هود لقومه. فبعد أن دعاهم إلى تقوى الله، بمعنى الأخذ بما يريده منهم، وبعد أن أخبرهم أنّه مخلص لهم وأمين على رسالة ربه، وأنّه لا يبتغي من وراء عمله أجرا ولا منزلة، ساءلهم موبّخا: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾[1].

وربما يتبادر إلى بعض الأذهان أنّ هذه الآيات تشير إلى أنّ على المرء أن يبتعد عن البناء والإعمار بدلالة الاستفهام الانكاري أو الاستنكاري: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾! ولكن هذا الفهم للآية غير صحيح، فليس المرفوض أن يبنِي المرء شواهد التقدم العمراني، ولا أن يشيد البناء الأنيق المعتنَى به، بل المرفوض أن يكون ذلك عبثا لا هدف من ورائه.

وقد اختلف المفسّرون في معنى هذه الآية اختلافات لا تمسّ مغزاها وجوهر

(1) سورة الشعراء 128 - 135.

معناها المراد، وقد خصّصها بعضهم بأنّ القوم أقاموا أعلاما في الطرقات يهتدون بها، وكان لهم من النجوم كفاية فلماذا أنشأوا تلك الأعلام أو البناءات؟! وقد اعتمد القائلون بهذا على أنّ معنى الرِّيع: الطريق سُلك أم لم يُسلك [1]، أو أنّه الجبل [2] أو أنّه كلّ مُرتَفَع من الأرض [3]. غير أننا لا ننظر إلى الآية من هذا التخصيص، بل نراها عامّة شاملة، وحتّى إذا كانوا يهتدون بالنجوم في رحلاتهم وأسفارهم الليليّة فما الذي يمنع من أن يقيموا أعلاما (أو إشارات أو علامات) تهدي المسافرين؟! لا نعتقد أن المقصود العمران النافع للنّاس، وإلا لحرم كثير من المخترعات والمكتشفات، فالبوصلة التي تهدي البحارة في أسفارهم وتهديهم إلى طرق النجاة والوصول إلى الشواطئ، لم يحرّمها أحد، ولا يمكن أن يُمنع النّاس من استعمالها بحجة أنّ لهم من النجوم كفاية، فلنفترض أنّ الغيوم غطّت تلك النجوم، مثلا، فكيف سيهتدي البحارة في البحار ومسافرو البرّ في الصحراء؟! فالمقصود، إذن، كل عمل لا هدف من ورائه، أو لا يرتبط بغيره من أعمال، بحيث يصبح عبثا، بكل ما في هذه الكلمة من معنى. ويُمكن أن نضيف إلى ذلك أنّ معنى (الرّيع) لا يقتصر على الجبل أو الطريق أو كلّ مرتفع عن الأرض. فمن معانيه الزيادة في كلّ شيء، ومن معانيه، أيضا، الأرض الزراعيّة الخصبة. فلا نستبعد أن يكون الحديث عن مشاريع كان يقيمها أولئك القوم لا لغرض الاستفادة منها بل من أجل التفاخر والتباهي، ومن غير أن يُخضعوها لحاجاتهم الفعليّة. ومثل تلك المشاريع ظلم بيّن وإهدار للمال بلا وجه مقبول ولا مبرّر معقول. فأين هي الحكمة، مثلا، في إقامة مشروع ضخم فخم في أرض زراعيّة وذلك المشروع الضخم الفخم من شأنه أن يخرّب تلك الأرض الزراعيّة؟!

لذا فإنّ من الأفضل أن يُعمّم المعنى، هنا، ليشمل كلّ وجوه التبذير والإسراف، سواء في إقامة المشاريع غير المدروسة جيّدا، أم في اتّخاذ ذلك وسيلة

(1) كتاب العين 99/3.

(2) لسان العرب (ريع).

(3) معجم مقاييس اللّغة 467/2.

للاستعلاء والبطش والعدوان.

أمّا الآية: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ فقد قيل أن المصانع مشارب الماء، وقيل الحصون والقصور. وهذا الذي قيل لا ينسجم مع فهم القرآن للحياة، ودعوته النّاس إلى إعمار الأرض، فمشارب الماء، وخاصة في الأزمنة القديمة ضرورة للنّاس، فكيف ينكر القرآن عليهم بناءها أو تمهيد السبل للوصول إلى الماء؟! وكذلك الأمر في الحصون والقصور، إذ هي علامة من علامات التطوّر العمراني ونمو الذوق الاجتماعي، والتمدن، وهي خاصيّة من خصائص الحضارات منذ القديم وإلى اليوم، وإلا فهل أمر الإسلام النّاس أن يلزموا العيش في الكهوف أو الأكواخ؟! من أراد أن يعيش في الكهف أو الكوخ فله ملء الحريّة، ومن تمكّن من بناء بيت أو قصر، فإنّ الإسلام لم يمنعه من ذلك، إذا كان ضمن إطار ما تعارف عليه النّاس وتتطلبه الحياة، من غير استعلاء ومباهاة وتكبّر على النّاس. ومن أقام حصنا فعل أمرا حلالا، بل وقد يكون واجبا، خاصّة إذا كان للدفاع عن بلدة ما، والمحافظة على أرواح أهلها من الطارئين المعادين لها، كالحصون التي ابتناها المسلمون في المدن التي حلّوا بها، وما زالت آثارها باقية إلى الآن. أما الممنوع المحرّم من ذلك، فأن تكون هذه البناءات مشيّدة على أساس أنّها وسيلة لأذى الآخرين إذ لهم من حصونهم مَنَعةٌ وملاذٌ، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [1] ومثلها: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ ﴾ [2]. فهذه البروج والحصون والقصور ليست محرّمة في حدّ ذاتها، بل شأنها شأن سائر ما يفعله المرء ويبنِيه، إن كان هدفه نبيلا سليما فعمله نبيل وسليم، والعكس بالعكس. ولا يقتصر الأمر على ما مرّ ذكره، بل حتّى في بناء المساجد، فثمّة مسجد يُبْنَى للإضرار بالنّاس، أيّا كانت طبيعة ذلك الإضرار، فهذا مسجد منع الإسلام القيام فيه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا

---

(1) سورة الحشر 2.

(2) سورة النساء 78.

وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]. فإنّ بناء المساجد من أعمال البِرّ والخير، ولكنّ الحرام أن يكون وسيلة لتفرقة النّاس وإشاعة الأضاليل والأباطيل والخرافات والدجل والشعوذة.

(1) سورة التوبة 107.

العزّة والرّحمة
في مقابل الذلّة والبطش

وتأخذنا آيات سورة الشعراء وهي تقصّ قصّة عادٍ قوم هود، إلى جانب آخر من تلك القصّة، فتعرض علينا إنكار هودٍ على القوم جملة أمور، كالعبث في البناء، وتوجيه الإعمار وجهة غير صحيحة طلبا للخلود الذي لا يناله أحد في الدنيا. ثم وصفهم بأنّهم معتدون ظالمون: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾[الشعراء: 130]. فهم قد أغرتهم قوّتهم فعميت أبصارهم، وفقدوا بصائرهم، ولم يعودوا يرون إلّا ما تعوّدوه من البطش والعدوان على الآخرين. ولم يكن هود يريد من وراء دعوته كلّها إلّا تخليصهم من تلك الروح العدوانيّة التي تلبّستهم، وجعلتهم يضرّون أنفسَهم ويضرّون غيرهم، أمّا ضررهم لغيرهم فتجبّرهم على الآخرين، وتجبّر قويّهم على ضعيفهم. وأمّا تجبّرهم على أنفسهم فإهدارهم لثرواتهم على مشاريع ضارّة لا يريدون من ورائها إلّا التفاخر والاستعلاء أيّا كانت نتائج إقامتها وتنفيذها. وإنّما اتّخذ هودٌ من دعوته لهم إلى ترك الشرك ونبذ سيطرة فئة كهنة الأصنام وسدنتها، وإلى الإيمان بإله واحد، من أجل أن يكون ذلك معبَرا لهم للتخلّص من أخطائهم وخطاياهم، ولتحقيق المزيد من التقدّم المتّزن المؤنّس بالقيم السامية من التعاطف والتسامح والتعاون، بعد أن يكونوا قد وعَوا أنّ هذه الحياة الدنيا التي يعيشون فيها زائلة غير دائمة، وأنّ ما يتصوّرونه نعيما إنّما هو الهلاك بعينه، لأنّه سيُلحق الهلاك بهم، ويُسقط حضارتهم.

ومن المعلوم أنّ الأديان تدعو الإنسان إلى الاهتمام بالحياة على أن تكون تلك الحياة هي الحياة السامية العليا لا الحياة الهابطة الدنيا، وعليه أن يتّخذ تلك الحياة معبرا إلى الآخرة، التي هي الحياة الحقيقيّة لأنّها أزليّة خالدة. إنّ هذه النّظرة

إلى الحياة، سواء كانت دنيا أم عليا، باعتبارها حياة فانية، تساعد على تغذية النفوس بالقيم التي لا خلاف على سموّها ورفعتها. ومن هنا جاءت دعوة الأديان عموما للتسامح حتّى مع الأعداء إلَّا إذا تعرض المرء لخطر حقيقي فله أن يدافع عن نفسه وأهله ووطنه وماله وعرضه وعن سائر ما يَمُتّ اليه بسبب، في مواجهة من يريد إلحاق الأذى به أو بمن معه. وحتّى في هذه الحالة عليه أن يلجأ إلى العدل، فانْ سَمَتْ نفسُه أكثر لجأ إلى العفو والرحمة والتسامح، بحسب الحالات والأوضاع. وقد وردت آيات كثيرة تحثّ على هذا، بل وتأمر به. ويكفي أن ننظر في لفظ العفو وما يشتقّ منه في التنزيل العزيز لندرك مدى اهتمام القرآن، وعموم الأديان، بالعفو والتسامح وسعة الصدر. ومن ذلك قوله، تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ (1) وكذلك قوله: ﴿ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ ﴾ (2). وغير هذا كثير.

وعلى الرغم من سوء أعمال القوم، بدءا من الشرك وليس انتهاء بالعبث والبطش والعدوان، فإنّ هودا أوضح لهم أنّ باب التوبة مفتوح أمامهم على مصراعيه، إن شاؤوا وإن رغبوا، مذكّرا إيّاهم أنّ ما يتمتّعون به حاليا هو من عند الله وأنّه سيزيد ويتضاعف إن ساروا على الطريق المستقيم: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (3). فكل غايته منفعتهم والحرص عليهم، وإنقاذهم من سوء حاضرهم ومستقبلهم. ولكنّهم، شأن كلّ المعاندين المغالين المتعصّبين، سدّوا آذانهم عن نصحه، وأخبروه أنّهم لن يستجيبوا له مهما آتاهم به من براهين على صدقه وإخلاصه لهم: ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا

(1) سورة الشورى 40.

(2) سورة البقرة 227.

(3) سورة الشعراء 131 - 135.

خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [1].

ويُلفت نظرنا في آخر هذه الآيات، قوله، تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾ التي تبدأ بها كلّ قصّة من قصص الأمم الواردة في **سورة الشعراء**، فكأنّها اللازمة المعنويّة واللفظيّة التي تقوم مقام القافية في بيت الشعر. فكلّ قصّة كأنّها بيت من الشعر تبدأ بالآية المذكورة وبها تنتهي، إشعارا بأنّ الوحدة الموضوعيّة للقصّة قد انتهت لتبدأ قصّة أمّة أخرى. وإضافة إلى ذلك، تجمع الآية بين صفتين من صفات الله تعالى، هما أنّه (العزيز) وأنّه (الرحيم). وهما صفتان غير متضادّتين، فالعزّة لله والرحمة منه. إشارة إلى أنّ مَن سار على الطريق الصحيح، وفهم رسالات السماء فهما سليما، باعتبارها رسالات تهدف لخير الإنسان، وتوفّر له أجواء الأمن والطمأنينة، كي يقوم بواجباته ونشاطاته في أجواء إنسانيّة رحبة مضمّخة بعطر المودّة والتراحم والتعاطف، يناله الله برحمته.

كلمات التنزيل العزيز، لم تأتِ عبثا، أو اعتباطا، ولم تُذكر كيفما اتّفق، بل هي تؤدي وظيفة محدّدة، لذا نرى في مواضع الرحمة ألفاظ الرحمة، وفي مواطن النقمة ألفاظ النقمة. وعلينا أن نفهم السياق، وأسباب النزول، ونقارن بين الألفاظ لنصل إلى المراد من النّصّ.

فهنا (العزّة) و(الرحمة) في مقابل ذلّة المعاندين وقسوتهم. فالعزّة ضدّ الذلّة. والرّحمة ضدّ (البطش). ثمّ إنّ العزّة إشارة إلى أنّ الله يعاقب القوم على سوء أفعالهم المذكورة في سياق قصّتهم، ولم يوكل الأمر إلى نبيّه هود. وأمّا الرّحمة فتشمل الذين سلكوا الطريق القويم بعد أن كانوا خاطئين ومخطئين، فبمجرّد أن تخلّوا عن أعمالهم السيئة وسلكوا طريق الخير والعمل الصالح، استحقّوا أن يذكّرهم الله بأنه رحيم، وأنّه قد تاب عليهم، وعفا عنهم، وأنجاهم من العذاب الأليم، فبدأوا ببناء حضارة جديدة، وتلك هي قوانين الدورات الحضاريّة عبر

(1) سورة الشعراء 136 - 140.

التاريخ، تنتهي ثم تبدأ من جديد.

بهذا ينتهي عرض قصّة عاد ونبيّهم هود في سورة الشعراء، لنصل، بعد ذلك، إلى سورة فصّلت التي تضمّنت إضافات على ما مرّ ذكره.

ففي هذه السورة خطاب للنبيّ الكريم، أن يُنذر قومه من قبل أن يأتيهم عذاب كعذاب عاد وثمود الذين كذّبوا بأنبيائهم ورسلهم بحجّة أنْ لو شاء الله لأرسل ملائكة لا بشرا مثلهم، وذلك حسدا من عند أنفسهم لمن خصّهم الله بالنبوّة وحمّلهم رسالاته إلى الخلق، ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1]. وهذه أخلاق ضعاف النّفوس والعقول في جميع الأزمان إذ انّهم: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ ﴾[2].

ثمّ تعرض السورة لحوار آخر بين عاد وهود إذ افتخروا بقوّتهم التي لم يكن يدانيهم فيها أحد، واعتبروا أنّ تلك القوّة تبرّر لهم أعمالهم فازدادوا غرورا فوق غرورهم واندفعوا في طريق الظلم والعدوان والباطل، من غير أن يلتفتوا إلى أنّ الذي خلقهم ووفّر لهم أسباب القوّة هو أقوى منهم، وأن عليهم إذا أرادوا زيادة قوّتهم ورفعة شأنهم أن يغيّروا ما في أنفسهم، وأن يسلكوا الطريق الإنساني المعطّر بالقيم السامية، ولكنّ عنادهم واستكبارهم في الأرض بغير الحق أوقفا تطوّرهم وأنهيا قوّتهم فلم يستطيعوا أن يردّوا عنهم الريح الصرصر والأيّام النحسات التي أنهت دورهم الحضاريّ، وأهلكتهم، ليبدأ الناجون من أتباع هود المؤمنين به، بإعادة تشييد حضارة جديدة مستفيدة مما حدث للقوم المعاندين المفسدين في الأرض ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ

(1) سورة فصّلت 13 - 14.

(2) سورة النساء 54.

ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝ ﴾ [1].

ولَمّا كان هود قد ظهر في الشحر من الأحقاف من أرض عُمان، فقد وردت آيات عديدة من **سورة الأحقاف** لتقديم صور أخرى مما قاله القوم وفعلوه، حيث نلاحظ أمورا نذكر هنا شيئا منها:

* قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ [2]، حيث ينبغي الالتفات إلى أمور:

أ - **الأحقاف**، فقد ذكر المفسّرون أنّها الرمل المجتمع المتراكب المعوجّ، وأطلقت التسمية على الأرض الممتدّة من عُمان إلى ديار مهرة، أو على الأرض الواقعة بين عُمان واليمن [3].

ونُسب للخليل الفراهيدي رأي غريب في معنى الأحقاف إذ رأى أنّه: (جبل محيط بالدنيا من زبرجدة خضراء يلتهب يوم القيامة فيُحشر اليه النّاسُ من كلّ أفق) [4]. ونحتمل احتمالا كبيرا لا نجد ما ينقضه أنّ هذا من التزيّدات التي وضعها الرواة على لسان الخليل، فالخليل أجلّ من أن يذهب إلى هذا المعنى الغريب وغير المتلائم مع أحداث قصّة هود وقومه، ولا مع اللّفظة ذاتها ومعانيها التي ذكرها بنفسه في كتاب (العين).

وأيّا كان الأمر، فإنّ ظاهر قول المفسّرين بأنّ الأحقاف الأرض الرمليّة المتراكب رملها، يبدو غريبا أيضا حين نمعن النظر في أوصاف حضارة عاد وإنشائهم مدينة فريدة من نوعها وصفت بأنّها لم يُخلق مثلها في البلاد، فتلك

(1) سورة فصّلت 15 - 16.

(2) سورة الأحقاف 21.

(3) الكشاف 298/4.

(4) كتاب العين 2 - 68.

المدينة بلا ريب بحاجة إلى أرض خصبة وأنهار جارية ومياه وفيرة، لا يوفّرها الرمل ولا البحر. وفي الوقت نفسه كانوا يبنون مصانعَ الماء وآيات معماريّة أخرى، بحسب نصّ التنزيل العزيز نفسه، مِمّا لا يتلاءم مع الرمال المتقحّفة. لذا نجد أنفسنا أميلَ إلى الرأي القائل بأنّ (الأحقاف) هنا تعني الأرض أيّا كانت طبيعتها [1]. وعلى الرغم من أنّه رأي لم يعتدّ به المفسّرون كثيرا، فإنّنا نراه أقرب للصواب. ولا يمنع هذا من أن تكون الأرض من حول إرم ذات العماد أرضا رمليّة، وأن يكون القوم قد استطاعوا أن يستصلحوها رويدا رويدا وأن يشيّدو عليها حضارتهم المذكورة، دليلا على المستوى المتقدّم الذي وصلوا إليه، أمّا أن تكون الأرض هناك كلّها رمليّة يتراكب بعضها على بعض باعوجاج والتواء، فمِمّا لا يتلاءم مع وصف حضارتهم التي ابتنوها.

هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فاننا لا نستبعد أن تكون تسمية تلك المنطقة بالأحقاف تسمية متأخّرة زمنيّا عن عصر عاد والنبيّ هود، وجاء ذكرها في القرآن الكريم تعريفا للنّاس بها لأنّهم يعرفون (الأحقاف) ولا يعرفون اسمها القديم. وهذا أمر ملحوظ في القرآن، حيث إنّه للنّاس نزل، فيجب أن يكون مفهوما لهم. ولو ذكر لهم الأسماء القديمة للمدن والمواضع والبقاع التي ظهرت فيها رسالات السماء التي يقصّ على النّاس أحداثها، فهم بالتأكيد لن يفهموا شيئا مِمّا نزل إليهم حول تواريخ الأقوام السابقة عليهم. وهذه ظاهرة متواصلة إلى أيامنا هذه. ولنأخذ لفظ (البحرين) مثلا، فكم عدد الذين يعرفون أنّها سمّيت قديما بـ(أُوال)؟ وكم عدد الذين يعرفون أنّ (مجان) اسم لعُمان؟! وما إلى ذلك من أسماء الأماكن والبقاع. هذا إضافة إلى أنّ القرآن الكريم ليس كتاب جغرافية كي يبحث في تلك الأسماء ويبيّن القديم منها والجديد، بل يكفيه أن يذكر بعض أحداث التاريخ للاستفادة واتّخاذ العِبرة والعِظة بألفاظ يفهمها النّاس ويعرفون دلالاتها.

ب - رأي جمهور المفسّرين أنّ قوله تعالى في السياق ذاته: ﴿ وَقَدْ خَلَتِ

---

(1) التبيان 280/9.

ﱡٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ ﱠ[1] إنّما يعنِي أنّ هودا كان قد سُبق بأنبياء ورسل آخرين، معتبرين أنّ النّذُر جمع نذير وهو الرسول[2]. ونرى أنّ في هذا التفسير للفظة (النّذر) تخصيصا لا مسوّغ له واعتسافا لنهج اللّغة في المفرد والجمع. فالرسول مُنذر، ووصفه بالنذير على جهة المبالغة في أداء المعنى. إذ انّ لفظة (مُنذر) اسم فاعل من الفعل (أنذر) وأمّا النذير فهو (فعيل) منه، و(فعيل) صيغة مبالغة باتّفاق أهل النحو واللّغة. ونرى أنّ (النّذُر)، هاهنا، تعنِي العلامات المنذرة لهم بسوء المآل والمصير، أكثر مِمّا تعنِي الرُّسُل. وحتّى إن كان هناك أنبياء سبقوا هودا، فإنّ (النُّذُر) أقرب إلى ما قلناه. وبالتأكيد فإنّ حضارة عاد كانت تحمل في داخلها علامات انهيارها وسقوطها، سواء كان ذلك الانهيار والسقوط من ذاتها أم من جرّاء تأثير قوّة خارجة عنها. علما أنّ تلك القوّة الخارجة عنها ما كان لها أن تؤثّر فيها لو كان أهل تلك الحضارة قد غذّوا حضارتهم بالقيم السامية. والظاهر أنّ هودا قد أدرك تلك العلامات "المُنذِرة" بالانهيار والسقوط، أي أدرك تلك "النّذُر"، فراح، وبناء على أوامر الله تعالى، يُنبّه قومه وينذرهم محذّرا إيّاهم من مصيرهم المحتوم إنْ هم أصرّوا على ما هم فيه من ظلم وبطش وعدوان وسَفَهٍ في تبذير الأموال على ما لا ينفعهم بل يضرّهم ويؤثّر تأثيرات سلبيّة على حياتهم ومستقبلهم.

* وثاني ما نلاحظه أنّهم فهموا رسالة هود باعتبارها تهدّد أصنامهم وأوثانهم، وهي بالتالي تهدّد الكهنة والسدنة الذين تسيّدوا النّاس ووجّهوهم لرفض رسالة هود.

* وثالث ما نلاحظه أنّهم تحدّوه أن يُنزل عليهم العقاب.

* ورابع ما نلاحظه أن العقاب لم يحلّ بهم إلّا بعد أن لم يعد بالإمكان هداية آخرين منهم، تماما كالذي لحظناه مع قوم نوح الذين ﱡلَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ ﱠ[3].

(1) سورة الأحقاف 21.

(2) الكشاف 298/4.

(3) سورة هود 36.

* وخامس ما نلاحظه أنّ هودا أخبرهم أنّه إنسان مثلهم لا علم له بالغيب وأنّ مهمّته أن ينذرهم وليس عليه هداهم.

* وسادس ما نلاحظه أن السحاب الذي يأتي بالخير عادة، تحوّل إلى سحاب مهلك مميت، إشارة إلى تحوّل النعمة إلى نقمة حين لا يراعي النّاس حقّها ولا يستعملونها في طرق الخير والنماء.

* وسابع ما نلاحظه أنّهم هلكوا، ولكن بقيت مساكنهم: ﴿ فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾[1]. وفي هذا إشارة بالغة إلى أنّ الناجين منهم كان بوسعهم أن يواصلوا مسيرة الحضارة، بالاستفادة من شواخص العمران التي تركها الهالكون.

ولا نستغرب أن يهلك ناس وتبقى مساكنهم، فقد وصل العلم إلى صناعة أسلحة تقضي على الأحياء ولا تضرّ العمران شيئا.

وخلاصة أمر عاد نجده في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾[2].

(1) سورة الأحقاف 25.

(2) سورة القمر 17 - 21.

صالح وثمود... البداية والنّهاية

* **من سورة الأعراف:**

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

* **من سورة هود:**

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ

هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨)﴾.

* من سورة الحِجْر:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٨٤)﴾.

* من سورة الشعراء:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨)﴾.

* من سورة النّمل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

*** من سورة القمر:**

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

*** سورة الشمس:**

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾

وثمة إشارات أخرى إليهم كما في الآية 59 من سورة الإسراء، والآيتين 17 - 18 من سورة فصلت. إضافة إلى الآيات التي قرنت ذكر عاد بذكر ثمود كما في سورة براءة، وسورة إبراهيم، وسورة الفرقان، وسورة ص، وسورة ق، وسورة النجم

وسورة الفجر.

****

نحن الآن أمام قصّة قوم خلفوا عادا، وكانوا امتدادا لهم، وعلى الأرض التي ورثوها بعد هلاك عاد أقاموا حضارتهم التي امتدّت، فيما بعد، من شحر عُمان إلى شمال الجزيرة العربيّة، وأطلق عليهم التنزيل العزيز اسم "ثمود". وذكر بعض المفسّرين القدماء أنّ حضارتهم قد وصلت إلى مشارف بلاد الشام وأنّهم دخلوا فلسطين. بل إنّ ثمّة حديثا نبويّا شريفا يفيد أنّ منطقة (الحِجر) كانت من مساكن ثمود، وهي بين الحجاز والشام [1]. وبشكل أكثر دقّة أنّها بوادي القرى بين المدينة والشام [2]. والذي نُفيده مِمّا جاء في المصادر شيء من الاضطراب في هذا الموضوع، ففي الوقت الذي نفهم مِمّا ذكرته تلك المصادر أنّ ديار ثمود هي مدينة الحِجر فقط، نقرأ فيها أيضا أنّ ثمود قد ورثوا عادا وسكنوا في مساكنهم [3]، في الوقت الذي وقع فيه الاتّفاق بين القدماء أنفسهم على أن ديار عاد كانت في الأحقاف، وهي بلاد الشحر، كما سبق بيانه في الحديث عن قصّة عاد. ويمكن أن نوفّق بين هذه الرؤى المختلفة بأنّ الحِجر كانت مدينة من مدنهم الكبرى، وأمّا مركز حكمهم فربّما كان في ديار عادٍ نفسها، إن لم تكن مدينة إرم، فمدينة قريبة منها، خاصّة إذا علمنا أنّ عادا حين هلكوا ظلّت مدنهم قائمة بحكم قوله تعالى: ﴿ فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ ﴾ [4]. كما أنّ الكشوف الأثريّة التي عُثر عليها في الآونة الأخيرة، تجعلنا نميل إلى القول بأنّ الموضع الذي ظهر فيه النبيّ صالح ومعه النّاقة، يقع في القسم الجنوبيّ الشرقيّ من جزيرة العرب. وهذا لا ينافي أن تمتدّ دعوته لتشمل كلّ أبناء ثمود في جميع الأرجاء التي سكنوا فيها، ومنها مدينة الحجر في وادي القرى. كما لا يُنافي أن تكون النّاقة قد عُقرت في الحِجر، إذ من المحتمل

(1) الكشاف 116/2.

(2) معجم البلدان، ياقوت الحموي 221/2.

(3) التبيان 449/4.

(4) سورة الأحقاف 24.

جدّا أنّ صالحا قد تنقّل في تلك الديار ومعه النّاقة بطبيعة الحال، على عادة النّاس إذ ينتقلون مع نوقهم وجيادهم وأفراسهم، وأنّ القوم من سَكَنة الحِجر قد ائتمروا على عقرها فعقروها هناك.

أمّا حقيقة أمر تلك النّاقة، وكيف صارت (آيةً) دالّة على صدق نبوّة صالح، فقد اتّفق الأقدمون على أنّها نُتِجت من صخرة في جبل من ديار ثمود. فهي معجزة على غرار المعجزات التي ظهرت على يد موسى في حواره مع فرعون، ولا ننسى أنّ معنى الآية: المعجزة أو العلامة، أي علامة على صدق نبوّة صالح.

ونلاحظ، في هذا الصدد، أنّ التنزيل العزيز لا يتطرّق لإيضاح ذلك وتفصيله، لأنّ كيفيّة ظهور النّاقة مسألة ثانويّة في قصّة ثمود، والمسائل الرئيسة فيها هي ما يستخلصه المرء من عِبَر وعِظات مِمّا وقع لهم، وما يفهمه منها من قواعد تعتبر أسس التقدّم الإنساني، كالأساس الذي يقول إنّ الحضارة حين تُفرَّغ من القيم الإنسانية تسقط بالتأكيد، والأساس الآخر الذي يقرر أنّ على الإنسان التزامات تجاه الآخرين يجب أن يقوم بها بالقسط والعدل والتعاون والتعاطف.

ولَمّا كان التنزيل العزيز لم يفصّل الكلام على هذا الموضوع، فقد نقل الأقدمون روايات عديدة فيه، تكاد تتّفق في خاتمتها بما ذكروه من أنّ القوم تحدّوا النبيّ صالحا أن يأتيهم بآية تثبت لهم صدقه، فدعا ربّه أن يبيّن صدق دعوته بمعجزة من عنده، فكان أن خرجت النّاقة من صخرة في جبل من جبالهم. وهو رأي قالوه ونقلٌ نقلوه. ونحن في الوقت الذي لا نستبعد وقوع المعجزات على يد الأنبياء، والكرامات على أيدي الصالحين من عباد الله، لا نرى في التنزيل العزيز ذكرا لكيفيّة خلق النّاقة. وكلّ ما جاء فيه أنّ صالحا طلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله، وأنّ لها شِربَ يوم معلوم يجب ألّا يمنعوها منه، ثمّ إنّ فريقا من القوم ائتمروا على عقرها فعقروها. وكان ذلك العمل بمثابة القشّة التي قصمت ظهر البعير، فحلّ عليهم العذاب. وسقطت حضارتهم، كما سبق أن سقطت حضارة عاد من قبلهم. وتلك سنّة من سنن الحياة. وربّما كان الإعجاز في قضيّة النّاقة مثل الإعجاز في بقرة بنِي إسرائيل، مِمّا جاء ذكره في قصّة موسى، عليه السلام. وليس ثمّة حتمٌ مقضيٌّ في أنْ يكون الإعجاز ما ذكروه من تمخّض الصخرة بها، إلى آخر ما ذهبت

اليه النقول والروايات في هذا الموضوع مِمّا لا نجد فيه تصريحا ولا تلميحا في التنزيل العزيز.

وأيّا كان الأمر، فإنّ قصّة ثمود في القرآن الكريم تعرض علينا حقيقة تاريخيّة مفادُها أنّ المؤمنين الذين نجوا مع هود واصلوا بناء حضارة جديدة على أنقاض الحضارة القديمة، فزاوجوا بين المادّة والروح، وظلوا على هذه الحالة ردحا من الزمن. وتدريجيا عاد الأمر إلى ما كان عليه، فبدأت القيم الروحية بالاختفاء، وصار القوم وكأنهم يعيدون سيرة عاد. استكبارا في الأرض، وعدوانا، وطغيانا، وشركا. ويبدو من تواريخ الأمم جميعا أنّ تطاول الأيّام على النّاس يشجّعهم على المضيّ وراء غرائزهم وأطماعهم الشخصيّة، ويبعدهم رويدا رويدا عن القيم العليا والمثل السامية، وقد أشار التنزيل العزيز إلى ذلك بقوله: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ [1] وقوله: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [2]. لأنّ انشغال النّاس بشؤون الحياة (الدنيا) من مأكل وملبس وتفاخر بالأولاد والأموال يمنع بعضهم من الالتفات إلى شؤون الحياة العليا (السامية) بما فيها من قيم وأعراف إنسانيّة نبيلة. مما يؤدي إلى الإغراق في الطمع والجشع وحبّ الذات، حتّى لو كان ذلك مؤذيا للآخرين. وهكذا كان شأن ثمود.

وشاءت رحمة الله، تعالى، أن يرسل إليهم نبيّا يبيّن لهم سوء ما هم عليه، ويرسم لهم طريق التوبة عن سيئات الأعمال، والعودة إلى العدل والتعاون والتراحم مما يؤدي إلى الأمن والطمأنينة. ويذكّرهم ببعض نِعَم الله عليهم: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [3]. فمِن آلاء الله عليهم ذلك التمدّن الذي وصلوا إليه، ففي الوديان شيّدوا القصور،

---

(1) سورة الأنبياء 44.

(2) سورة الحديد 16.

(3) سورة الأعراف 74.

ومن الجبال نحتوا البيوت، وتمكّنوا في الأرض تمكنا دالًا على رفيع المنزلة التي وصلوا إليها من حيث التقدّم المادّي والتطوّر العمراني. غير أنّهم أضاعوا على أنفسهم فرصة التمتّع بذلك الجوّ المفعم بالبناء والإعمار، حين فرّغوا حضارتهم من أبعادها الروحيّة، وصاروا (يُفسدون) في الأرض، حيث يبغي بعضهم على بعض، وحيث يعتدي القويّ على الضعيف، وحيث لا يلتفت الغنِيّ لحاجات الفقير ولا يعينه على تيسير ظروف عَيشه، وحيث يحسد الفقير الغنِيّ الذي آتاه الله من فضله.. إلى آخر الصفات المرذولة التي دفعتهم إلى تكذيب نبيّهم صالح، عليه السلام. فلقد كان لسدنة الأصنام وكهنة الأوثان صولة وجولة وسيطرة على النّاس باعتبارهم وسطاءهم إلى الأصنام والأوثان التي هي وسيطتهم إلى الله، تعالى! فخوفا من هؤلاء على مصالحهم التي يهدّدها (التوحيد) وكسر قيود التبعيّة لكهنة الأصنام وسدنتها، حرّضوا النّاس أن يطلبوا من صالح معجزة تبيّن صدقه، فكانت (النّاقة) المعروفة بناقة صالح رمزا لتصديق نبوّته. وبغضّ النظر عن اختلافات الأقدمين في قصّة النّاقة، مِمّا أشرنا إليه آنفا، فإنّ الذي تدلّنا عليه آيات التنزيل العزيز أن (صالحا) طلب من قومه ألّا يمَسّوها بسوء فيأخذهم عذابٌ عظيم، ولكنّهم عقروها ولم يلتفتوا إلى تحذيره لهم. وكان ذلك العمل بمثابة التعبير عن إصرارهم على غيّهم وضلالهم، فهلكوا بسوء فعلهم: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[1].

ومن جهة أخرى، فإنّ هذا النّص يقدّم لقارئيه والمتدبّرين فيه جملة من

(1) سورة الأعراف 75 - 79.

القضايا ذات العلاقة القويّة، لا فيما يتّصل بتواريخ الأمم الغابرة فقط، بل فيما يتّصل بالواقع المعاصر، أيضا، وذلك ما نستخلصه من سورة الأعراف التي جاء النّصّ السابق فيها، مِمّا نحاول أن نجمله في هذه النقاط:

* في هذه الآيات، ومنذ بداياتها، نجد أمامنا النبيّ صالحا وهو يدعو قومه ليعبدوا الله وحده، ويخبرهم أنّهم قد جاءتهم بَيّنة من ربّهم على صدق دعوته. وتلك البيّنة هي النّاقة التي لم توصف بأكثر من: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1]. فالنّاقة كانت معه منذ بدء القصّة، إذ ظهرت في القصّة مع ظهوره، وليس من دليل على تمخّض الصخرة بها بعد أن طالبه قومه ببيّنة على ما يقوله، كالذي تحدّثت به كتب الأقدمين الذين لا نشكّ بحسن نواياهم، وأنّهم حاولوا أن يفهموا النّص الكريم بأفضل صورة ممكنة. وإنّه لَمِن طبائع الأشياء أنّ فهمهم للنّص انطلق بموجب مواضعات عصورهم وأزمانهم كالاعتماد على الأخبار المنقولة عمّن سبقهم. ولا نشكّ في أنّهم حاولوا الاجتهاد في ذلك ما وسعتهم المحاولة وأسعفتهم به أدواتهم العلميّة ومناهج بحثهم التي ارتضوها، إضافة إلى قناعاتهم الشخصيّة، فكان هذا الذي نراه في كتبهم. ولو كان ظهور النّاقة متأخّرا عن ظهور النبيّ صالح لظهر أثر ذلك في مجريات القصّة ذاتها. وهو شيء لم يَبِنْ ولم يظهر في أيّ موضع جاء فيه ذكر صالح وثمود والنّاقة في التنزيل العزيز.

* إشارة النّصّ إلى أنّهم خلفاء من بعد قوم عاد، دليلٌ على أنّهم بنوا حضارتهم من حيث ما انتهت عاد، وغذّوها بالقيم الروحية والأخلاقية السامية، ولا غرو في ذلك، لأنّ عادا حين هلكوا بقيت منازلهم وديارهم على ما كانت عليه، كما سبق ذكره، ثمّ لأنّ الذين ورثوا تلك الحضارة كانوا الناجين مع النبيّ هود والمؤمنين بالقيم التي جاء بها. وقد رأوا بأمّ أعينهم ما حلّ بقومهم نتيجة سوء أعمالهم وتكبّرهم في الأرض وتخلّيهم عن القيم الروحيّة والأخلاقية التي تغذّي

---

(1) سورة الأعراف 73.

الحضارة وتساعد على ديمومتها.

* ولذلك فإنّهم قاموا بنهضة عمرانيّة ضخمة فابتنوا القصور في السهول، وحفروا البيوت في صخور الجبال. وحين تخلّى أولئك القوم عن هذا النّهج، بعد أن مضت السنون تتبعها السنون، وظهر النبيّ صالح، نبّههم إلى تلك الحقيقة وأخبرهم أنّهم ورثوا حضارة عاد، وأنّ الأجيال الأولى منهم طوّرت تلك الحضارة ومزجتها بالقيم الروحيّة والأخلاقية، وأنّ كلّ ذلك تمّ بتوفيق الله، فعليهم شكره بمزيد من العمل من ناحية، وبالإيمان به وعدم الإفساد في الأرض تكبّرا وعتوّا وبطشا وعدوانا وظلما على كلّ من لا يستطيع ردّ ظلمهم وطغيانهم.

* ونتيجة تلك الدعوة انقسم النّاس إلى فريقين (الذين استكبروا) و(الذين استُضعفوا) أي الذين ظَلموا (بفتح الظّاء) و(الذين ظُلموا) بضمّها. ولو كان القوم قد أخذوا بما يدعوهم إليه النبيّ صالح لما انقسموا إلى ظالمين ومظلومين، ولدامت حضارتهم ونمت وازدهرت.

* ثم إنّ فريقا من الذين ظُلموا آمنوا بصالح وبالمبادئ التي بشّر بها. وأمّا الظالمون فقد كفروا به وبها.

* وقام أولئك الظالمون بعقر النّاقة، فانتهى دور ثمود الحضاري. ذلك أنّ عقر النّاقة لا يعنِي أنّ القوم قد انتهكوا حقوق الحيوان فسقطوا، على ما حاول بعض الكاتبين تصوير الواقعة، فمع أنّ الأديان تدعو إلى الرفق بالحيوان، غير أنّ تصوير سقوط حضارة ثمود بذلك التفسير غير منسجم مع مجريات أحداث تاريخ ثمود في صعودها وفي سقوطها. بل نرى أنّ عقرَهم للناقة يعنِي أن سلوكهم لطريق الشرّ الذي ساروا فيه كان لا بدّ أن يؤدّي بهم إلى خاتمة ذلك الطريق، وتلك الخاتمة عقرُ النّاقة، وكأنّ عملهم ذاك هو خطّ النّهاية لِما كانوا عليه.

* وهلك القوم، إذ أصابتهم (الرّجفة) التي نراها هنا تعنِي الخوف والرعب، فكأنّما قتلهم الخوف والرعب الذي انتابهم فجأة إثر ما ستسمّيه سورة هود بـ(الصيحة). فأصبحوا جاثمين في ديارهم، وظلت ديارهم قائمة تنعى مَن بناها ولم تُصب بأيّ سوء. وتلك حال الذين يموتون بالسكتة القلبيّة، أو ما كان الأطبّاء القدماء يسمّونه بموت الفجأة. ومن المعلوم أنّ الخوف والرعب يمكن أن يكونا

قاتلَين خاصّة إذا حَلَّا بالمرء فجأة.

* فما كان من النبيّ صالح إلا أنْ يتولّى عنهم ويتركهم لمصيرهم، بعد أن أعاد إلى أذهانهم أنّه قام بواجبه في نصحهم ولكنّهم لم يكونوا يحبّون النّاصحين.

هكذا إذن (لا تحبّون النّاصحين) فالنصيحة مُرّة، وكثير من النّاس، على مدار الزمن، والى أيامنا هذه، لا يتقبّلونها، على الرغم من أن الحديث النبويّ الشريف يقول: (الدين النّصيحة). ومن الغنِيّ عن القول أنّ النّصيحة يجب أن تكون كلمة طيّبة منطلقة من نيّة صادقة، ومشاعر مودّة حقيقيّة، كأن تنصح أخاك أو صديقك أو ولدك، وأنت عليهم مشفق ولهم محبّ. فعليهم هم أن يتقبلوا النّصح وعليك أنت أيضا أن تتقبّله بصدر رحب. والنّصح لا يعنِي الانتقاص بل يعنِي المودّة والمحبّة وحبّ الخير، ويجب أن لا يكون ذلك بمنطق الفرض والقسر والإكراه والإجبار، لأنّ هذا المنطق مُنَفِّر وفظّ يُبعد النّاس بعضهم عن بعض، ويزرع بينهم الضغائن والأحقاد، إذ يتحول إلى تدخّل في خصوصيّات الآخرين. وما هذا بنصح ولا تلك بنصيحة، بل إساءة متعمّدة تلبس ثياب النصح والنصيحة. ولذا حُرّم على المرء التفتيش عن عيوب الآخرين، ومحاسبتهم على ما تكنّه ضمائرهم، إذ لا يعلم ما في الضمائر إلّا الله تعالى.

وإذا كانت هذه القضايا تثيرها **سورة الأعراف**، فإنّ **سورة هود** تضيف ألوانا أخرى عليها وعلى مجمل هذه القصّة، فتحدّثنا أنّ صالحا قد حاورهم حوارا علميّا وموضوعيّا هادئا، فذكّرهم بأنّ الله قد أنشأهم من الأرض واستعمرهم فيها، فعليهم عبادته مباشرة من غير واسطة أيّا كانت، كما أنّ عليهم أن يواصلوا إعمار الأرض، وذلك معنى (واستعمركم فيها) أي طلب منكم عمرانها. والعمران، هنا، لا يختصّ بالعمران المادّي، بل يعمّه مع العمران الروحي، وهو ما صار معروفا في هذه الأيام باسم "التنمية البشريّة" التي تتضمّن التوعية والتطوير العلمي والالتزام الضميري بما هو حقّ وواجب. ثمّ إنّ صالحا وعدهم بأنّهم إن تابوا عن شركهم وعدوانهم وضلالهم، وإن ساروا السيرة الحسَنة التي تحقّق سعادتهم واستمراريّة حضارتهم التي يجب أن يعاد تأسيسها على الجانبين الروحي والمادّي، تاب الله عليهم فإنّه (قريب مجيب).

ولكن القوم أخذتهم العزّة بالإثم، فأنكروا عليه قوله، وعرضوا عليه ما عرضوا من مغريات. وساقوا له الكلام المعسول: ﴿ قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ﴾ [1] كمحاولة للضغط عليه أن يترك دعوته، زاعمين أنّهم كانوا يريدون أن يجعلوه واحدا من كبرائهم من ذوي النفوذ فيهم، وأنّه كان مرجوّا مِن قِبَلهم، أي أنّهم كانوا يرجونه لمهمّات جسيمة مع ما يصاحب تلك المهمّات الجسيمة، عادة، من سُمعة طيّبة بين النّاس وسعة في المال ورفعة في المركز الاجتماعي. غير أنّه لم ينظر إلى المسألة من ناحية المصلحة الشخصيّة الضيّقة، بل نظر إليها في إطار مصلحة المجموع وهنائهم وسعادتهم في الحياة وبعد الممات، فأبى عروضهم، قائلا: ﴿ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾ [2]. فهو يرى أنّ كلّ المغريات التي يقدّمونها إليه لا تنفعه حقّ النّفع، بل تسبّب له الخسران فهي تجعله من الخاسرين لا من الفائزين. وهل ثمّة عاقل يستبدل بالرحمة النقمةَ والعذاب؟!

وفي **سورة الشعراء** تفصيلات أخرى، وصياغة أخرى للقصّة في أعقاب قصّة عاد، حيث يذكّرنا حوار صالح مع قومه، بحوار هود مع قومه. وذلك برهان على أنّ رسالات السماء واحدة في جوهرها، وأسسها وقواعدها، فأمّا ما عدا ذلك فمتغيّر بحسب الزمان والمكان وبالتوافق مع تلك الأسس والقواعد التي تشكّل الإطار العامّ لتطورات الحضارة البشريّة. حيث جاء في تلك السورة: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾

(1) سورة هود 62.

(2) سورة هود 63.

﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾ [1].

ونلاحظ في هذا النّصّ أمورا تضاف إلى ما لاحظناه في النّصوص السابقة، وهي:

* إنّ القوم كانوا يعيشون في بحبوحة ماديّة، في جنّات وعيون ونخل طلعها هضيم. وهذه إشارة تناقض ما رآه بعضُ القدماء من أنّ ثمود سُمّيت بهذا الاسم لقلّة مائها. كما تناقض القصّة التي يرويها المفسّرون من أنّ تلك النّاقة كانت تشرب ماء البئر الوحيدة التي كان القوم يعتمدون على مائها في شربهم وسقي مزروعاتهم، ولذلك ضجّوا منها، فجعل الله لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر. إذ انّ قوله: (في جنّات وعيون) واضح الدلالة على وفرة الماء لديهم. وتمضي القصّة التي يرويها المفسّرون فتقول إنّ القوم لم يرتضوا هذه القسمة، ونقموا على النّاقة فعقروها. وهذا يناقض النّصّ القرآنيّ المارّ ذكره لِما بيّناه من دلالة (في جنّات وعيون). مِمّا قد يدفع إلى التساؤل أنّه: إذا كانوا في جنّات وعيون فلماذا صار للنّاقة شربُ يوم وللقوم شرب يوم معلوم؟ ألم يكن في الإمكان أن يشربوا جميعا من تلك العيون، وبخاصّة أنّها عيون وفيرة المياه غزيرتها؟!

والحقّ أنّنا حين نعود إلى المصادر القديمة نجدها تبرّر هذه الحالة بأنّ تلك النّاقة كانت تشرب الماء كلّه فلا يبقى للنّاس شيء. ولذلك خُصّص لها يوم للشرب، وللقوم اليوم اللاحق له. وفي اليوم الذي تشرب فيه تنتج حليبا يكفي القوم جميعا [2]. غير أنّنا نستبعد حكاية شربها للماء جميعا، هذا لأنّ الآبار والعيون متّصلة بمصادر المياه وكلّما أُخذ من ماء البئر أو العين عوّضت تلك المصادر ما يحدث في المياه الظاهرة من نقص، وهكذا حتّى تنشف تلك المصادر. وليس من المعقول أن ينشف ماء الآبار والعيون بعد أن تشربه النّاقة بأجمعه، ثمّ تعود تلك المياه في اللحظة اللاحقة أو في اليوم الثاني. لأنّ انتشاف الماء يعنِي أنّ النّاقة شربت جميع الماء بما فيه مخزونه في باطن الأرض، ولو صحّ أنّها تستطيع أن تشرب ذلك الماء

(1) سورة الشعراء 140 - 152.

(2) الكشاف 116/2 - 117.

كله لكان حجم جوفها بما لا يُستطاع تقديره وسعته. ولو قيل أنّها تشرب ماء حوض لأمكن تصوّر الموضوع، لأنّ الحوض ماؤه محدود وغير متّصل بمصادر مياهه، فيُحتمل أنّ حيوانا ما يستطيع أن يشرب ذلك الماء كلّه.

فاذا كان الأمر على هذا فكيف نجيب الأسئلة السابقة؟!

ثمّة احتمالات كثيرة لمنع القوم هذه النّاقةَ من شرب الماء، ما دام التنزيل العزيز لم يذكر السبب، وليس من منقول معقول يبرّر ذلك أو يبيّنه. والذي يبدو **لنا** أنّ القوم كانوا، على الرغم من وفرة المياه لديهم، يتميّزون بالشحّ والبخل وسيطرة قاسية تمارسها فئة منهم بالضدّ من الآخرين، وأنّ مِن تلك الفئة جماعة كانت تسيطر على منابع المياه وعيونها وآبارها، وتتحكّم في توزيعها، وهو ما نستخلصه من سياق القصّة **في سورة القمر**: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[1]. لذلك دعاهم صالح إلى أن يكون الماء مقسوما بينهم بالعدل والسويّة بحسب الحاجة، وهم جميعا مشتركون فيه، ولا يحقّ لفئة منه أن تسيطر عليه، فتجريه لهذا وتمنعه عن ذاك. ومن المعلوم أنّ الذي يمنع الماء عن ناسٍ أولى بأن يمنعه عن حيواناتهم. وهذه ظاهرة ملحوظة استمرّت لفترة طويلة جدا. ففي العصر الجاهلي، مثلا، كانت الحروب تقوم بين القبائل لا لشيء إلّا لأنّ ناقة هؤلاء رعت في أرض أولئك أو شربت من مائهم، وما حربُ البسوس ببعيدة عن الأذهان. وتواصلت هذه الظاهرة حتّى ما بعد ظهور الإسلام لفترة طويلة أخرى. فلا نستغرب أن تكون هذه العادة سائدة لدى ثمود. ونتيجة لهذا نحتمل احتمالا قويّا لا نجد ما يدفعه وينقضه، أنّ صالحا كان قد رأى هذه الظاهرة وغيرها لدى قومه، فأنكرها عليهم إنكارا شديدا وصار ينصحهم، فلا يستمعون لنصحه حتّى جاءه أمر السماء بأنّ هذا السلوك فرع على جذر مريض فيجب علاج ذلك الجذر حتّى تصلح الفروع. وذلك الجذر هو الشرك؛ وسيطرة فئة كهنة الأصنام والأوثان عليهم، مِمّا غذّى نفوسهم بالظلم والبطش والعدوان، ومن مظاهر ذلك البطش والظلم العدوان سوء توزيع المياه واستغلالها لإلحاق الأذى بالآخرين. ومن أجل إثبات ذلك عليهم إثباتا عمليّا كانت

---

(1) سورة القمر 28.

النّاقة وكان منعُها من الشرب، ثمّ قتل القوم لها فحلول العذاب عليهم وإخراجهم من متن التاريخ وأحداثه. ولا نستبعد أن تكون النّاقة من نوق صالح أو من نوق أهله، وأنّها كانت ذات ميزة ما جعلتها (آية) كما كانت بقرة آل إسرائيل الصفراء الفاقع لونها التي تسرّ النّاظرين آية، هي الأخرى.

* إن صالحا حين طالبه قومه ببيّنة على ما يدعوهم إليه، قال لهم: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرۡبٌ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾. مِمّا يؤكّد ما قلناه من أنّ التنزيل العزيز ليس فيه إشارة إلى أنّ الناقة قد نُتجت من صخرة في الجبل. وكلّ الذي جاء أنّ صالحا معه ناقة حدّد لها شربها في وقت معيّن. بناء على أوضحناه في النقطة السابقة. مع عدم إنكارنا لوقوع المعجزات فالحياة نفسها مجموعة من المعجزات المتلاحقة المترابطة أجزاؤها ترابطا وثيقا، ولكنّنا نعتقد أن تفسير أيّة ظاهرة بالقانون الطبيعي أولى من تفسيرها بما هو خارج عن ذلك القانون، إلّا بمجيء نصّ لا يقبل جدلا ولا يحتمل شكّا، كالذي نصّ عليه التنزيل العزيز في قصّة موسى، حين انشقّ له البحر وحين تحوّلت عصاه إلى أفعى تلقف ما كانوا يأفكون. وقد يكون معنى (آية) في هذا السياق: العلامة، أي إنّها علامة على صدق نبوّة صالح، بملاحظة ما سيؤول إليه أمرهم إنْ هم آذوها ومنعوها من الشرب أو قتلوها.

أما **في سورة النّمل**، فلا ذكر للنّاقة ولا عقرها، ونظنّ أنّها لو كانت جوهريّة في الأحداث التي وقعت لثمود لجاء ذكرها، هنا أيضا، فعدم ذكرها يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه من أنّها كانت اختبارا من جملة اختبارات تثبت للقوم ولِمَن يأتي بعدهم سوء صنيعهم ومدى الشرّ الذي تغلغل في نفوسهم فتجسّدت فيهم الأثرة والذاتيّة المغرقة في الطمع والجشع، حتّى إنّهم يستكثرون سقيَ ناقة خلقها الله (آية) وأرادها أن تكون (آية) على سوء سلوكهم، و(آية) على إهلاكهم في حالة عقرهم لها، إذ لا سبيل لهم بعد ذلك للنجاة، فهم لم يهلكوا لسبب واحد ووحيد هو عقرهم النّاقة، بل إنّ ذلك الفعل صار إعلانا منهم عن وصولهم إلى خطّ النّهاية في طريق الشرّ. ففي هذه السورة تركّز الحديث عن انقسام القوم إلى فريقين، فريق انتبه إلى الحق والحقيقة، وفريق تغافل عنها، أو لم يلتفت إليها، فأمّا المتغافلون فلا يُرجى من ورائهم خير، لأنّهم يعرفون الحقّ ويحيدون عنه. وأما غير الواعين أو غير الملتفتين

إلى الحق والحقيقة، فقد كان فيهم أمل أن يهتدوا، ولذا جاءت (بيّنة) تجسّدت في النّاقة التي صارت (فتنة) لتقدّم لهم بُرهانا على أنّهم يسيرون في طريق الشرّ، فآمن منهم مَن آمن. أمّا من ركب رأسه وأطاع هواه، وانضمّ إلى أولئك المعاندين المفسدين في الأرض، فحقّت عليه وعليهم كلمة العذاب بما كانوا يفعلون: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[1].

حيث نستخلص من أواخر هذه الآيات أنّ بيوتهم الموصوفة بما مرّ في سورتَي الأعراف وهود لم تُدمّر آنذاك، وبذلك انفسح المجال لمن آمن بصالح أن يبدأ من جديد في إنشاء حضارة خالية من العدوان والشرك والإفساد في الأرض. لتأخذ الدورة الحضاريّة مجالها مرّة أخرى.. وهكذا هو تاريخ البشر.

---

(1) سورة النمل 45 - 53.

مرحلة التأسيس الثّالث للعالَم

عصر النّبيّ إبراهيم

*** من سورة البقرة:**

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

من الواضح من متابعة ترتيب سور المصحف الشّريف أنّ مجريات قصّة النّبيّ إبراهيم وواقعاتها لم تُذكر بتفصيل إلا فيما بعد **سورة إبراهيم نفسها**. ذلك أنّ شذرات قليلة من هذه القصّة ذُكرت في كلّ **من سورة البقرة وآل عمران وإبراهيم والحج**. أمّا تفصيلاتها فقد جاءت ابتداء **من سورة العنكبوت** وهي **السّورة** التاسعة والعشرون بحسب ترتيب المصحف المبارك.

ونرى أنّ متابعة قصص القرآن توجب التقيّد بالنّصّ القرآني، **من** غير الدخول في متاهات كثير **من** الحكايات المرويّة، أيّا كان نصيبها من الصحة والواقع، أو الخطأ والخيال. فالنّصّ القرآني لا خلاف عليه، أمّا الروايات الأخرى بما فيها من أسماء أشخاص وأماكن فممّا وقع فيه خلاف واختلاف كبيران، لذلك لا نريد الجدال فيها، خاصّة وأنّها من المسائل الثانويّة جدا والتي لا تؤثّر على غايات القصّة وأسباب ذكرها في القرآن الكريم. فليس من المهمّ، مثلا، أن نعرف أسماء الذين آذوه وألقوه في النار، ولا المواد التي أوقدت بها النار، وكيف دخل إبراهيم فيها وكيف خرج، إذ إنّ مثل هذه التفصيلات التي لم يرد لها ذكر في التّنزيل العزيز، إضافة إلى عدم أهميتها، قد داخلها كثير من الخرافات والأساطير والخيالات الغريبة، حتّى ورد في بعض كتب الأقدمين أن السُّفْعَة الموجودة في الضفدعة سببها أنّها كانت تنقل الماء بفمها لتطفئ النار التي ألقي إبراهيم، عليه السّلام، فيها. وما أشبه هذه القضايا بالخلاف الذي شجر بين بعض القدماء والذي اتّخذ مظاهر العداء والنفور والتكفير بشأن النملة التي كلّمت النّبيّ سليمان، هل كانت ذكرا أم أنثى! ونعتقد أنّ تلك الخلافات والاختلافات، حتى لو كانت صادرة عن نِيّة طيّبة، خرجت عن المراد بالقصص القرآني، وشغلت النّاس عن الفهم الصحيح لغايات التّنزيل العزيز، وحتّى لو كان المنغمسون فيها بعض من كبار رجالات التراث، فإنّ ذلك لا يغيّر من الحقيقة المرّة شيئا. ونرى أنّ من أبرز غايات ذكر تفصيلات قصة النّبيّ إبراهيم، عليه السّلام، هو التأكيد على أنّ البيت آمِن ومَن دخله كان آمنا، ولعلّ دعاء إبراهيم ربّه أن يجعل (البلد كلّه آمنا) من أدلّة ذلك. فالأمن غاية غايات

الأديان، وهو من أولى ميزات الحضارات الحقيقيّة الجديرة بصفتها. ومن البديهي أن الأمن لا يقتصر على البيت الحرام ولا على مَن دخله، بل الأحرى أن تكون البلدان كلّها آمنة، وأن يكون أهلها جميعا آمِنين مطمئِنّين. ودليلنا على هذا قوله تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [1] فذكرُ الله ليس الغاية، بل الغاية اطمئنان القلوب، وذلك الاطمئنان لا يتحقّق، بموجب الآية المذكورة، إلّا بذكر الله. لأنّ ذكر الله يمنح الإنسان قدرة على الصّبر والتحمّل والقناعة والأمل، ويحثّه على القيام بواجباته التي خُلق من أجلها، طلبا للعلم النافع، وأداء للعمل الصالح، إعمارا للأرض، وتعاونا مع البشر لِما فيه الخير والصّالح العامّ. ولقد سار إبراهيم الخليل بموجب هذه الأُطُر، فصارت سيرته بدايةَ مرحلة ثالثة من مراحل التطوّر البشريّ، بعد مرحلة الخلق الأوّل المبتدئ بهبوط آدم من الجنّة، ومرحلة الخلق الثّانِي المبتدئ من هبوط نوح من سفينته. ثم المرحلة الثالثة، وهي مرحلة الأديان الإبراهيمية.

ومن أجل تثبيت المعنى الوارد في الآيات السّابقة، تعيد الآية 135 من هذه السّورة ما سبق أن ذكرته الآيتان 111 و112 من السّورة نفسها. فالقائلون كونوا هودا أو نصارَى تهتدوا، هم أنفسهم الذين قالوا إنّ الجنّة حكر عليهم. ويؤكد القرآن لهم ولغيرهم أنّهم مخطئون. فأصل هذين الدّينين، وأصل الإسلام، أيضا، واحد، وهو دين إبراهيم الخليل، الذي كان حَنِيفا وما كان من المشركين. والحنِيف هو الذي على صراط مستقيم. وبمقارنة هذه الآية بالآية 111 نرى أنّ السياق متقارب، فتلك نقلت عنهم أنّ الجنّة حكرٌ لهم من دون النّاس. وهذه نقلت عنهم أنّ الهُدَى هو الذي عندهم فقط. وكما أنّ الآيات من 112 وإلى 134 حاورتهم وأثبتت لهم، وخاصّة في عرض بعض مجريات قصّة النّبيّ إبراهيم، أنّ هذا الذي يقولونه لا نصيبَ له من الصّحّة، فإنّ الآيات بدءا من 135 وإلى غاية الآية 141 تتناول الموضوعَ ذاته ولكنْ من زاوية أُخرَى نتبيّنها هنا. علما بأنّ الآية 141 التي تختم هذا الحوار، هي ذاتها الآية 134 التي ختمت حوار السّياق الأوّل.

---

(1) الرّعد 28.

ثم تأتي الآية 136 من سورة البقرة لتبيّن ملامح (مِلّة إبراهيم):

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ .

هذه الآية كأنّها صياغة جديدة للآية الرّابعة من هذه السّورة، وإذا كانت تلك في صفات المتّقين، فإنّ القرآنَ، هنا، يطلب من المسلمين، أن يُعلنوا إيمانهم بالله وما أُنزل إليهم وما سبق أن أُنزل على الأنبياء والأسباطِ جميعا، وأنّهم مسلمون لكلّ ما أنزله الله على أنبيائه. فأمّا الأسباط فهم أولاد يعقوب أو حفدته، على اختلافٍ بين المفسّرين والمؤرّخين والرواة.

﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ .

فإنْ آمن القومُ بِما جاء ذِكرُهُ في الآية 136 وهو ما آمنَ به الرّسول وأتباعه من المؤمنِين، فقد اهتدوا. وإنْ لم يؤمنوا بذلك، فهم في شقاقٍ وخلافٍ. وأمرُهم موكولٌ إلى ربّهم، وهو الذي سيكفي النّبيّ ما يقولون وما يفعلون، فهو سميع يعلم ما يقولون، وعليمٌ بِما يُبطنون وما يُظهرون.

وهذه هي صبغة الله، أي: دينُه القويم، وفطرته التي فطر النّاس عليها. ويكفي أنّها صِبْغَةٌ من الله، فأيّة صبغة تشبهها أو تُدانيها؟! فهي طبيعةٌ في الإنسان. وكلّ ما كان طبيعيّا أو منسجما مع الطّبيعة كان أفضل من غيره وأحسن.

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾ .

يدعو القرآنُ النّبيّ أن يُنكِرَ عليهم جدالهم في الله. فالله ربُّ الجميع. وكلّ فريق من النّاس له أعمالُه ولن يُسأل عن أعمال الآخَرينَ. ويطلب من النّبيّ أنْ يُعلِنَ لهم أنّه ومَن معه مخلصون لله، فلا مجال للجدال في هذا الموضوع. ثم يسائلهم، منكِرا عليهم ادّعاءهم أنّ الأنبياء السّابقين، إبراهيم وإسماعيلَ وإسحاق ويعقوبَ والأسباطَ، كانوا هودا أو نصارى. ذلك أنّ الله أعلمُ من أولئك المتقوّلينَ. ثمّ تقرّر الآية قاعدة لا خلاف فيها هي أنّ الذي عنده شهادةٌ يكتمها من أجل أن يغمُضَ الحقُّ فلا يَبينُ للنّاس هو ظالمٌ، بل هو من أكثر النّاس ظُلما. إذ إنّ كتمان شهادة الحقّ يُلحق أضرارا فادحة بالنّاس، حيث يدفعهم في طُرُق الباطل والضّلال. وهم في فعلتهم تلك لا يستفيدون شيئا كثيرا، لأنّ الله ليس غافلا عمّا يعملون. أمّا الآية 141 فهي ذاتُها الآية 134 باللّفظ وبالمعنى، وقد سبق أن أوضحناها في موضعها..

ثم تأتي حادثة أخرى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ .

هذا واحد من الذين آتاهم الله المُلْكَ فإذا بهم يسيرون به إلى غير الحقّ، فقد أخذ يجادل النّبيّ إبراهيم في الله. فزعم أنّه يُحيي ويُميت، فلمّا فاجأه إبراهيم بقوله انّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأْتِ بها من المغرب، بُهت الذي كفر، أي انقطعت حجّته فلم يستطع أن يردّ عليه. والله لا يهدي الظّالمين. وإنّما صار هذا واحدا من الظّالمين لأنّه كفر بنعمة الله الذي آتاه المُلكَ، والملكُ نعمة من الله، لو كان هذا الذي كفر على شيء من العقل والحكمة.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ .

وثمّة مثَل آخر عن النّبيّ إبراهيم، نفسه، في مسيرته نحو الحق، إذ سأل ربّه أن يُرِيَهُ كيف يحيي الموتى، وهذا السّؤال لم يكن عن شكّ، وإنّما لزيادة الاطمئنان.

فأمره ربّه أن يأخذ أربعة من الطير، ثمّ يقطّعها إلى أجزاء صغيرة ويضع كلّ جزء على جبل، ثمّ يدعوها، فيراها تلبّي دعوته حيّة تُرزق.

*** من سورة مريم:**

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾.

حيث تذكر السّورة جانبا من قصّة إبراهيم الذي كان نبيّا مصدّقا بما أنزله الله عليه. والصّدّيق هو العظيم التصديق الذي لا يشكّ أبدا بصحّة ما يُوحى إليه.

النّبيّ إيراهيم حاول أن يُنقذ أباه وقومه من عبادة الأصنام، فابتدأ بأبيه يسأله عن السبب الذي يجعله يعبدها وهي لا تسمع ولا تُبصر ولا تُغنِي عنه شيئا؟ وأخبره أنّه قد أتاه من العلم بالله ما لم يأتِ لأبيه ولقومه، وسأله أن يتّبعه ليهديَه إلى الصّراط المستقيم. وأعلن له عن محبّته وحرصه على تحقيق الخير له، بأن لا يعبد الشّيطان، فإنّ الشّيطان عدوّ لله. وما هذه النّصائح إلّا لأنّ إبراهيم يخاف على أبيه أن يَمَسّه عذاب من الرّحمن، فيكونَ للشيطان وليّا مطيعا.

ولكنّ أباه أخذته العزّة بالإثم، فأنكر على إبراهيم أن يرغب عن آلهته، أي أن يبتعد عن عبادتها. وأمره أن ينتهي عمّا هو قائله، وإلّا فسيرجمه، تعبيرا عن العذاب الذي ينوي أن يُنزله به. ثمّ طرده وتبرّأ منه. فما كان جواب إبراهيم إلّا أن قال لأبيه: (سلامٌ عليك، سأستغفر لك ربّي) فإنّ الله (كان بي حفيّا) أي أكرمنِي وأحبّنِي وآمل

أن يُجيب استغفاري لك. أمّا أنا فسأعتزلكم وما تعبدون من دون الله، وأدعوه، فعسى ألَّا أكون بدعائه مُتعَبا ضَجرا متضايقا مِمّا تصنعون.

فلمّا اعتزلهم إبراهيم وما يعبدون من دون الله، وهب الله له إسحاق ويعقوبَ وجعلهم ثلاثتهم من الأنبياء، ووهبهم من رحمته، وأظهر كلمتهم ونصرهم على مناوئيهم.

* من سورة العنكبوت:

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

هنا يجمع السّياق بين ذلك الماضي، والحاضر الذي يعيش فيه النّبيّ، لتشابه ما كان يفعله المشركون أيّام النّبيّ إبراهيم، وما يفعله المشركون على زمن الرّسول.

فيخبرهم أنّ الآلهة التي يعبدونها من دون الله لا تملك لهم رزقا، فليبتغوا الرّزق عند الله وليعبدوه، وليشكروه، فهم إليه يرجعون.

فإنْ كذّبوا بهذا الذي يُقال لهم، فليس ذلك بأمر غريب، إذ سبق أنْ كذّبت أُمم من قبلهم، وليس على الرّسول إلّا البلاغ الواضح المُبين، حتّى لا يزعموا أنّ البلاغ لم يكن واضحا أو أنّهم لم يفهموه.

ومن أجل توكيد فهمهم له، وإقامة الحجّة عليهم، يثير القرآن انتباههم إلى كيفيّة ابتداء الخلق وكيفيّة إعادته وهو أمر يسيرٌ على الله، إذ لا يصعب عليه أمر. ثمّ تفصّل الآية اللّاحقة معنى إعادة الخلق بأنّه إنشاء الحياة الأخرى، أو النّشأة الأُخرى، والله قديرٌ على ذلك. و(قدير) صيغة مبالغة في (قادر) لتصوير شيء من عظمة تلك القدرة. وفي النّشأة الأخرى ينال العقابَ مَن يستحقّه، وينال الرّحمة مَن تأهل لها بحسن عمله في الدّنيا. ولا يستطيع أحد أنْ يمنع العذاب أو الرّحمة عَمّن يستحقّ أيّا منهما. وهذا معنى (يعذّب مَن يشاء ويرحم مَن يشاء) فالله شاء أن يعذّب من يستحقّ العذاب، ويرحم من يستحقّ الرّحمة، تفضّلا منه، تعالى. وليس من أحد بمستطيع أن يُعجز الله أو أنْ يستعصي عليه.

تعود السّورة إلى قصّة النّبيّ إبراهيم، ليتواصل دمج الماضي بالحاضر، ولأنّ إجابات قوم إبراهيم، هي ذاتها إجابات قوم النّبيّ. فتعرض السّورة تلك الإجابات ومطالبتهم بقتله وحرقه فأنجاه الله من النّار. وفي هذه الحادثة آيات للمؤمِنين تزيد من إيمانهم وترسّخ من اقتناعهم. ولذا قال إبراهيم لقومه، ما يُراد من قوم النّبيّ أن يسمعوه أيضا: إنّهم اتّخذوا من دون الله أوثانا يجتمع كلّ مجموعة منهم حول واحد منها. ولكنّهم يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضا، وهو ما أجملته الآية 43 من السّورة السّابقة (الرّوم) بلفظ (يصّدّعون). ويثوي جميعهم إلى نار جهنّم وليس لهم من ناصرين. فآمن لوط بنبوّة إبراهيم، وأعلن أنّه مهاجر إلى ربّه. وهي هجرة معنويّة، فلقد ظلّ في قريته، وإنّما أراد أنّه هجر ما يفعله قومه من سوء أعمالهم التي تصفها الآيات اللّاحقة. ووهب الله لإبراهيم، جزاء صبره، إسحاق ويعقوب، وجعل في ذرّيّته النبوّة والكتاب، وآتاه أجره في الدّنيا، وإنّه في الآخرة لَمِن الصّالحين. ومن الواضح أنّ المراد من ذرّيّته مَن صلح منهم بحكم الآية 124

من سورة البقرة: ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

* من سورة الأنعام:

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

* من سورة الأنبياء:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا

إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

يضيف هذا المقطع إضافة جديدة إلى مجريات قصّة النبيّ إبراهيم الذي يُنكر على أبيه وقومه عبادة الأصنام، ويحطّمها ما عدا كبيرهم، في محاولة لإثبات أنّ تلك الآلهة لا تستطيع ردّ الضرّ عن نفسها، فكيف تنفع غيرها أو تضرّه. واعترف القوم بهذه الحقيقة، ولكنّ سدنة الأوثان وكهنة الأصنام، وحرصا منهم على بقاء مصالحهم الذاتيّة الضيّقة، حثّوا على حرق إبراهيم دفاعا عن الأصنام والأوثان. فأنقذه الله منها ومنهم.

*** من سورة الشعراء:**

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ

﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

* من سورة الصّافّات بعد الانتهاء من قصّة نوح:

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ .

والنّبيّ إبراهيم من شيعة نوح، إذ توصّل إلى معرفة الله بقلبه السّليم ونيّته الصافية، فعرف ربّه وتوجّه إلى قومه يُنكر عليهم عبادة الأصنام. وجرى ما جرى بينه وبينهم فلمّا لم يستجيبوا له، اضطرّ إلى أن يحطّم تلك الأصنام ليُثبت لقومه أنّها لا

تنفع ولا تضرّ، فأوقد له قومه نارا ليحرقوه بها فأنجاه الله. ثمّ وهب له غلاما حليما. وابتلى إبراهيمَ ربّه بأن أراه رؤيا أنّه يذبح ولده الذي رُزِقَه على كِبَرٍ. فلمّا استجاب إبراهيم وابنُه للرّؤيا فداه الله (بِذِبْحٍ عظيم). وذلك لأنّه، أيضا، كان من المحسنِين. وأبقى الله ذكرَه مبجّلا محترما بين النّاس عبر الأزمان والعصور. ورزقه إسحاق نبيّا من الصّالحين، وبارك الله عليهما. وأمّا ذرّيّتهما ففيهم المحسن وفيهم الظّالم لنفسه. بحيث نفهم أنّ عدم الإحسان ظلمٌ للنّفس قبل أنْ يكون ظُلما للآخرين.

*** من سورة هود، بعد الانتهاء من قصّة ثمود:**

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

*** من سورة إبراهيم:**

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ

وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

كما ذُكر النبيّ إبراهيم بسور أخرى، تضفي إيضاحا على ما مرّ في الآيات السابقة. كما **في سورة آل عمران** 95 - 97، وسورة **التوبة** 114، وسورة **الحجر** 49 - 56، **وسورة الحج** 26 - 27، وسورة **الذاريات** 24 - 30، وغيرها، مِمّا نحجم عن ذكرها، هنا، منعا للإطالة، ولأننا سنتطرق إلى معانيها ودلالاتها لاحقا.

****

إذا كنّا قد لاحظنا في قصص الأنبياء الذين سبقوا إبراهيم أنّ كلًّا منهم، باستثناء النبيّ نوح، بُعث إلى قوم معيّنين وفي بقعة محدّدة من بقاع ما صار يُعرف بالجزيرة العربيّة، حيث أُرسِلَ النبيّ هود لعاد، وصالح لثمود، فإنّ إبراهيم، وبحكم تطوّر الحياة وانتشار النّاس في أرجاء متعدّدة، قام بأداء رسالته في أكثر من مكان، فكأنّه أعاد سيرة الأنبياء الذين سبقوه جميعا، وأضاف إليها أمورا أخرى لأقوام آخرين، هم أحفاد أولئك السابقين بعد أن انتشروا في المناطق الواقعة بين جنوب الجزيرة العربية وامتداداتها الشمالية والشمالية - الشرقية، في بلاد الرافدين عموما، وبابل خصوصا، وكذا في بلاد الشام، ومنها فلسطين، وانحدارا إلى مكّة المكرّمة حيث شيّد البيت الحرام على الأسس التي كان قد أقيم عليها قبلا. وبعده بدأ الحج إلى مكّة، وصار لإبراهيم مقام يتّخذه الحجّاج مصلّى لهم.

وبذلك نلاحظ أنّ تواريخ الأمم في القرآن الكريم انقسمت إلى ثلاثة تواريخ، بدأ أوّلها بظهور آدم، حيث بدأ الجنس البشري بإعمار الأرض ليصبح الإنسان خليفة الله في أرضه. وبدأ التاريخ الثاني بظهور نوح الذي عمّت دعوته الأرجاء التي كانت مسكونة آنذاك، وفيها جميعا حدث الطوفان الذي سبق أن تحدّثنا عنه. وبنزول نوح ومَن معه واصل البشر مسيرتهم الحضاريّة. وكلّما زاغ فريق من النّاس عن الطريق القويم ظهر أنبياء يعدّلون من مسارهم. ولا نكاد نعرف عن أكثر أولئك الأنبياء شيئا سوى أنّ كلًّا منهم كان مرسَلا إلى قوم معيّنين، كما مثّلنا بالنبيّين هود وصالح.

بظهور إبراهيم الخليل انتهت تلك المرحلة، لتبدأ مرحلة عامّة شاملة للبشريّة كلّها، إذ جُعلت في ذريّته النبوّة والكتاب، بعد أن ابتلاه ربّه بكلمات فأتَمّهنّ وجعله إماما للنّاس، وتعهّد له ربّه أن العهد الإلهيّ لن يصل إلى الظالمين من ذريّته، بل إلى

أهل العدل منهم. على ما سنرى فيما يأتي من صفحات.

لذا كان على النبيّ إبراهيم الخليل أن يتحرّك في دائرة جغرافيّة واسعة، وأن يختلط بأقوام عديدين متناقضي الأديان ومختلفي المعتقدات، وكان عليه أن يحاورهم ويحاججهم وينصحهم، ويأخذ كلّ قوم منهم بالرفق واللّين واللّطف لأنّه يهدف للخير فلا بدّ أن ينهج النّهج الخيّر، مراعيا، في ذلك، مستوياتهم العقلية المتفاوتة من قوم لآخرين.

ونظرا لسعة المساحة التي تحرّك فيها إبراهيم، وتعدّد الأقوام الذين عايشهم وأدّى رسالته بين ظهرانيهم، فإنّ قصّته لم ترد متسلسلة بحسب سور القرآن، فالذي جاء **في سورة البقرة** ربّما مثّل تلك القصّة من وسطها أو من أواخرها، والذي جاء **في سورة آل عمران** إشارات إلى بعض شأنها، وكذلك ما جاء **في سورة الحج وسورة إبراهيم**.

وقبل أن نبدأ بعرض مجريات قصّته، لا بدّ أن نشير إلى خلاف شجر بين القدماء، من مسلمين وغيرهم، في تسميته بإبراهيم، والقوم الذين ينتمي إليهم، والدين الذي جاء به. وهو خلاف نرى من الضرورة بمكان أن نحسم القول فيه، بناء على ما هو متوفّر بين أيدينا من حقائق قرآنية وعلمية.

أمّا عن لفظ إبراهيم، فقد اختُلف فيه، ما بين قائل بعُجمته، وقائل بعربيّته، وقائل بأنّه عربيّ يوافق بعض اللغات الساميّة، على هذه الصور:

* ابن عبّاس: إبراهيم، بلغة توافق السّريانيّة [1].

* الخليل: أما إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وهُرمز وفيروز وقارون وفرعون، وأشباه هذه الأسماء، فإنّها لم تقع في كلامهم (أي كلام العرب) إلا معرفة، على حدّ ما كانت في كلام العجم. ولم تُمَكَّن (أي لم تكن مصروفة) في كلامهم.. ولم تكن من أسمائهم العربيّة، فاستنكروها ولم يجعلوها بمنزلة أسمائهم العربيّة [2].

---

(1) اللّغات في القرآن، المنسوب لابن عبّاس 18.

(2) الكتاب المنسوب لسيبويه 235/3.

* المبرد: تصغير إبراهيم أُبَيره، وذلك لأن الألف من الأصل، لأن بعدها أربعة أحرف أصول، والهمزة لا تلحق بنات الأربعة زائدة في أوّلها [1].

* أبو العلاء المعري: إبراهيم اسم قديم ليس بعربي [2].

* الكرماني: إبراهيم مشتقّ من البَرْهَمَة، وهي شدّة النظر [3].

* الخازن: إبراهيم: اسم أعجمي، ومعناه أبٌ رحيم [4].

* أبو حيان: ابراهيم: اسم علم أعجميّ، قيل، ومعناه بالسريانيّة، قبل النقل إلى العربيّة، أبٌ رحيم [5].

* الفيروزبآدي: إبراهيم: اسم علم أعجمي.. وأكثر المحققين على أنه اسم جامد غير مشتقّ. وقال بعض المتكلّفين انه اسم مركّب من البراء والبُرء والبراءة، ومن الهَيَمان والوهم والهمّة، فقالوا: بريء من دون الله، فهام قلبه بذكر الله. وقال بعضهم: برأ من الزلّة فهمّ بالحلول في محلّة الخلّة. وقيل: برأه الله في قالب القُربة، فهمّ بصدق النيّة إلى ملكوت الهمّة [6].

وقال بعضهم: "إب" بالسريانيّة معناه "الأب" و"راهيم" معناه الرحيم، فمعناه: أبٌ رحيم.

* رشيد رضا (بعد أن ينقل ما في التوراة، يقول): وقالوا: انّ معنى إبراهيم أبو الجمهور العظيم، أي أبو الأمّة، وهو بمعنى تبشير الله تعالى إيّاه بتكثير نسله من إسماعيل ومن إسحاق. ولا ينافي كسر همزته، فقد عُلم أنّ أصلها الفتح، وأن "إب" المكسورة في إبراهيم هي أب المفتوحة في "أبرام" وهو يطلق على إبراهيم أيضا. فالجزء الأول منه عربيّ والثاني كلدانيّ. أو من لغة أخرى من فروع الساميّة أخوات العربيّة التي هي أعظمها وأوسعها، حتى جعلها بعض علماء اللغات هي الأصل

---

(1) الصحاح للجوهري 1871/5.

(2) المعرّب للجواليقي 61.

(3) الإتقان للسيوطي 69/4.

(4) لباب التأويل للخازن 88/1.

(5) البحر المحيط 372/1.

(6) بصائر ذوي التمييز 32/6.

والأمّ لسائر تلك الفروع الساميّة، كالعبريّة والسريانيّة.. وصرّح بعضهم بأنه سريانيّ الأصل ثم نُقل، وبعضهم بأنّ معناه "أبٌ راحم أو رحيم". وعلى هذا يكون جزءاه عربيين بقلب حائه هاءً كما يقلبها جميع الأعاجم الذين لا ينطقون بالحاء المهملة كالإفرنج، وتركيبه مزجيّ [1].

نخرج من هذه الجولة في كتب المفسرين واللغويين والنحويين، بأنّ معظمهم رأى أن لفظة إبراهيم لفظة أعجمية، وهي ممنوعة من الصرف للعجمة والعلَميّة، أي لأنها أعجميّة دالّة على اسم علَم. وأنّ هناك مَن رأى أن معناها "أب راحم أو رحيم" أو "أبو الجمهور". وذهب قليل منهم إلى أنّها عربيّة أو أنّ نصفها عربيّ ونصفها أعجميّ، ثم اختلفوا في عجمتها، ما بين سريانيّة وكلدانيّة وعبرانيّة!

والذي نراه في هذا الشأن أن اسم "إبراهيم" اسم عربيّ صحيح، وذلك لأنّ النبيّ ابراهيم الخليل، نفسه لم يكن أعجميّا، لا سريانيّا ولا كلدانيا ولا عبرانيّا. ويقرّر القرآن الكريم، في قصّة إبراهيم، أمورا عديدة تتّصل بهذا الموضوع يجب التوقّف عندها وإمعان النظر فيها، وهي:

1 - إنّ إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيّا، وذلك قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [2]. فاليهودية والنصرانية ظهرتا بعد عصر إبراهيم الخليل بقرون متطاولة، وذلك ما تثبته الدراسات التاريخيّة العلميّة المعاصرة، وذكره القرآن الكريم أيضا: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [3].

وقد يُعترض علينا بأن هذا لا يكفي لإثبات أن إبراهيم عربيّ الأرومة والأصل، من حيث إنّ عدم كونه يهوديا ولا نصرانيّا لا ينفي انتماءه إلى العبرانيين أو

(1) المنار لرشيد رضا 534/7.

(2) سورة آل عمران 67.

(3) سورة آل عمران 65.

الكلدانيين أو غيرهم من أقوام تلك الأزمنة. وقد ذكر بعض الأقدمين، وبعض الباحثين المعاصرين أنّه عبرانيّ. غير أنّ الواقع التاريخي لا يساعد المعترضين، من حيث افتقارهم إلى أيّ سند تاريخي يثبت دعواهم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ تلك الأقوام متفرّعة أصلا عن العرب القدماء، والأدلّة كثيرة على هذه الحقيقة العلميّة التاريخيّة التي لها مظانّها الخاصّة ببحثها. ولا ندري من أين جاؤوا بالقول أنّ لفظة إبراهيم أعجميّة أو أنّ نصفها أعجميّ؟! ولا ندري ما الذي يمنع من أن نقول إنّها عربيّة لفظا ودلالة! وهل ثمّة أبٌ في الدنيا كلّها يسمّي ابنه باسم نصفه من لغة، ونصفه الآخر من لغة أخرى؟ ولماذا يفعل ذلك؟!

وكيفما يكن الأمر، فاننا، حين نقرّر، بناء على هذا وعلى النقاط التالية أن إبراهيم كان عربيا، لا نريد من ذلك تفضيل قوم على قوم، فـ ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [1] و﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [2] والتقوى هي معيار التفاضل بين النّاس، وإنما نستدلّ باسمه على القوم الذين ينتسب اليهم، كما نستدلّ بانتمائه إلى قوم معيّنين، هم العرب، على أنّ اسمه اسم عربيّ، إذ لا فصلَ بين الشخص واسمه. فلفظة (إبراهيم) عربيّة أيضا. ولم يكن أهل تلك الأزمان يسمّون أولادهم بأسماء أعجميّة أو أسماء ليس لها معنى!

2 - قوله تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [3].

فإبراهيم الخليل، على مذهب بعض المفسّرين، هو الذي أطلق هذه اللفظة على قوم معيّنين، وليس من المعقول أن تكون كلمة (مسلمين) أعجميّة! فان كان هو أعجميّا فلا ندري كيف يستخدم كلمة لا يشكّ أحد في أنّها عربيّة! ثمّ إنّ وصف إبراهيم بأنّه أبو العرب كافٍ للدلالة على القوم الذين ينتسب اليهم. فقد جاء في الآية السابقة (ملّة أبيكم إبراهيم) والمخاطَبون هم العرب المعاصرون للنبي ممّن دخل الدين الجديد وصار مسلما. وليس من المتصوّر أن هؤلاء القوم والذين هم (عربٌ) يكون

(1) سورة الطور 21.

(2) سورة المدّثّر 38.

(3) سورة الحج 78.

لهم (أب) من قوم آخرين. ولا نستسيغ حمل اللفظة على المجاز بزعم أن لفظة أبيكم قد تدلّ على أبوّة معنويّة، كما لو قلتَ أن أرسطو مثلا هو أبو الفلاسفة المسلمين. فالمجاز هنا واضح تماما، لأنّ أرسطو لم يكن مسلما، وأولئك الفلاسفة مسلمون، فهو أبوهم من حيث الفكر، فكما يؤثر الأب بأبنائه كذلك كان تأثير أرسطو بالفلاسفة المسلمين. أمّا في الآية فلا دليلَ على أنّ ذلك المعنى هو المراد، بل الواضح الجليّ أنّ إبراهيم أبو المسلمين فكرا ونَسبا. ولا يقدح في هذا أنّ بين عصر إبراهيم وعصر النبي الأكرم، محمّد بن عبد الله، مجموعة كبيرة من أنبياء أقوام أخرى، لأنّ تلك الأقوام الأخرى فروع على العرب القدماء، على ما ذكرناه قبل قليل اعتمادا على الدراسات العلميّة النزيهة.

3 - الأدعية التي توجّه بها إبراهيم الخليل إلى الله تعالى، مذكورة بلفظها في التنزيل العزيز وليس فيها كلمة أعجميّة واحدة، بل إن ما حكاه التنزيل العزيز منها يمثّل أعلى درجات الفصاحة والبلاغة. ولا أدري أيّة عجمة في مثل: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [1] ! ولم يثبت أبدا أنه (عليه السلام) أو غيره من الأنبياء قد دعوا الله بلغة غير اللغة العربيّة.

نكتفي بهذه النقاط الثلاث، لننتقل إلى تحليل لفظة "إبراهيم" وتوضيح ما أشرنا إليه سابقا من اختلاف القدماء في معناها. وبدءا نتساءل: هل يمكن القول بأنّ الذين قرروا أن لفظة إبراهيم معناها "أب راحم أو رحيم" قد جانبوا الصواب؟ يبدو أنّهم إنما قرروا ذلك لأنّهم عاشوا في فترات ساد فيها الاعتقاد بأنّ إبراهيم أبو الأنبياء: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ ﴾ [2]. وأنه

---

(1) سورة إبراهيم 35 - 37.

(2) سورة الحديد 26.

خليل الله، تعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (1). فلا عجب أن يطلقوا عليه صفة (أب راحم أو رحيم). ولكن يجب أن نتمعّن في التسمية ذاتها. فآزر، حين سمّى المولودَ بـ(إبراهيم) لم يكن يدري، أنّ هذا الوليد نبيّ أو أنّه سيصير نبيّا، كما أنّ إبراهيم الخليل لم يصبح أبا للأنبياء، ولا أبا رحيما، إلا بعد أن جاءته رسالة السماء. بينما كان قد سمّي بإبراهيم منذ ولادته، على جري عادة الناس في تسمية أبنائهم. وبحسب القصص القرآني فإنّ أباه (آزر) كان مشركا، فلا ندري كيف استطاع (آزر) أن يعرف أن ابنه سيصبح نبيا وأبا للأنبياء وأبا رحيما، ليطلق عليه تلك التسمية! علما أنّ آزر ظل مشركا حتّى إنّ إبراهيم الخليل قد تبرأ منه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ (2). ولو كانت هذه التسمية قد جاءته بعد نبوّته بحيث طغت على اسمه الذي أطلق عليه حين ولادته (والذي لا دليل عليه ولا إشارة اليه)، فلربّما أمكن الأخذ بالرأي القائل أن معناه "أب راحم أو رحيم" ولكن الأمر ليس كذلك، فإبراهيم منذ طفولته هو إبراهيم، من قبل أن يصبح نبيا وأبا للأنبياء وأبا رحيما. ولكن، ألا يجوز أن يكون آزر أو غيره من قومه قد سمّى المولود الجديد بإبراهيم تفوّلا، على ما كان الناس، وما زالوا، يفعلونه، كأن يسمّون أولادهم بشجاع وبطل وسعيد ورحيم وغير ذلك؟! من دون أن يدرك الذين يطلقون تلك الأسماء حقيقة ما سيصير اليه هؤلاء المواليد في مستقبل إيامهم؟! ولكنّ هذا يظلّ احتمالا تنتقص من قيمته أمور، هي:

* إنّه لا دليلَ عليه.

* لا علاقة لـ(إبراهيم) بـ(أب رحيم).

* إن تسمية الأب لابنه تمثّل غالبا شيئا من طموح الأب وأمله المعقود بابنه. ولم يكن من طموح الأب إطلاقا أن يصير ابنُه نبيّا. أمّا اذا كانت التسمية على التفوّل

(1) سورة النساء 125.

(2) سورة التوبة 114.

بالبرّ بالوالدين فمن الأجدر أن يسمّي ابنه (الابن البارّ) بوالديه، مثلا، قبل أن يتطلّع إلى كونه (أبا رحيما) بأبنائه أو (أبا للجمهور الأعظم)!

* فأمّا التسمية على أنّه (أبو الجمهور الأعظم) فدالّة على أنّ الأب كان يتوق إلى أن يسود ابنُه قومَه. غير أنّ مجريات حياة النبيّ إبراهيم، تكذّب هذا الافتراض، لأنّ الأب وقف منه موقفا معاديا حين سفّه آلهتهم ودعاهم إلى دين جديد، وهدّده بالرّجم، فأين ذلك التّوق من هذا السلوك؟!

* إنّ أوّله (إ) المكسورة لا (أ) المفتوحة التي يبدأ بها لفظ (أب). فلو كان اسمه (إبراهيم) بفتح الهمزة فلربّما اكتسب الافتراض شيئا من القوّة يساعد مَن يريد الأخذَ به. ونميل إلى الاعتقاد بأن بعض الأقدمين لمح تقاربا بين لفظة "إبراهيم" وتركيب "أب رحيم" فلم يتردّد عن تفسير اللفظة ذلك التفسير، بملاحظة ما سبق أن ذكرناه في النقطة الثانية من سيادة الاعتقاد بأنّ إبراهيم أبو الأنبياء ولا بدّ لأبي الأنبياء أن يكون أبا رحيما.

ولو صحّت مثلُ هذه التخريجات التي تربط بين (إبراهيم) و(أب رحيم) لجاز القياس عليها، فيصحّ القول، عندها، انّ أصل اسم (أبرهة) الذي قاد الجيوش لهدم الكعبة، هو (أبٌ رَهَةٌ) أو (أبو رَهَةٍ) مثلا، وحينذاك يُقال أن الرّهة تخفيف (رئة) أو أنّ معناها (السعة) على ما في بعض المعجمات اللّغوية، فيكون معنى اسم أبرهة (أبا الرئة) أو (أبا السعة) باعتبار أنّه كان يحكم أرضا واسعة. أو أنّه أبو الصحة لأنّ (برةَ) دالّ على البرء من المرض.

وجريا على ذلك يحقّ لمن شاء أن يقول انّ أصل لفظ (إبراهيم) (إبَر) و(أهيم) فالـ(إبَر) جمع (إبرة) وهي هذه المعروفة مما يستعمله الخيّاطون، و(أهيم) أي أضلّ وأتوه، فيكون معنى الاسم (إبَر التوهان). وأيضا يمكن أن يقال (إبر) و(هيم) والهيم من العطش، فكأنّ معناه (إبر العطش) أي آلامه ووَخَزاته وشدّته! وكل هذا تخليط لا دليل على صوابه. وإنّما دعانا للتعرّض له أنّ بعض الكاتبين مولعون بمثل هذه التخريجات التي لا دليل عليها، وكأنّهم يتلاعبون باللّغة بناء على تصوّرات مسبقة ربّما قادهم إليها تشابه الأصوات بين الكلمات. ولقد رأينا من بعضهم عجبا حين يحلّلون كلمة (التلفون) الأجنبيّة ويعيدونها إلى كلمتين عربيّتين،

هما (تَلَّ) و(فَنَّ) وغير هذا كثير لا يدعو إلّا إلى نصح هؤلاء بالإقلاع عن هذه التصوّرات التي لا نصيب لها من العلم اللّغوي.

أمّا القول بأنّ أصله (أبراهام) بفتح الهمزة، فيجب أن يكون معلوما أنّ هذه اللّفظة بكسر الهمزة أيضا، وإذا كانت بفتحها، أو بكسرها، فلمَ لا تكون فرعا ويكون الأصل لفظة (إبراهيم) خاصّة وأنّ كثيرا من ألفاظ اللّغات المعروفة بالساميّة من أصل عربيّ لا شكّ فيه، على ما أثبتته دراسات علم اللّغة المقارن؟!

ونشير هنا إلى أن وصف إبراهيم بالرحمة ليس غريبا، ففي الآية التي ذكرناها قبل قليل: ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] يدعو إبراهيم بالرحمة والغفران حتّى لأولئك المعاندين الذين عصوه ورموه في النار لإحراقه، على عكس ما هو شائع بين الناس من أن العصاة لا يستأهلون غفران ذنوبهم وإسباغ الرحمة عليهم، ولكن هذه هي خُلُق إبراهيم الخليل، وخُلُق من اتّبعه بحق وحقيق: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [2]. ولكنّ هذا لا يقود إلى الاقتناع بأنّ معنى لفظ إبراهيم "أب راحم أو رحيم" إلّا إذا أثبتت الدراسات أن لفظة (إب) هي ذاتها لفظة (أب) وأنّ (راهيم) هي ذاتها (رحيم) أو هي لهجة في هذه اللفظة. فالحاء هي الأصل، والهاء قلبٌ لها عند مَن لا يُحسن نطق الحاء، على ما هو ملحوظ إلى الآن. ثمّ إنّ اللّغة العربيّة تخلو من لفظة (إب) المكسورة الهمزة، كما أنّ الجذر (رهم) فيها والذي يُفترض أنّ (راهيم) مشتقة منه ليس له علاقة قويّة بمعاني الجذر (رحم) الذي جاءت منه لفظة (رحيم). فالرِّهمة: المطر الضعيف الصغير القطر. وأرهمت السماء إرهاما: أمطرت. والمرهم: طِلاءٌ يُطلَى به الجرح، وهو ألين ما يكون من الدواء. وراهيم: اسم فحل (أي حصان) من فحولهم. ورُهم، بالضمّ: اسم امرأة. وربّما أمكن تلمّس علاقة بين الجذرين من حيث إنّ معاني (رهم) فيها شيء من الدلالة على الرحمة، كأن يقال أنّ

---

(1) سورة إبراهيم 36.

(2) سورة آل عمران 68.

المطر رحمة، وأنّ المرهم الذي تعالج به الجراح رحمة، وهكذا. وعلى فرض التسليم بمثل هذا التحليل، فإنّ الفارق يظلّ كبيرا بين المطر والمرهم من جهة ومعاني الرحمة من جهة أخرى. وقد أخطأ من ذهب إلى أنّ حروف الحلق (ومنها العين والهاء والحاء والخاء والهمزة) يُبدل بعضُها من بعض من غير أن يتغيّر المعنى. فلا نشكّ بالفرق المعنويّ الكبير بين (سأل وسعل وسهل) مثلا. بل إن بعض تلك الألفاظ التي تُبدل حروفها الحلقيّة بأخرى حلقيّةٍ أيضا تدلّ على نقيض معنى اللفظ الأول، مثل عرف، وهرف، وخرف. فشتّان ما بين "عرف فلان شيئا" وكونه "يهرف بما لا يعرف". وأيضا شتّان ما بين المعرفة والخرافة.

وإذا تجاوزنا هذا التفسير للفظة "إبراهيم"، وجدنا أمامنا تفسيرا آخر يرى أنّ معناه "أبو رُهام" وكأنّه منقول عن (إبراهام) ومعناه، كما قال بعض الأقدمين: أبو الجمهور، تَفَؤّلا بكثرة نسله! ولكن من الواضح أيضا أن القائلين بهذا الرأي قد تأثروا بالتشابه بين لفظة "إبراهام" و"أب رهام" الدال على معنى أبي الجمهور بحسب زعمهم الذي لا دليلَ عليه! وقد سبق أن أشرنا إلى هذا آنفا.

ومن ذلك كلّه، نجد أنفسنا أميلَ إلى الاعتقاد بأنّ أصل "إبراهام" هو "إبراهيم" وهي لفظة عربيّة وانّها اسم علَم ربّما أطلق على كثير من الناس، وأن أحد المتسمّين بها صار نبيّا. وعلى الرغم من أنّ بعض اللغويين القدماء رأى أنّ أسماء العلم ليس من الضروري أن تكون دالّة على معنى، فاننا نرى أنّ العرب القدماء لم يكونوا يسمّون أولادهم، أو مدنهم وقُراهم، بأسماء لا معنى لها. ونعتقد أنّ معنى إبراهيم كامن في تركيبها، كأيّة كلمة أخرى، وأنّ هذا المعنى ليس من السهل الوصول اليه. فاللفظة سباعيّة الأحرف، والسباعيات في اللغة العربيّة قليلة جدا، ويرى حذاق اللغويين القدماء أنها إما مزيدة وإما منحوتة من كلمتين أو أكثر، بحيث تتولد بالنحت كلمة جديدة تأخذ من معاني الألفاظ الأصلية لتكوّن معنى جديدا. وقد نصّ ابن فارس على هذه الظاهرة بقوله:

(اعلمْ أنّ للرّباعي والخماسي مذهبا في القياس يستنبطه النظر الدقيق. وذلك أنّ أكثر ما تراه منه منحوت. ومعنى النحت أن تؤخذ كلمتان وتُنحت منهما كلمة

تكون آخذة منهما جميعا بحظ) [1]. فان كانت مزيدة، فلا شكّ أنّ أصلها "بَرَهَ" الدالّة، في بعض معانيها، على الشفاء من المرض، فيقال: بَرِهَ الرجل: إذا ثابَ جسمه إلى طبيعته وصحّته بعد مرض أصابه أو علّة اعتورته [2]. ويمكن أن تكون أصلا للتسمية بإبراهيم تفؤّلا بالسلامة. ونظرا لما يحمله هذا الجذر من معنى الصحّة والسلامة، ذهب بعض أهل اللغة القدماء إلى أنّ كلمه (برهان) جاءت منه، وأن النون فيه زائدة [3]. فتكون كلمة (إبراهيم) مزيدة بالهمزة والألف والياء والميم. وفي اللّغة العربيّة كلمات كثيرة زيدت فيها مثل هذه الحروف:

فكلمة الحلق مثلا صارت حُلقوماً ثمّ حلاقيم،

وكلمة "رقع" وصلت إلى "البرقع" [4]،

وكلمة "ركل" صارت "البركلة" التي هي المشي في الطين [5]،

والجذر "خدل" تحوّل إلى "الخدلّجة" بمعنى المرأة الممتلئة الساقين [6]، إضافة إلى معانيها الأخرى.

والجذر "سمر" يصل إلى السيوف "السمهريّة" أي القويّة الصلبة [7].

وغير ذلك كثير [8] بما يوسّع دائرة حروف الزيادة التي حصرها أهل الصرف والنحو في حروف معيّنة جمّعوها في (سألتمونيها) على غير ما يثبته التطوّر اللغوي من أنّ جميع حروف اللّغة يمكن أن تكون من أحرف الزيادة. فلا نجد حرجا من القول بأنّ أصل كلمة "إبراهيم" هو "بره" الدالّ على استعادة الصحة والعافية بعد المرض. وإنما جاءت الزيادات فيه لتعظيم المعنى، جريا على القاعدة اللغويّة

---

(1) مقاييس اللّغة 328/1.

(2) ينظر لسان العرب (بره).

(3) لسان العرب (بره).

(4) مقاييس اللّغة 333/1.

(5) م. ن 333/1.

(6) م. ن 248/2.

(7) م. ن 159/3.

(8) انظر: أحمد فارس، د. هادي حسن حمّودي 312 - 315.

المعروفة: (كل زيادة في اللفظ تتبعها زيادة في المعنى) [1]. وهو أمر ملحوظ في جميع مفردات اللّغة العربيّة، كقولك: عالِم وعلَّامٌ وعلَّامة. وبناء على ذلك كلّه يمكن أن تُربط "بره" مع "رهم" المارّ ذكرها لفظا ومعنى. إذ اللفظتان تلتقيان في الدلالة على البرء من المرض، تفؤّلا في الشفاء في "بره" وتلاقيا مع علاج الجراحات في "رهم".

وثمّة احتمالات أخرى لأصل كلمة "إبراهيم" كأن تكون منحوتة من كلمتين للدلالة على معنى جديد، مثل أن يكون أصلها "أبر" بمعنى قطع، و"رهم" الذي منه "المرهم" الدالّ على دواء تعالج به الجراح، ثمّ أدخلت حروف زيادة لتعظيم المعنى وتعميقه. غير أننا إلى القول بزيادة الحروف أمْيَل.

وأيا كان أصل الكلمة، فان جرسها يوحي بالانحباس، وبذلك الحسم والقطع الذي تراه في كلمة "أبَرَ" بمعنى "قطَعَ" والأبّار هو الذي يؤبّر النخيل أي يقطعه، وكذلك في كلمة "الإبرة" المعروفة. وليس من الغريب أن نلمس ذلك بشكل أكثر قوّة في روايات أخرى في تلفّظ الكلمة، مثل ابرام، وابراهام، وغيرهما.

هذا الانحباس الصوتي يلائم تماما المعاناة الشديدة التي عاناها إبراهيم الخليل في قيامه بواجبه الذي انتدبته اليه السماء. ونلاحظ أنّ معاناته لم تقتصر على ما لاقاه من الأقوام العديدة التي عايشها، بل توسّعت لتشمل الابتلاءات التي ابتُلي بها وأتّمها بنجاح، كابتلائه برؤيا ذبح ولده إسماعيل، ورميه بالنّار، وتشرّده من بلد إلى بلد، وتكذيب كثير من النّاس به. إضافة إلى مشكلاته العائليّة الخاصّة.

أمّا مجريات القصّة وواقعاتها فقد سبق أن ذكرنا أنّ أحداثها لم تُذكر بتفصيل إلا فيما بعد **سورة إبراهيم نفسها**. ذلك أنّ شذرات قليلة من هذه القصّة ذكرت في كل من **سورة البقرة وآل عمران وإبراهيم والحج**. أمّا تفصيلاتها فقد جاءت ابتداء من **سورة العنكبوت** وهي السورة التاسعة والعشرون بحسب ترتيب المصحف المبارك. وسنتابع أبرز تلك الأحداث هنا بإيجاز غير مخلّ، مع التأكيد على أننا نتقيّد بالنّصّ القرآنيّ، من غير أن ندخل في متاهات الحكايات التي قالها الأقدمون،

---

(1) انظر الخصائص لابن جنّي 264/1 - 269.

أيّا كان نصيبها من الصحة والواقع، أو الخطأ والخيال. فالنّص القرآنيّ لا خلاف عليه، أمّا الروايات الأخرى بما فيها من أسماء أشخاص وأماكن فمما وقع فيه خلاف واختلاف كبيران، لذلك لا نريد الجدال فيها، خاصّة وأنّها من المسائل الثانويّة جدا والتي لا تؤثّر على غايات القصّة وأسباب ذكرها في القرآن الكريم.

فليس من المهمّ، مثلا، أن نعرف أسماء الذين آذوه وألقوه في النار، ولا المواد التي أوقدت بها النار، وكيف دخل إبراهيم فيها وكيف خرج، إذ انّ مثل هذه التفصيلات التي لم يرد لها ذكر في التنزيل العزيز، إضافة إلى عدم أهميتها، قد داخلها كثير من الخرافات والأساطير والخيالات الغريبة، حتّى إنّي قرأت في بعض كتب الأقدمين أن السُّفْعَة الموجودة في الضفدعة سببها أنّها كانت تنقل الماء بفمها لتطفئ النار التي ألقي إبراهيم فيها. وما أشبه هذه القضايا بالخلاف الذي شجر بين القدماء والذي اتّخذ مظاهر العداء والنفور والتكفير بشأن النملة التي كلّمت النبيّ سليمان، هل كانت ذكرا أم أنثى! ونعتقد أنّ تلك الخلافات والاختلافات، حتى لو كانت صادرة عن نيّة طيّبة، خرجت عن المراد بالقصص القرآني، وشغلت النّاس عن الفهم الصحيح لغايات التنزيل العزيز، وحتّى لو كان المنغمسون فيها بعضاً من كبار رجالات التراث، فإنّ ذلك لا يغيّر من الحقيقة المرّة شيئا.

وعلى أية حال، فلنبدأ **من سورة العنكبوت** التي تبيّن لنا، بكل جلاء ووضوح، أنّ النبيّ إبراهيم، عليه السلام، نشأ بين قوم يعبدون الأصنام، وأن تلك العبادة قادتهم إلى الإفك. والإفك كلمة جامعة لأشتات الأكاذيب والأباطيل والآثام. وهذه إشارة بيّنة لِما تؤدي اليه عبادة الأصنام، لأنّها تجعل الناس مرتبطين بكهنة الأصنام وسدنة الأوثان، يتحكمون في رقابهم، ويستعبدونهم، ويذلونهم، ويعتبرونهم مجرّد رعاع لا أهمّية لهم. ومن البديهيّ أن تؤدي هذه القناعات إلى اختلاق الإفك والبهتان والإمعان في الضلال، كي يستمرّ تحكّم أولئك النفر في رقاب النّاس وسيطرتهم عليهم، وتوجيههم لسلوك طريق الشرّ: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ ﴾[1]. وما الإفك إلّا الكذب الهادف إلى إلحاق الأضرار الفادحة بالنّاس.

ثم التفت اليهم وإلى سدنة الأوثان وكهنة الأصنام أيضا، وأنبأهم بما كان بعضهم غافلا عنه وبعضهم جاهلا به، أنّ هذه الأصنام لا توفّر لهم رزقا، وأنّ الرزق الحقيقي هو ما تهنّأ به المرء لا ما يأخذه بالخداع والاحتيال وسلوك طريق الإفك والكذب على النّاس، وادّعاء الوسيلة بين النّاس وربّهم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقًا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[2].

ويبدو من هذه الآية الكريمة أنّ علاقة النّاس بالأوثان والأصنام وصلت إلى درجة تقديس كهنتها وسدنتها أيضا، وإلى درجة هي والعبادة سواء بسواء. وذلك أنّ الآية بدأت بقوله: ﴿ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا ﴾ حيث استعمل الاسم الموصول (ما) الدالّ على العاقل وغير العاقل، فشمل الأوثان والأصنام وكهنتها وسدنتها، ثمّ قالت الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فتخصّص المقصود بالعقلاء لأنّ الاسم الموصول (الذين) دالّ على العقلاء، وهم الكهنة والسدنة الذين تمكّنوا من رقاب السذّج من النّاس حتى عبدوا بشرا مثلهم. وإنّما نقول عنهم (عقلاء) للتمييز بينهم وبين (الأشياء) التي لا تعقل ولا تفهم كالجمادات من أحجار وأصنام وأوثان. ومن هذه العبادة يزداد الإثم والإفك، فالموكّلون بالأصنام والأوثان بحاجة دائمة إلى مخادعة النّاس واستغفالهم، وذلك عن طريق ما يبتكرونه من حكايات خرافيّة وأساطير تتقبّلها الأذهان المتبلّدة المتجمّدة على ما ورثوه من آبائهم وأجدادهم، من غير أن يعنوا ولو عناية بسيطة بمحاولة فهمه واستبيان الصالح والطالح منه.

وقد يُعترَض علينا في قضيّة دلالة (الذين) على العقلاء وهي الدلالة التي

---

(1) سورة العنكبوت 16 – 17.

(2) سورة العنكبوت 17.

اعتمدنا عليها للوصول إلى أنّهم كانوا يعبدون سدنة الأصنام وكهنة الأوثان إضافة لعبادتهم للأصنام والأوثان، نقول: قد يُعترَض علينا بالقول انّ التنزيل العزيز قد عامل ما لا يعقل معاملة ما يعقل في آيات عديدة منه، فلماذا لا يكون (الذين) دالًّا على ما لا يعقل، فيكون المقصود الأصنام فقط؟ وذلك مثل مجيء الضمير (هنّ) العائد على (كلمات) في قوله ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾؟ [البقرة: 124] إنّ جواب هذا الاعتراض يقودنا إلى تدبّر آية ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ وهي واردة في قصّة النبيّ إبراهيم. فما ينطبق على الضمير فيها ينطبق على الاسم الموصول (الذين) المذكور سابقا. فهذا الضمير لجمع الإناث، ومثاله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ ﴾ (1). وكذا في سائر الآيات التي فيها ضمير يعود على جمع الإناث.

كما ورد كثيرا في التنزيل العزيز الضمير (ها) عائدا على جمع المؤنّث غير العاقل، ومثاله: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ۚ ﴾ (2) وأيضا: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ (3) وكذلك: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (4). وغيرها.

ومن المعلوم أنّ الضمير (هنّ) الوارد مع "الكلمات" قد استُعمل لغويّا عائدا على جمع المؤنث فيما لا يعقل، أيضا، في بعض كتب التراث ونصوصه. ترى أليس من الجائز أن يقال: (فأتمّها) بدلا من (فأتمّهنّ)؟

---

(1) سورة الممتحنة 10.

(2) سورة الأعراف 145.

(3) سورة الأنعام 131.

(4) سورة فاطر 27.

أمّا من حيث الدلالة اللغويّة، وفي النّصوص اللّغويّة فإنّ ذلك جائز لا شبهة فيه. وهنا يطرأ سؤال آخر بحاجة إلى معالجة متأنّية، إذ يتساءل بعضهم: لماذا عدل القرآن الكريم عن (فأتمّها) إلى (فأتمّهنّ) علما بأنّ الأولى أكثر شيوعا؟!

والحق أننا لا نجد في كتب التفسير واللغة ما يساعدنا على تشخيص الجواب السديد، فهي تعبر الموضوع مسلّمة به، وكأنّ من الطبيعي جدا أن يعود الضمير (هنّ) على جمع المؤنث العاقل وغير العاقل. وليس ذلك فحسب، بل عبروا قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [1] حيث عاد الضمير على أصناف من الحيوان، الجوارح والكلاب، برغم أن التنزيل العزيز قد استعمل الضمير الأكثر شيوعا (ها) مع الحيوانات، كقوله: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [2] ولم يقل: لتركبوهنّ.

وعلى الرغم من تسليمنا بذلك فإننا نرى أنّه حين يُعاد ضمير العقلاء على غيرهم، وبالعكس، وبخاصّة في الكتاب المعجز، مسألة بحاجة إلى استبيان.

يبدو لنا، بمراجعة الآيات التي جاء فيها الضمير (هنّ) عائدا على جمع مؤنث غير عاقل، أنّ القرآن الكريم، في تلك المواضع، بالذات، قد أنزل غير العاقل منزلة العاقل، لسبب بيانيّ واضح وإن لم يتطرّق اليه، فيما نعلم، أحد من أهل التفسير واللّغة.

ففي قوله تعالى (مكلّبين تعلّمونهنّ) فإنّ الحيوان القابل للتعلّم كأنّه ذا عقل وتفكير حتّى لو كان مفهوم العقل، هنا، يختلف عن مفهومه لدى الناس ذوي العقول. وقد أثبتت الدراسات العلميّة المعاصرة أنّ الحيوانات تتمتّع بغريزة وطبيعة خاصّة بكلّ صنف منها، وأن في بعضها نموّا في تلك الغرائز والطبائع، بما يجعلها قابلة للتعلّم، فكأنّها من ذوات العقول، خاصّة وأن سياق الآية الكريمة هو تعليم الكلاب شيئا مما تعلّمه البشر: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ

---

(1) سورة المائدة 4.

(2) سورة النحل 8.

ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾[1]. ولو قلنا في غير القرآن (تعلّموها) أو (تعلّمونها) و(أمسكت) عوض (أمسكن) باستعمال تاء التأنيث بدلاً من نون النسوة، لجاز ذلك في الكلام الاعتيادي بين الناس. أمّا القرآن العزيز فقد هدف من استعمال (هنّ) و(نون النسوة) إلى إنزال ما يعود اليه الضمير بمنزلة المؤنّث العاقل، إذ لا يمكن أن تعلّم ما ليس له عقل، مهما كانت ضآلة ذلك العقل، وحتّى لو عُبّر عنه بالغريزة والطبيعة. والعقل، دائما، ذلك المجهول.

ومثل هذا ما نراه في الذي يحكيه القرآن الكريم على لسان إبراهيم: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ ﴾[2] فقد أنزل ما لا يعقل منزلة ما يعقل، لا بدلالة الضمير في (أضللن) فحسب، بل في معنى الكلمة أيضا. فان الإضلال لا يتولّد من الجمادات، والأصنام جمادات أولا وآخرا، ليس في وسعها الإضلال، بل في وسع سدَنَتها وكهنتها الذين زعموا للنّاس أنّها تسمع وترى وتنفع وتضرّ. ثمّ لأنّ عبدَتَها أنزلوها منزلة ما يعقل، فكأنّها التي تضلّهم وتهديهم، تنفعهم وتضرّهم. ونميل إلى أنّ المقصود، هنا، ليس الأصنام بحدّ ذاتها كأصنام فقط، بل يضاف اليها سدنتها وكهنتها وهم من البشر بلا جدال، فكأنّ إنزال الأصنام منزلة ما يعقل إنّما تمّ بمراعاة هذين الأمرين معا. وممّا يؤيد هذه الرؤية أنّ التنزيل العزيز عامل الأصنام معاملة الجمادات التي لا تعقل في كثير من مواضعه، كقوله، تعالى: ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[3] وعلى الرغم من أنّ هذا جاء هذا على لسان المشركين، أُنزلت الأصنام منزلة ما لا يعقل كما هي حقيقتُها، وذلك للإمعان في محاولة كشف الحجب عن أبصار المشركين علّهم يرتدعون عن شركهم ويثوبون إلى رشدهم حين يتنبّهون إلى أنّها مما لا يعقل، ولذا فإنّها لا تستحقّ منهم العبادة

(1) سورة المائدة 4. (2) سورة إبراهيم 35 - 36.

(3) سورة الشعراء 71.

كما أنّ سدنتها وكهنتها لا يستحقّون الطاعة.

وقد يُستَشكَل على هذه الرؤية بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ۝٣٤ ﴾[1]. فالسفن، وهي المقصودة بـ(الجوارِ في البحر) ليست مما يعقل، فما مبرّر إنزالها منزلة ما يعقل، بمجيء النّص (فيظللن رواكد.. أو يوبقهن) بدلا من (فتظلّ راكدة.. أو يوبقها)؟!

غير أننا نرى أنّ إنزال الجواري، أي السفن، وهي مما لا يعقل، منزلة ما يعقل، إشارة إلى عظيم منزلة هذه الجواري في البحر كالأعلام، أي كالجبال الراسية بحسب ما يذكره المفسّرون، مع الاعتناء بوجود البشر على ظهورها في ترحالها. وإثارة الانتباه إلى أنّ هذه الجواري في البحر، وإن كانت من الجمادات، فإنّها تتحوّل إلى الحركة كسائر الأحياء، بسبب عمل البشر فيها أولا، ثمّ بفعل الرياح والمياه، وهي جميعا تحدث بالقدرة المكتسبة من التفاعل مع الطبيعة ومتطلّباتها. ومثل ذلك كثير في النصوص العالية، كقوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ ﴾[2] فلا القرية تُسأل ولا العِير، أي الجمال، تجيب. وإنّما جاء هذا التعبير على سبيل المجاز والتوسّع في رسم الصورة الفنّيّة للجوّ الذي تجري فيه أحداث القصّة القرآنية، ومثله أيضا ما دأب عليه العرب في الوقوف على الأطلال ومساءلة الديار. فإنزال الجمادات منزلة ما يعقل، في التنزيل العزيز، لا يجري اعتباطا كالذي يفعله بعض الكاتبين قديما وحديثا. بل الأمر، في لغة التنزيل العزيز، مرهون بما وراء النّص، بدلالاته الخفيّة، وأهدافه التي يريد الوصول إليها.

ولا يقتصر الأمر على (هنّ أو الذين) بل يشمل أيضا ضمير العقلاء (هم) كما في قوله، تعالى: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦

(1) سورة الشورى 32 - 34.

(2) سورة يوسف 82.

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ﴾[1]. فالضمير (هم) من (فإنّهم) عائد على الأصنام المذكورة في الآية 71 من **السورة نفسها**. والأصنام جمادات ينبغي أن يعود عليها الضمير (ها) وإنّما أعيد عليها الضمير (هم) لأنّها أُنزلت منزلة ما يعقل لما مرّ ذكره في الآية 36 **من سورة إبراهيم**: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ هذا إضافة إلى أنّ إبراهيم ذكر ربّه الذي يعبده في سياق الآية **نفسها**.

ولا يغيّر من هذه الحقيقة اللّغوية شيء إذا فسّرنا هذه الظاهرة (إعادة ضمير العقلاء على ما لايعقل وبالعكس) بأنّه بقايا لغويّة من مرحلة قديمة من مراحل التطوّر اللّغوي، حين كان مِنَ النّاس مَن يفعل ذلك. خاصّة وانّ معظم الآيات التي فيها هذه الظاهرة تنقل ما كان قد جرى في زمن إبراهيم الخليل. فهذا التفسير لا ينقض ما قرّرناه، من حيث إنّ أولئك القدماء ما كانوا يعيدون الضمير أو اسم الإشارة أو الاسم الموصول على ما لم يوضعْ له أصلا لو لم يكونوا قد أنزلوا الثاني منزلة الأول، لأسباب ومبرّرات كالتي ذكرناها.

وقد يطرأ سؤال عن السبب في إعادة ضمير الجمع المذكّر (هم) على (الأصنام) هنا، وأعيد ضمير جمع المؤنّث في الآية 36 **من سورة إبراهيم**: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ علما أنّ المراد في الموضعَين الأصنام؟ فأمّا الموضع الثاني فالمراد به الأصنام، والأصنام فقط، وذاك دعاء إبراهيم الخليل: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾[2] فجاء التأنيث، لأنّ النّاس يومئذ والى ظهور الإسلام، لم يكونوا يقيمون وزنا للمؤنّث: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ ﴾[3] وسخر منهم القرآن الكريم: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ

(1) سورة الشعراء 75 - 77.

(2) سورة إبراهيم 35 - 36.

(3) سورة النحل 58.

ﭐلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[1].

وأيضا: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾[2]. وأيضا: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ ﴾[3].

وأما الموضع الثاني: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ فإنّ المراد ليس الأصنام فقط، بل جميع ما كان يعبده النّاس في ذلك العصر وفي العصور التي سبقتهم أيضا، بدلالة أوّل الآية: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ وممّا لا ريب فيه أنّ منهم ومن آبائهم الأوّلين من كان يعبد الله، جلّ وعزّ. فهنا لا بدّ من تغليب التذكير على التأنيث، وهو باب في دراسات فقه اللّغة والنحو معروف ومذكور في دراسات اللّغويين والنحويين قديما وحديثا.

فالأصنام مؤنّثة سواء عاد عليها الضمير (ها) أم (هنّ) أمّا في الآية 77 من **سورة الشعراء** فالحديث عن كلّ معبود للنّاس يومذاك. ومعلومٌ أنّ من الناس مَن كان يعبد الله. فالمعبود لفظ مذكّر، وكذلك لفظ الجلالة (الله). ولـمّا كان الله، تعالى، لا إلهَ إلّا هو، تفرّد بحقّ عبادة الناس له، جرى تغليب التذكير على التأنيث.

ونرى أن هذا النهج سارٍ وسائدٌ في جميع المواضع التي جاء بها الضمير (هنّ) وكذلك الضمير (هم) بدلاً من (ها). حسب ما يقتضيه السياق. وبناء على ذلك نفهم استعمال الضمير (هنّ) عائدا على (كلمات) في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ ﴾ [البقرة: 124] فقد بيّنّا أن المقصود لا الكلمات بحدّ ذاتها وإنّما ما ينتج عنها من نتائج، وتلك النتائج تظلّ (حيّة) بين الناس، فكأنّ فيها روحا يهدي الناس للخير، أو كأنّ لها عقلا يعلّم النّاس، فيما يعلّمهم، العظة والاعتبار. وكذلك الحال في دلالة (الذين) على الأصنام وكهنتها وسدنتها. وهو ما

(1) سورة الزخرف 19.

(2) سورة النجم 21 - 22.

(3) سورة النساء 117.

يجب أن يسير عليه الاستعمال اللغوي الفصيح البليغ. فلك أن تقول: الكتب التي قرأتها، ولكنّك إن قلت (الذين قرأتهنّ) أو (الذين قرأتهم) فلا بدّ أن تكون لديك غاية بيانيّة أو بلاغيّة حتّى يجوز لك ذلك. وأنت في استعمالك (الذين) أضفيت على الكتب ما لم يتحقّق في (الكتب التي قرأتها)، من عميق تأثير تلك الكتب. فإنّ (الذين) جعلتْ تلك الكتب كائنات حيّة، لا مجرّد أوراق وكلمات. ولكن، ليس لك أن تقول: الخراف الذين نحرتهم، فليس من مبرّر واحد ولا مسوّغ مقبول لإنزال الخراف، في هذا السياق، منزلة العقلاء، اللهمّ إلّا إذا كان المسوّغ أنّك تعاطفت مع تلك الخراف، أو عاديتها، بحيث تنزلها منزلة ما يعقل، أو كنت تراها مِمّا يعقل، فتعتبر النحر إضرارا بها، في حالة "حبّك لهم!" أو "تعاطفك معهم!" وأن تعتبر النحر "انتقاما منهم!" في حالة "كراهيتك لهم" لسبب من الأسباب!!

وهذا ما نلاحظه عند الشعراء الكبار المشهورين بفصاحتهم، حيث يُنزلون "الأشياء" التي يولعون بها منزلة ما يعقل لمبرّرات بيانيّة وبلاغيّة، كقول عنترة في وصف عين ماء، وحبّ العرب لعيون الماء مِمّا لا يخفى:

جـــادتْ علـــيها كـــلُّ عـــينٍ ثـــرّةٍ

فتـــركنَ كـــلّ حديقـــة كالـــدّرهمِ [1]

حيث قال: (فتركن) ولم يقل: (فتركتْ) وعيون الماء ليست من العقلاء.

(1) من معلّقة عنترة. ديوانه 36. العين 25/2.

وما على الرسول إلا البلاغ

وكيفما يكن الأمر، فإنّ إبراهيم الخليل صدع بما أُمر به من تبليغ الرسالة السماويّة للنّاس كي يحظوا بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة. ومن أجل الوصول إلى تلك الغاية، ولأنّ كلّ امرئ مسؤول عن ذاته وتصرّفاته وسلوكه، آلى إبراهيم على نفسه أن لا يستفزّهم، فحاورهم بهدوء وتعقّل، موضّحا لهم الطريق المستقيم، وأنّهم لا يجيئون بجديد إن كذّبوه. ثمّ أثار انتباههم إلى آيات الله في أنفسهم وفيما حولهم، وأنّهم لا أنصار لهم إنْ ظلّوا على ضلالهم وإفكهم: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٨ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝٢١ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٢٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٣ ﴾[1].

أولئك اليائسون من رحمة الله، ظلموا أنفسهم بيأسهم هذا، وبما أوصلوا أنفسهم إليه من ضياع وهوان، حتّى لم يجدوا حجّة يردّون بها على إبراهيم إلّا أن يتهدّدوه بالحرق وينفّذوا تهديدهم، ولكنّ الله أنجاه منهم: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ

(1) سورة العنكبوت 18 - 23.

لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

وهؤلاء الذين يئسوا من رحمة الله تحسبهم جميعا وهم قلوبهم شتّى فهم متفرّقون مختلفون متناحرون، لا تجمعهم إلّا عبادة الأصنام، وتلك رابطة ضعيفة واهية، سواء حين ينكشف الستار عن زيفها وإفك القيّمين عليها، أم يوم القيامة حيث يُستبان الحق: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[2]. وإنّما آمن به ذلك الرهط ليواصلوا رسالته من بعده.

وتنقلنا سورة مريم إلى آفاق أخرى من هذه القصّة، حيث ينصح إبراهيم أباه، لأنّه محبّ له حريص عليه، يريد منه أن يسير على الصراط المستقيم. غير أنّ أباه وبّخه وهدّده، فما كان من إبراهيم إلّا أن عبّر عن ألمه من موقف أبيه، ورغب أن يستغفر له الله:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ

(1) سورة العنكبوت 24.

(2) سورة العنكبوت 25 – 27.

عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾[1]. إذ لم يكن من الهيّن على إبراهيم أن يرى النّاس (وأوّلهم أبوه) يسيرون في طريق الضلال والهلاك، وأنّهم مغيّبو العقول والشعور، متعلّقون بأحجار لا تضرّ ولا تنفع، ولكن ماذا بيده أن يفعل إلا أن ينصح بالحُسْنَى لفظا وقولا؟! وإلّا أن يردّ فظاظة أبيه بخلق نبيل، فذاك يهدّده بالرجم والطرد، وهذا يواجهه بالسلام وموعدة الاستغفار، إلى أن ينبّهه الله أنّ ذلك الاستغفار لن يغيّر من الأمر شيئا.

ثمّ إنّ إبراهيم لَمّا وجدهم مصرّين على ما هم عليه اضطرّ إلى أن يعتزلهم وأعمالهم السيئة وأن يقيم لهم بسلوكه أنموذجا جديرا بالاحتذاء والاقتداء، فكان أن جازاه الله بأن وهب له ذريّة طيّبة بعد أن كان قد يئس من أن يكون له شيء منها: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾[2].

تكتفي **سورة مريم** بهذه اللقطات الموحية، لتأتي **سورة التوبة** فتخبرنا أنّ إبراهيم أراد الاستغفار لأبيه عسى أن يهتدي إلى سواء السبيل، ولكنّه حين رآه مصرّا على الضلال تبرّأ منه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾[3]. وهو، على الرغم من تَبَرُّئِهِ من أعمال أبيه، لم يوجّه إليه كلمة قاسية واحدة، ولم يؤذه أدنى أذى، فليس من خلق الأنبياء وسائر الطيبين من النّاس القسوة والأذى، لا للأقرباء فحسب، بل لجميع النّاس. وكثيرا ما نقرأ في قصص الأنبياء أنّ أعداءهم تهدّدوهم وآذوهم وطردوهم من ديارهم، وعلى الرغم من ذلك لم ينتقم أيّ نبيّ ممن آذاه، بل كان يرجو الهداية والخير لهم. وبطبيعة الحال فنحن لا نتوقّع من الأنبياء ولا من

(1) سورة مريم 41 - 47.

(2) سورة مريم 48 - 50.

(3) سورة التوبة 114.

النّاس الطيبين مهما بلغت طيبتهم أن يسلّموا أنفسهم إلى التهلكة والضياع ويكونوا لقمة سائغة لكلّ من أراد الاعتداء عليهم، وأن يستكينوا لكلّ من هبّ ودبّ، فتلك ذلّة يأباها المرء لنفسه، ويأباها الخالق لخلقه، فردّ العدوان واجب، وبحسب الحالات، فحين يعتدي عليك أحد النّاس لك أن تردّ عدوانه بمثله، ولك أن تعفو عنه، وذلك بحسب الحالات، كما قلنا. أما العدوان على الحق العامّ، فمن أشدّ ماهيّة الاعتداء وحدوده ومدى أذاه. وقد علّمنا الحديث النبويّ الشريف أنّ الله، تعالى، قد يعفو عن التقصير في صلاة وصيام، ولكنّه لا يعفو عنك إن اعتديت على هذا وألحقت الضرر بذاك، لأنّ أصحاب الحق هم الذين بيدهم أن يسامحوك أو لا يسامحوك، فإنّ سامحوك، فإنّ الله غفور رحيم.

وتصوّر سورة الأنعام، جانبا آخر من سعي إبراهيم وراء الحقيقة، وإقامة الأدلّة على صحّة منهجه ورؤيته. فنراه تارة يجادل عبدة الأصنام والأوثان، وأخرى يجادل عبدة الشمس والقمر والكواكب، ويقيم لهم الدليل على فساد عقائدهم، وما تجرهم إليه من إفك وضلال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[1]. ولا نشكّ في أنّ إبراهيم أراد من حواره مع قومه أن يُثبت لهم بطلان الآلهة التي

---

(1) سورة الأنعام 75 - 81.

يتعبّدون لها. وما قوله (هذا ربّي) إلّا مسايرة لهم، وملاينة من أجل تأليف قلوبهم واستمالتهم إليه من غير استفزاز وفظاظة وقسوة تنفّرهم منه ومما يدعوهم إليه. فالقويّ في ذاته، والواثق من نفسه، ومن أحقيّة دعوته، يوقن أنّ هدى هؤلاء وضلالهم ليسا من مسؤولياته ولا من مهمّاته، وأنّ تلك المسؤوليات والمهمّات تنتهي بتبليغ رسالات السماء لهداية النّاس وتعليمهم طريق الصواب والخير: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [1]. فهو ليس عليهم بوكيل ولا مسيطر، وهم سادة أنفسهم إن شاؤوا لها الراحة والاطمئنان فلأنفسهم يَمهدون، وإن اختاروا لها الأذى، فسيلاقون مصيرهم المحتوم أسوة بِمَن سبقهم ومن سيعقبهم.

ومن الأدلة على أنّ إبراهيم سلك ذلك النهج لا للتعبير عن عقيدته هو بل من أجل هداية النّاس، قوله ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فهو يعرف ربّه، إذن، وإلا لَما ذكره وأرجع الهداية إليه. ولكنّه ساير عبدة الشمس والقمر والكواكب، وأتاهم من حيث عقائدهم ذاتها، كما سيفعل مع عبدة الأصنام، وإن بطريقة أخرى. على ما سنتبيّنه بعد قليل. إضافة إلى أنّ قوله للشمس والقمر والكواكب (هذا ربّي) فليس فيه دليل على إيمانه بربوبيّتها، بل هي مسايرة وملاينة وإقامة دليل يتلاءم مع نفسيّات القوم وقناعاتهم وعقائدهم، فيحتوي تلك النفسيّات والقناعات والعقائد ثمّ يصحّح مسارها، كي يكون إيمانهم خالصا من الظلم.

وربّما تتساءل: وهل يجتمع الإيمان والظلم؟ وهو تساؤل يمثّل مشكلة حقيقية ينبغي النظر فيها. فللظلم معانٍ واسعة كثيرة منها ما هو معروف ومنها ما يغفل عنه كثير من النّاس. فأنت حين تظلم ابنك أو ابنتك أو امرأتك، وحين تعقّ أباك وأمّك، وحين لا تقوم بعمل صالح وأنت قادر عليه، ولا تطلب علما نافعا وأنت متمكّن من أن تطلبه، وأنتِ حين تطالبين زوجك بما لا قدرة له عليه من مال أو هدايا أو مظاهر خادعة، في الملبس والمسكن وغيرهما.. فكلّ هذا ظلم يمارسه الكثيرون والكثيرات من غير إدراك كاف بأنّه ظلم وأنّه صورة قاسية من صور الفظاظة

---

(1) سورة البقرة 272.

والعدوان. نعم إنّه عدوان على الذات وعلى الآخرين، ناهيك عن صوره الأخرى، من الاعتداء على الأبعد من هذه الذات وهؤلاء الأقارب، ولذلك اشترط التنزيل العزيز، في قصّة إبراهيم، وغيرها أن يكون إيمان المرء خالصا من الظلم كي يتحقّق الأمن والأمان: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1].

وأخيرا ينال إبراهيم بعضا من العزاء جرّاء صبره وقيامه بمهمّاته، وصار في بعض ذريّته الكتابُ والرسالات السماويّة: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[2].

****

(1) سورة الأنعام 82.

(2) سورة الأنعام 83 - 84.

الحوار... قوّة الشخصيّة والثقة بالذات

التفت إبراهيم إلى عبدة الأصنام والأوثان، وحاججهم بمختلف الطرق والوسائل والأساليب، فلمّا وجدهم مصرّين على ما هم عليه، أراد أن يثبت لهم ببرهان عمليّ قاطع أنّ تلك الأصنام لا تملك نفعا ولا ضرّا، فقام بتحطيمها، وحين سألوه عمّن حطّمها، طلب منهم أن يسألوا الصنم الوحيد المتبقّي. حينذاك انتبهوا إلى ما أراد أن يثير انتباههم إليه:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[1].

أصاب القوم ذهول بعد أن لمسوا بأنفسهم أنّ تلك الأصنام مجرّد أحجار،

---

(1) سورة الأنبياء 51 - 65.

ولكنّ سدنة الأصنام وكهنة الأوثان خافوا أن تزول سطوتهم، لذلك ما إن فعل إبراهيم ذلك، ومهّد الأرضيّة الصالحة لتوعية النّاس، حتّى انتفضوا ضدّه، وأمروا بإحراقه، وحشّدوا النّاس وراءهم بالأباطيل والإفك، ولكنّ الله نجّاه منهم، ونجّى معه من آمن به، على ما جاء في بقية آيات سورة **الأنبياء**.

وتلك هي طريقة إبراهيم في الجدل والحوار، ينطلق من متبنّيات الطرف الآخر، ويقيم جداله وحواره على أسس منطقيّة موضوعيّة يفهمها مَن يحاورهم، ولا يأخذهم بالقسوة والعنف وفرض الرأي بفظاظة وغلظة، بل يتأتّى لهم بالحُسْنَى. فقد جادله بعضهم في الله وقدرته، فما غضب إبراهيم وما رفع في وجه محاوره سيفا ولا سَوطا، بل ناقشه بما فهمه ذلك الذي كفر: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [1]. وبطبيعة الحال فإنّ إبراهيم أدرك المغالطة الواردة في كلام ذلك الذي يحاوره بأنّه، أيضا، يحيي ويُميت، إذ شتّان ما بين الإحياء والإماتة،من جهة.. وبين أن يأمر إنسانٌ، أيّا كان، بقتل إنسان آخر ثم يلغي ذلك الأمر، من جهة أخرى.. فهذا ليس من الإماتة والإحياء بشيء، لأنّه حتّى لو أمر بقتل امرئ ما ثمّ ألغى أمره ذاك، فإنّ المقدَّم للقتل لم يُقتل، وبالتالي لم تقع الإماتة. ولو قُتل لَما استطاع ذلك الذي حاور إبراهيم، ولا غيره، أن يعيده إلى الحياة. والنبيّ إبراهيم مع إدراكه لتلك المغالطة علم أن محاوره لن يستجيب له لو جاءه بمثل ما ذكرناه من معنى الإماتة والإحياء، إذ لن يُدرك معناهما أبدا، ولذا جاءه من طريق آخر، وضرب له مثلا مشاهَدا بالعيان، هو أنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فليأتِ هو بها من المغرب! فبُهت الذي كفر.

أما **سورة الشعراء** فتصوغ قصّة إبراهيم صياغة أخرى، وتضيف تذكيره لهم بما يناله المؤمنون من خير إذ يجيب اللهُ دعواتهم، مما لا يحظى بشيء منه عبدة

---

(1) سورة البقرة 258.

الأصنام والأوثان:

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[1]. حيث يختمها بهذا الدعاء الكريم.

وتستكمل **سورة الصّافّات** ما رغب فيه إبراهيم من ربّه، فلبّى له ربّه رغبته، ولكن مع ابتلاء جديد، هو الحلم الذي رأى فيه إبراهيم أنّه مأمور بذبح ابنه إسماعيل: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ

---

(1) سورة الشعراء 68 - 89.

مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾[1]. ومن هنا نقول: إنّ إبراهيم كان يعرف ربّه، ويعرف أنّه لن يتركه يذبح ابنه، وحاشى لله أن يأمر بقتل أحد، من غير جرم أو قصاص. ولذلك لم يأتِ في التنزيل العزيز أن الله قد أمر إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل، ولكنّه عبّر عن الموضوع بالرؤيا. ولقد أدرك إبراهيم أنّ هذه الرؤيا جزء من الوحي، فكان لا بدّ له من الطاعة. وكان الفرَج القريب نتيجة تصديقه للرؤيا حتّى لو كان ثمن ذلك التصديق أن يهمّ بذبح ابنه.

وثمّة ملاحظة أخرى في آخر النّص السابق، ذلك هو التأكيد على أنّ من ذريّة إبراهيم ومن حفدته من هو محسن، ومن هو ظالم لنفسه مبين، حيث تؤدينا هذه الملاحظة إلى أمور منها:

* إنّ الانتساب إلى إبراهيم لا يُغني من الحقّ شيئا، فالنّسب لوحده، لا يكفي لتزكية المرء، فثمّة محسن وظالم لنفسه. ولكلّ جزاؤه: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾[2]. فالمرء مرهون بعمله لا بنَسَبِه. فإنْ كان يرى أنّ نسبه نسبٌ شريف فعليه أن يؤكد شرف ذلك النّسب بالعمل الصالح، وأن يتواضع في سلوكه، لأنّ التكبّر على الآخرين لا يعنِي إلّا ضَعَةً في النّفس والسلوك، وأين شرف النّسب من وضاعة النّفس والسلوك!

* إنّ الإحسان هو ضدّ ظلم النّفس، فمن لا يحسن لغيره هو ظالم لنفسه. والإحسان للآخرين يأخذ صورا شتّى مادية ومعنويّة، وبحسب وضعية المرء المحسن نفسه، ووضعية المحسَن إليه. فأنت إن أعطاك الله مالا لم توظّفه في عمل نافع لك وللآخرين، وإن أعطاك الله علما لا تبذله للنّاس، وإن أعطاك الله ذريّة لا تهتمّ بتربيتها تربية حسنة، فأنت لست من المحسنين، وانتقلتَ إلى المشمولين بقوله ﴿ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾.

وتنقل لنا **سورة هود** حوادث أخرى مرّت بإبراهيم عليه السلام، فقد نزل به

---

(1) سورة الصافات 100 - 113.

(2) سورة المؤمنون 101.

ضيوف أرسِلوا إلى قوم لوط. فحاول إبراهيم أن يجادلهم فيما أرسلوا به، آملا أن لا ينزل بقوم لوط عذاب من ربّهم بسوء أفعالهم، ولكنّه تعالى يأمره أن يعرض عن ذلك الجدال، فقد انتهت النُّذر التي وجّهت إليهم، فما داموا مصرّين على الخطأ والخطيئة فهم يقودون أنفسهم إلى الهلاك: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾[1]. وقد أعيد ذكر هذه الحادثات بأساليب متنوّعة في **سورة الحجر** (49 - 56) و**سورة الذاريات** (24 - 30).

وهكذا وصل إبراهيم إلى أن يكون رائد عصر جديد من تاريخ البشريّة، بإعادة بناء الكعبة وتطهيرها من الأصنام والأوثان ومحاولة التخلص من سيطرة الكهنة والسدنة، وإثبات بطلان عبادة الكواكب والشمس والقمر. والدعوة إلى كفّ الأذى عن النّفس وعن الآخرين، وإلى التعاون والتآلف في طريق الخير والتقدّم والرقّي، لتحقيق رسالة الخلق وخلافة الله في الأرض.

---

(1) سورة هود 69 - 76.

الأمان أسّ أساسات الأديان

لقد كان النبيّ إبراهيم، عليه السلام، ذا عقل نيّر وتفكير علمي منظّم، لحظناه في حواره مع عبدة الشمس والقمر والكواكب، حين انطلق من فحوى عقيدتهم ووصل بهم إلى ملاحظة عيانية لضلالهم إذ كيف يجيز عاقل لنفسه أن يعبد ما يغيب ويأفل، وهو محتاج لغيره؟ وفي حواره مع عبدة الأصنام والأوثان، حين جسّد لهم جهلهم وضلالهم إذ يعبدون أحجارا أو بشرا مثلهم يقومون على أمر الأصنام والأوثان، وذلك حين حطّم الأصنام وجعلها جذاذا أو قطعا صغيرة، ثمّ طلب من القوم أن يسألوا كبير آلهتهم عمّن كسرها، فاعترفوا أنّ تلك الآلهة أحجار لا تفهم ولا تعي ولا تردّ جوابا، وأدرك القوم مدى السخف الذي تردّوا في مهاويه إذ يعبدون ما لا يعقل ولا يفهم ولا ينفع ولا يضرّ! وفي حجاجه مع من احتكّ به من هؤلاء وأولئك. كما نلحظه في طلبه من ربّه أن يريَه كيف يحيي الموتى، لا لأنّه لا يؤمن بقدرة الله، تعالى، ولكنّ ليطمئن قلبه به، وليكون مثلا للنّاس يستفيدون منه زيادة اقتناع وتعمّق إيمان: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [1].

وبعد كلّ هذا إلى أين وصل النبيّ إبراهيم، عليه السلام؟ ما الخاتمة التي انتهى إليها؟ وما الذي حصل عليه؟ أمّا على الصعيد الشخصي فقد ظل متنقلا من مكان إلى آخر، وابتُلي بابتلاءات متعدّدة متنوّعة، حتّى وصل الأمر أن يلقيه المشركون في النار، وأن يرى نفسه وهو يذبح ابنه إسماعيل، فأيّ قلب هذا الذي

---

(1) سورة البقرة 260.

ملكه النبيّ إبراهيم! إنّها عبر وعظات، يضربها القرآن أمثالا للنّاس، تعوّدهم على الصبر الإيجابيّ، الذي يدفعهم إلى مزيد من البذل والعطاء.

وأمّا على الصعيد العامّ، فقد أرسى بناء الكعبة المشرّفة: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]. وها هو دعاؤه يتواصل في أركان الأرض فيأتيه النّاس من جميع الجهات يؤدون فريضة الحج والاعتمار. ويُفترض بهم أن لا يكتفوا بالمراسيم المعهودة من طواف حول البيت الحرام وسعي بين الصفا والمروة والصعود إلى عرفات والإفاضة من المشعر الحرام.. إلى آخر ما يفعله الحجاج عاما بعد عام، وإنّما عليهم أن يلتفتوا إلى المغزى من وراء كلّ ذلك، فماذا تنفع هذه المراسيم امرأً لا يأخذ نفسه بأخلاق إبراهيم، عليه السلام. تلك الأخلاق التي تتجلّى في الدعاء المهيب الذي توجّه به إبراهيم لربّه، لا من أجل نفسه فحسب، بل من أجل النّاس جميعا، اسمعه يقول، على ما تحدّثنا به **سورة إبراهيم**:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ

---

(1) سورة الحج 26 – 27.

وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [1].

أليس أمرا ملفتا للنّظر، وداعيا للتفكّر والتدبّر أنّ إبراهيم، وبعد كل ما عاناه من المعاندين المتعصّبين لرؤاهم المتيبّسة المتخشبّة، حتّى طاردوه من مكان لآخر، وحتّى رموه في النّار كي يقتلوه حرقا، فاذا به يدعو الله أن يغفر لهم (فمن تبعنِي فإنّه منّي ومن عصاني فإنّك غفور رحيم)! أيّ نبل هذا وأيّ سموّ! إنّ اقتصاره على ذِكر هاتين الصفتين بالذات من صفات الله، دليل واضح على أنّه يتمنّى لو أنّ الله غفر لهم ورحمهم، علما أنّه لو طلب من ربّه أن يهلكهم لَما تجاوز عليهم ولَما ظلمهم، إذ عانى منهم الكثير. ولكنّ إبراهيم لا يؤمن بأن ينتقم امرؤ من آخر، بل أوكل أمرهم إلى الله، بعد أن قام هو بواجبه في تذكيرهم وتنبيههم.

ونقول إنّه أمر ملفت للنّظر، بناء على ما صرنا نسمعه من تشدّد وغلوّ، واستباحة ما لا تحلّ استباحته. وهؤلاء الأنبياء جميعا لم يلجأ أحد منهم إلى أساليب العدوان والتشدّد على النّاس: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [2]. فتلك، إذن، إرادة الله، أن يبيّن للنّاس ما يضرّهم وما ينفعهم، وأنّ له وحده حقّ مجازاة مَن أطاعه ومَن عصاه إذا كان عصيان مَن عصى أمرا خاصّا لا يضرّ الآخرين. فأمّا إذا سار ذلك العاصي في دروب الشرّ والأذى، وألحق بالآخرين الضُّرّ، مستبيحا منهم ما لا يُستباح، فثمّة مبادئ عامّة وقواعد كليّة جاءت بها الشرائع السماويّة تساعد على صياغة قوانين تحقّق العدل والأمن واستتباب النظام العامّ، فتأخذ على يد مَن لا يكفّ أذاه عن الآخرين.

ونتيجة ذلك العمل الدائب، والجهاد المرتكز على الحوار بالتي هي أحسن، وصل إبراهيمَ إلى أن تكون له ملّة استمرّت ملامحها العامّة وقواعدها الأساس في الأديان التي أعقبته جميعا، ومنها اليهوديّة والنصرانيّة والإسلام. وكان له أن يضع محورا تلتفّ حوله أشتات من النّاس تتجمّع بكلّ سكينة ووقار، وذلك المحور

---

(1) سورة إبراهيم 35 – 41.

(2) سورة الأنعام 35.

البيت الحرام الذي وصفه التنزيل العزيز بقوله: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1].

وهكذا يؤكّد التنزيل العزيز على أنّ البيت آمِن ومَن دخله كان آمنا، وسبق أن قرأنا دعاء إبراهيم أن يجعل (البلد كلّه آمنا). فالأمن غاية غايات الأديان، وهو من أولى ميزات الحضارات الحقيقيّة الجديرة بصفتها.

ومن البديهي أن الأمن لا يقتصر على البيت الحرام ولا على مَن دخله، بل الأحرى أن تكون البلدان كلّها آمنة، وأن يكون أهلها جميعا آمنين مطمئنين. ودليلنا على هذا قوله تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [2] فذكرُ الله ليس الغاية، بل الغاية اطمئنان القلوب، وذلك الاطمئنان لا يتحقّق، بموجب الآية المذكورة، إلّا بذكر الله. لأنّ ذكر الله يمنح الإنسان قدرة على الصبر والتحمّل والقناعة والأمل، ويحثّه على القيام بواجباته التي خُلق من أجلها، طلبا للعلم، وأداء للعمل، إعمارا للأرض، وتعاونا مع البشر لِما فيه الخير والصالح العامّ.

لقد سار إبراهيم الخليل هذه السيرة العطرة، فصارت سيرته بدء مرحلة ثالثة من مراحل التطوّر البشريّ، بعد مرحلة الخلق الأوّل المبتدئ بهبوط آدم من الجنّة، ومرحلة الخلق الثاني المبتدئ من هبوط نوح من سفينته. أما مرحلة النّبيّ إبراهيم فقد انبنت على ترسيخ أسس الدين الذي ارتضاه الله لعباده. فلم يرد في قصته شيء عن الإعمار والبناء، بل دارت قصته حول محور الفكر المؤسس للمرحلة الأخيرة من تاريخ البشر.

وقد عاصر هذه المرحلة من تاريخ البشريّة نبيّ آخر هو لوط، الذي ورد ذكره في بعض الآيات السالفة، حين نزل بالنبيّ إبراهيم ضيوفٌ أوجس منهم خِيفةً،

(1) سورة آل عمران 95 - 97.

(2) سورة الرعد 28.

فأعلموه أنّهم مرسَلون إلى قوم لوط، فراح يجادلهم في هذا الشأن لأنّه أدرك أنّ إرسال الرسل إليهم معناه حلول العذاب بأولئك القوم الذين كانوا يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكَر.

ومن الواضح أنّ الدور الذي تأهّل له إبراهيم الخليل يختلف عن الدور الذي تأهّل له النبيّ لوط، حيث إنّ لوطا ظلّت دعوته محصورة في قريته التي كان يعيش فيها. ولذلك فإنّ الضيوف الذين حلّوا عند إبراهيم ثمّ عند لوط أرسلوا لإهلاك أهل تلك القرية فقط، بعد أن لم تنفع معهم نصائح لوط وتذكيره لهم بنِعَم الله عليهم وتحذيرهم من مغبّة أعمالهم وسوء سلوكهم.

وثمّة أكثر من آية تشير إلى حقيقة محدوديّة المكان الذي ظهر فيه النبيّ لوط: كقوله تعالى: ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ ﴾ [1].

وقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٣١ ﴾ [2]. فهلك أهل تلك القرية الظالم أهلها ونجا لوط وأهله فانتقلوا إلى مكان آخر.

****

(1) سورة النمل 56.

(2) سورة العنكبوت 31.

أنبياء بين إبراهيم وموسى

بعد عهد النّبيّ إبراهيم ظهرت أديان عديدة أخرى سبقت ظهور النّبيّ موسى، عليه السّلام. ولكنْ، ليس لدينا كثير من النّصوص الموثّقة التي يُمكن الاستناد إليها لاستجلاء (جميع) المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة لها، باستثناء ما جاء به القرآن الكريم. أما المرويات ففيها تناقضات كبيرة، كما أنّ تواريخ بعض هؤلاء الأنبياء مُختَلَفٌ فيها ما بين قائل إنّهم كانوا قبل موسى، وقائل إنّهم جاؤوا بعده. وعندنا أنّ هذا أمر ثانويّ لأنّ هذا البحث يريدُ أن يتفهّم المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة لتلك الأديان. ونحن على يقين أنّها متلائمة مع سائر الأديان في تلك المبادئ والقواعد.

ولكنْ.. ومن أجل استيفاء البحث حقّه من العلميّة والموضوعيّة، سنأخذ ما ورد في قصص الأنبياء والرّسُل الذين صرّح التنزيلُ العزيزُ بأسمائهم، وبما طالبوا به أقوامهم الذين أُرسلوا إليهم. إذ إنّ أولئك الأنبياء وجدوا في عصورهم والبلدان التي ظهروا بها حاجة للتأكيد على أشياء احتاج إليها أقوامُهم، وأمرَهم اللهُ أن يبلّغوهم إيّاها، سواء كان أولئك الأقوام قد نسوا ما جاء به الأنبياء السّابقون أم بفعل طبيعة المرحلة الحضاريّة التي هم فيها والتي تختلف عن المراحل التي كان غيرهم قد مرّ بها.

ومن البديهيّ أنْ يكون أولئك الأنبياء والرّسُل في رسالاتهم هذه مرتكزين على المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للأديان التي سبقتهم، وهو ما نمثّل له هنا، بما ورد في القرآن الكريم الذي استوفى المهمّ من أحداثها وواقعاتها. ولذا سنتوقّف عند ثلاثة أنبياء منهم، وهم: شُعيب ويوسف ويونس، عليهم السّلام.

قصّة النّبيّ شُعَيب

*** من سورة الأعراف بعد قصّة لوط وقومه 85 - 93.**

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

*** من سورة هود بعد قصّة لوط وقومه 84 - 95.**

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

*** من سورة الشعراء بعد قصّة قوم لوط أيضا 176 - 189.**

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟

ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾.

كما ورد ذكره في الآيتين 78 و79 من سورة الحجر بعد ذكر قوم لوط.

نجد في الآيات السابقة أنّ المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة لدين النّبيّ شُعيب، مُجمَلة فيها، وهو إجمالٌ دالٌّ مُغْنٍ عن التفصيل. ومن كلّ ذلك نتبيّن أنّ شُعيبا أُرْسِلَ إلى أهل مَدْيَن، وهي مدينة تقع في أطراف الشّام، وكان ظهوره بعد إبراهيم الخليل.

فهناك في مدينة مَدْيَن، وحيث أنشأ النّاس لهم كيانا مدنيّا متطوّرا عن العصور السّابقة، بحكم طبائع الأشياء، بدليل أنّ القصّة القرآنيّة تبيّن أنّ من عيوب أولئك القوم الغشّ في الموازين، فندرك أن رقيّهم كان قد وصل إلى ابتكار الموازين، وهي شيء لم يكن، ثمّ كان. وبذلك فإنّهم كانت لهم مقاييس تجاريّة متطوّرة، ولكن ذلك التطوّر لم ينفعهم شيئا.

هناك.. في طوايا الظّلام والجهل والشّرك والظّلم والعدوان، إذ لا أمنَ مستتبّ، ولا عدالة تهيمن على النّاس، وحيث يأوي النّاس إلى بيوتهم قبيل مغيب الشّمس حرصا على حياتهم وما يملكون، وحيث كبراء القوم لا يتورّعون عن منكر، ولا يتناهَون عنه، بل تأخذهم العزّة بالإثم، فيُمْعِنُون في غيّهم وضلالهم، وحيث يكثر اللّصوص، ويعيث الأشرار في الأرض فسادا، وحيث يصادر القويّ حقّ الضّعيف، وحيث يحسد الفقيرُ الغنِيّ، إذ لا قناعة برزق الله، لأنه لا إيمان لديهم به، وحيث لا تكافل ولا تضامن ولا تعارف، بل طغيان وتكبّر من جانب، وذلّة ومهانة وضَعَة من جانب آخر..

في تلك الأجواء المشحونة بالخوف والترقّب والترصّد كشف شُعَيب المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للدِّين الذي جاء به وطالب القوم أن يسيروا بهداها لإصلاح حالهم، وإثراء تقدّمهم بالقيم الإنسانيّة السّامية، والأخذ بالأخلاق الحميدة، وأن ينشروا الصلاح، ولا يفسدوا في الأرض، ولكنهم رأوا رأيا آخر، وما تابعه إلّا

قليل. فانتهى الدّور الحضاري لِمَدْيَنَ وسقطت حضارة أهلها، لتنشأ في مكان آخر، بناء على قوانين انتقال الحضارات وَفق سنن الله في الكون والحياة والإنسان، وتلك طبيعة الأشياء. وذلك هو القانون الذي جاء في الآية 140 من **سورة آل عمران** ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

أمّا الأمور التي أرادها شعيب من قومه، فتتعلّق بهم وفي إطار مصلحة مجموع النّاس، سواء كانوا من أهل مَدْيَن، أم من أولئك الذين يشاء لهم سوء طالعهم أن يقعوا فريسة عدوان اللّصوص الذين ينطلقون من مَدْيَن وما جاورها ليهاجموا قوافلهم. ولَمّا كان العدوان الذي يمارسه بعضهم بالضّدّ من بعضهم الآخر، وبالضّدّ من الطارئين على المدينة أو المارّين بها، هو نتيجة عبادتهم للأصنام وطاعتهم لتوجيهات كهنتها وسدنتها، فقد كانت دعوة شُعيب لهم تتمثّل في الإيمان بالله وحده، أوّلا، ثمّ الإقلاع عمّا هم فيه من ظلم وعدوان، ثانيا: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾[1]. فهو قد طلب منهم الالتزام بهذه المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة:

1 - عبادة الله وحده، وذلك لأنّهم إن ظلّوا على عبادة الأصنام والأوثان وكهنتها وسدنتها فسيظلّون منغمسين فيما هم فيه من ضلالة وعدوان وظلم. لأن طبيعة النظام الناشئ عن تلك العبادة تقوم على الضّلال والعدوان والظّلم، فلا سبيل لتخليص النّاس من سوء أحوالهم وأوضاعهم إلّا بعد القضاء على تلك العبادة، واجتثاث جذورها من نفوسهم، كي تتهيأ لتقبّل الحياة الجديدة والقيم النبيلة التي

---

(1) سورة الأعراف 85 - 86.

يدعوهم شعيب إليها.

2 - أن يوفوا الكيل والميزان، ولا يبخسوا النّاس أشياءهم، أي أن لا يظلموهم ولا يغشّوهم. وظاهرة الغشّ في الميزان من الأسواء التي يجب على النّاس أن يتخلّصوا منها.

3 - ولا شكّ في أنّ هذه الظّاهرة يمكن أن تتواصل بصور عديدة أخرى بتغيّر الأيام ومضيّ السّنين، ولن يقتصر الأمر على الكيل والميزان، بل سيتسرب إلى كلّ ما يتعامل به النّاس، كالمواد الإنشائيّة، والبضائع، والأدوية، والأغذية، وغير ذلك مِمّا يدخل تحت عنوان بَخْس النّاس أشياءهم. وكلّ مالٍ مكتَسب بطرق الغشّ مالٌ حرام.

4 - أن لا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، فهم قد ورثوا من سبقهم من الأقوام، إذ بعد انتهاء حضارة أيّة أمّة، ينهض الناجون والمتبقّون منهم بتشييد حضارة جديدة مفعمة بالقيم وثريّة بالمثل العليا، وهذا معنى إصلاح الأرض، ثمّ تتطاول الأيام، ويبدأ الإفساد في الأرض بالانتشار مرّة أخرى، رويدا رويدا، حتّى يصل إلى درجة تتحوّل الحياة معها إلى جحيم لا يُطاق، وحينذاك يظهر الأنبياء أو المصلحون، لينصحوا النّاس ويدلّوهم على طريق الخير والنماء.

وحتّى في الإسلام، يظهر بين آونة وأخرى مَن يصلح أمر النّاس، وذلك مضمون ما رُويَ من أنّ الله يبعث في كلّ قرن من يجدّد للنّاس دينهم أو شريعتهم، وذلك لأنهم عادة ما يبتعدون عن حقائقه، ولأنّ الواقع المتغيّر يفرض التجديد والتطوير على وفق الأسس الثابتة.

5 - أن لا يقعدوا بكلّ صراط يتوعدون الآخرين بالعدوان والأذى، ويفرضون رؤاهم على الآخرين بالقوّة والإكراه، من أجل أن تستمرّ الأحوال على ما هي عليه من سوء وشرور واعوجاج، مغترّين بقوّتهم وما وصلت إليه مدنيّتهم من رفاه. ولو كانوا يعقلون شيئا لعلموا أن ذلك الرّفاه عَرَضٌ زائل إن لم يكن متوشّجا مع القيم الإنسانيّة النبيلة التي تحوي التضامن والتكافل والتراحم بين النّاس، على عكس ما هم يفعلون.

6 - تذكيرهم بأنّهم كانوا قليلين فكثّرهم الله. ومن المعلوم أنّ حياة القوم

آنذاك كانت تعتمد على كثرة العدد والعدّة. فهيبة القبيلة في تلك الأزمان، خاصّة، كانت تعتمد على عدد أفرادها وشجاعتهم وقدراتهم. فهم كانوا قليلين ثمّ إنّ الله كثّرهم وأعانهم على بناء مدنيّتهم وقوّتهم. فالواجب عليهم شكر الله على ما أنعم عليهم، لا أن يجعلوا ذلك وسيلة للظلم والعدوان.

ثمّ إنّ أهل مدين، شأنهم شأن مَن سبقهم من الأقوام ومن سيأتي بعدهم، انقسموا إلى فريقين، فمنهم مَن صدّق بشعيب، واعتنق رؤاه، ومنهم مَن كذّبه. ثمّ هؤلاء الذين كذّبوا به وبدعوته خيّروه وأتباعَه بين أمرَين: إمّا التسليم بالأوضاع الشّاذّة التي كان عليها القوم. وإمّا نفيهم إلى مكان آخر، على الرّغم من إرادتهم.

7 - وهنا لجأ شُعيب إلى توعيتهم، وبكلّ لين وتسامح ومودّة، إلى أن يصبروا حتّى يحكم الله بينهم، وألّا يستعجلوا نزول العذاب عليهم. غير أنّ قومه أصرّوا على ما طلبوه منه ومن أتباعه: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[1]. واستجيبَ دعاء شُعيب.

8 - طلب الرّزق الحلال، فما كلّ مالٍ يحصل عليه المرء حلالا. فقد صرّح لقومه بالسّبب الأول الذي دعاه لنصحهم، بعد أن كان التنزيل العزيز قد أشار إليه تلميحا في القصّة الواردة **في سورة الأعراف**، وذلك هو ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾[2]. أي أنّ المال الحلال الذي يتبقّى لكم

(1) سورة الأعراف87 - 89.

(2) سورة هود 86.

هو خير لكم من الكثير الحرام الذي تأخذونه عن طريق الغشّ في الموازين والكيل والسّرقة والاحتيال وغيرها. وهو ما جاء في **سورة الأعراف**، أيضا، ولكنّه ورد هناك بأسلوب آخر: ﴿ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [1]. فهذا تلميح، وذاك تصريح، غير أنّ الجشع الذي استولى على نفوس القوم لم يُتح لهم أن يروا الحقيقة، لا فيما جاء تلميحا ولا فيما جاء تصريحا. وقد تعرّض القرآن الكريم لهذه الحالة في كثير من مواضعه، وبيّن السّبب الحقيقي الذي يجعل مثل هؤلاء القوم يتشبّثون بما هم فيه، ويتعصّبون له، كقوله تعالى: ﴿ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝١٤ ﴾ [2]. فالتطفيف في الموازين خداع وظلم، وسرقة أموال الآخرين عدوان، وليس لهما إلّا خزي الدّنيا والآخرة. وقد توعّد الله من يفعل ذلك بنكال وعذاب شديدَين، عساهم أن يُقلعوا عمّا هم فيه ويطلبوا الخير والبركة والنّماء في المال الحلال. وقد أنزل الله في القرآن **سورة كاملة باسم (المطفّفين)** وهم الذين يغشّون في الموازين والكيل وما إليهما: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾ [3]. فهم يستوفون ما لَهم، ولكنّهم، هم أنفسهم، لا يتورّعون عن غشّ الآخرين وسرقتهم، سواء كان ذلك الغشّ في الموازين أم في موادّ البناء والأغذية والأدوية وتنفيذ المشاريع العامّة، مِمّا لا يجهل أحدٌ مدى الأضرار الفادحة التي يسبّبها ذلك النّهج الدالّ على الجشع والظّلم والعدوان.

9 - النّاس مُسلّطون على أموالهم.. ولكنْ مع مراعاة مصلحة المجموع، بلا إفراط ولا تفريط، من أجل مزيد من التطوّر والرُّقيّ. ونستبين هذا المبدأ العامّ والقاعدة الكلّيّة من أنّ شُعيبا واصل نصحه لقومه، وداوم على توعيتهم بسوء ما هم

---

(1) سورة الأعراف 85.

(2) سورة المطفّفين 14.

(3) سورة المطفّفين 1 - 3.

عليه، وبيّن لهم أنّهم لو سلكوا الطريق الذي يمهّده لهم، لأغنَوا مدنيّتهم، ولتطوّرت حضارتهم، واكتسبت بُعْدَها الإنسانيّ الذي إنْ فقدته أيّة حضارة، فقدت جدارة توصيفها بأنّها حضارة. فكيف يمكن أن تكون الأحوال التي توصف بالحضارة حضارة حقيقية من غير تعاون وتآلف وتضامن وانسجام بين النّاس؟ وأيّة حضارة هذه التي يفتقد النّاس فيها الأمن والاطمئنان؟ وأيّة حضارة وتمدّن إذا كان هذا يسرق ذاك، وذاك يحتال على هذا؟! وأيّة حضارة تلك المبنيّة على العدوان والظلم والاضطهاد؟!

10 - ضرورة أنْ يبدأ أيّ مصلح من المصلحين دعوته منطلقا من عقائد النّاس ذاتها. وهو ما فعله شعيب إذ بدأ معهم من عقيدتهم ذاتها، لأنّه أدرك أنّه إذا استطاع أن يقنعهم بترك عبادة الأصنام والأوثان وسدنتها وكهنتها، فقد خطا بهم خطوة واسعة إلى الإمام نحو تثبيت المفاهيم الجديدة، والقِيَم التي يريد إقناعهم بها.

وهم بدورهم أدركوا هذه الحقيقة، وعلموا أنّ عقيدة شعيب بوحدانية الله هي التي أقنعته بتلك المفاهيم والقيم، لذلك سألوه منكرين:

﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾[1].

فهم قد أدركوا أنّ عقيدة النبي شعيب وإيمانه بإله واحد، هما من وراء دعوته لهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم، وأن يتخلّوا عن السّرقة واللصوصية والعدوان، والغشّ، واكتساب الأموال بالباطل، وأن يوظّفوا أموالهم لِما فيه صالحهم وصالح المجتمع الذي بين ظهرانيه يعيشون.

11 - النّبيّ لا يهدف إلى مصلحة شخصيّة: لئلا يتصور الآخرون أنّ شعيبا إنّما ينهاهم عمّا يفعلون كي يخلو له الجوّ فينتهز الفرص لمصلحته الذاتيّة، وعلى حساب مصالحهم هم: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ

(1) سورة هود 87.

وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ (1).

12 - ومن المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي أوضحناها فيما سبق، ما دعاهم شُعيب إليه من أنّهم إنْ ظلّوا على ما هم عليه، فليس مآلهم إلا الدّمار والهلاك، أسوة بمن سبقهم من أقوام، لذا فعليهم أن يعيدوا النظر في مواقفهم منه ومِمّا يدعوهم إليه، ولا يأخذهم التزمّت والتعصّب فينالهم ما سبق أن نال قوم نوح ومَن جاء بعدهم: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ (2).

13 - كلّ نبيّ هو نذير وبشير وليس مسلَّطا على النّاس. فلقد أخبرهم شعيب بهذه الحقيقة التي تشمل الأنبياء جميعا، إذ هو نذير وبشير، لا أكثر ولا أقلّ. ينذرهم بما سيصير إليه أمرهم أن أصرّوا على ضلالهم، ويبشّرهم بالرّحمة والمغفرة إن استجابوا له. وبهذا ينتهي دوره، أما مستقبلهم وجزاء أعمالهم فأمور موكولة إلى ما سيفعلونه، ثمّ مردّهم إلى الله، تعالى. ولو كانوا قد استجابوا لدعوته، ولو ألزموا أنفسهم بالعمل الصالح النّافع، ولو أخذوا على أيدي المفسدين منهم، لواصلوا مسيرتهم رخيّة رضيّة.

14 - عادة ما يجهل المتخلّفون أو يتجاهلون، ما يصل إليهم من القِيَم الجديدة. فقومُ شُعيب حين رأوا هذه القِيَم التي جاء بها شُعيب جديدةً عليهم ولا عهدَ لهم بها، لأنّها تناقض ما ألِفوه وتعلّموه وتعوّدوا عليه، فإنّهم زعموا أنّهم لم يفهموا دعوته، ولم يفقهوا قوله، ولم يتخيّلوا كيف يمكن أن يعيش المرء في ظلال القيم والآراء والأفكار التي يعلن عنها شعيب. ولم يكونوا كاذبين حين أخبروه أنّهم يجهلون ما يقول: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾ على ما جاء في الآية 91 من سورة

---

(1) سورة هود 88.

(2) سورة هود 89 - 90.

هود. فهم لا يفهمونه، ولذلك لا يجدون حجّة أخرى يحاجّونه بها غير التهديد بالنفي والرّجم. وتلك هي طبائع المنهزمين أمام المنطق الصائب. فحين يعجزون عن الحوار والجدال، أو يجدون أنّهم منهزمون فيه، يلجأون إلى لغة العنف والقسوة والفظاظة.

15 - ونستخلص من قصّة شُعيب وقومه أنّ الجاهلين يمتازون بالحماقة إذ يخافون مِمّا لا يصحّ أن يخافوا منه، ولا يخافون مِمّن يجب الخوف منه. فقد كشف أهل مَدين عن حماقتهم في هذا التهديد، إذ هم يعربون عن خوفهم من رهط شعيب الذين يمنعون عنه الأذى ويردّون عنه العدوان، وفي الوقت نفسه لا يخشون الله ولا يخافونه: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾[1].

وهذه ظاهرة ملحوظة في كل زمان ومكان، ونعني بها العدوان على الضّعفاء الذين لا يجدون لهم قوّة يركنون إليها. ومن عادة أهل العدوان أن يتجنّبوا الأقوياء من النّاس، ولا يتورّعون عن مهاجمة الضّعفاء وسلبهم وسرقة ما يملكون.

وتتفرع عن هذه الظّاهرة ظاهرة أخرى، هي أن بعض النّاس لا يسلكون السّلوك الحميد إلا تحت الضّغط والإكراه. فثمّة أناس لا يمتنعون عن الإساءة إلا خوفا من العقاب، ولا يمتنعون عن انتهاك القانون والنظام العامّ إلّا خوفا من المجتمع وقوانينه التي تمنع الإساءة وانتهاك القانون. ومن البديهيّ أنّه لا سبيل على هؤلاء ما داموا ملتزمين بالقانون والنّظام، حتّى لو كان التزامهم ذاك خوفا من العقاب. ولكنّ الأفضل منهم أولئك الذين يطيعون القانون ويحرصون على النظام العامّ لا خوفا من عقاب ولا رغبة في ثواب، بل انطلاقا من تربية ضميريّة، وطواعية نفسية.

16 - ومن هنا نلاحظ في الدّين الذي جاء به شُعيب التأكيد على ما سبق أن

(1) سورة هود 92 - 93.

ذكرناه في المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للأديان السّابقة، وما سنلاحظه أيضا في الأديان اللاحقة، من أنّ فرض العبادات على الآخرين بالقوّة لا نفع فيه، فما قيمة أن يؤدّي المرء حركات الصّلاة وسكناتها، مثلا، قسرا وإجبارا، ثمّ هو ينتهز الفرص لإلحاق الأذى بالآخرين أو يقوم بخرق النظام العامّ للمجتمع، ومخالفة القوانين التي تنظّم مساره؟! إن السّبيل الوحيد للوصول إلى شاطئ السّلامة هو الإقناع، الحوار الطيّب، والمجادلة بالتي هي أحسن. ومن بعد ذلك يأتي دور القانون.

وتتطرّق **سورة الشّعراء** في الآيات (175 - 191) إلى قصّة شعيب وأهل مدين، فتضيف إلى ما سبق ذكره من المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة ما يأتي:

17 - وجوب تقوى الله وطاعته.

18 - وجوب طاعة النّبيّ شعيب لا طاعة كهنة الأصنام وسدنة الأوثان.

19 - وجوب الوفاء بالكيل وعدم سرقة أيّ شيء منه.

20 - وجوب أن يكون وزنهم وكيلهم بالعدل من غير ظلم وانتقاص.

21 - يجب أن لا يبخسوا النّاس أشياءهم، أي أنْ يتجنّبوا خيانة الأمانة، ونقضَ العهود والعقود، والسّرقةَ، وسائرَ صور العدوان.

22 - عليهم الامتناع عن الإفساد في الأرض، فقد خلقهم الله ليعمروا الأرض، لا ليخربوها ويفسدوا فيها. ويمكن أن تجتمع الأمور السّابقة كلّها في هذا الأمر الأخير.

ولم تكن هذه المطاليب بالعسيرة عليهم لو أرادوها، فهي متلائمة مع الجانب الإيجابي من الطبيعة الإنسانيّة. ولكنّ القوم شاؤوا أن تذهب قوّتهم ودولتهم وحضارتهم بما ظلموا. وهكذا كانت نهايتهم. فربّما كانوا قد ربحوا من الأموال ما ربحوا عن طريق التطفيف في الكيل والميزان، وسرقة الآخرين، والتعرّض لقوافل المسافرين، والعدوان على الضّعفاء والذين لا يجدون من ينصرهم على المفسدين في الأرض.. ولكنّ ذلك الذي كانوا قد ربحوه خسروه دُفعة واحدة، بل خسروا حياتهم نفسها، وجنَوا على أنفسهم وعلى أبنائهم من بعدهم. وما كان أحراهم أن يتيمّموا الطيّب من الرّزق، منه يكسبون ومنه يُنفقون، ليتهنّوا به، ويعيشوا حياةً آمنة مطمئنة، فما أشبههم بما حدّثنا عنه التنزيل العزيز عن تلك القرية التي كانت آمنة

مطمئنة ثمّ هلكت بسبب سوء سلوك أهلها: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[1].

23 - ومن المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للأديان أنّ السّلوك هو الذي يحدّد قيمة الإنسان ومصيره. وإذا كانت الآية الكريمة السّابقة تقرّر أنّ الله هو الذي أذاق تلك القرية لباس الجوع والخوف، فإنّما موضوعها كالذي ورد في قصّة نوح [2]. ذلك أنّ الله قد أذاق أهل تلك القرية لباس الجوع والخوف، بسببٍ تُبيّنُهُ الآية نفسُها: ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾. فسوء أعمالهم هو الذي أدّى بهم إلى ذلك المآل، فذاقوا الجوع والخوف، وهما ناتجان طبيعيّان للظّلم والعدوان اللّذَين حلّا محلّ أعمالهم الحسنة التي كانت توفّر لهم الأمن والاطمئنان حين كانوا قائمين بفروضهما. وتلك سنّة الله في الكون والحياة والإنسان. ومثلها كمثل ما حدث لسبأ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ﴾[3]. ولو كانوا قد استمرّوا فيما كانوا عليه من عمل صالح نافع، لَما حلّ بهم الخراب، بدليل قوله: (فأعرضوا) الذي يتضمّن الإعراض عمّا كان ينبغي عليهم فعله ليتجنّبوا ما حلّ بهم.

---

(1) سورة النّحل 112.

(2) سورة هود 34.

(3) سورة سبأ 15 - 16.

قصّة الغدر... والتسامح

سيرة النّبيّ يوسف

*** من سورة الأنعام 83 - 84.**

*** من سورة غافر في أعقاب قصّة موسى وفرعون، على لسان مؤمن من آل** فرعونَ يكتم إيمانه 34.

ثمّ سورة يوسف كلّها، وهي في 111 آية. فتكفي الإشارة إليها من غير ذكر نصّها الكامل، منعا للإطالة من غير مسوّغ مقبول.

****

من هؤلاء الأنبياء أيضا النّبيّ يوسف، عليه السّلام، الذي يُمّثل دينُه مقابلةَ الغدر بالتسامح. وعلى الرّغم من أنّ هذا مبدأ عامّ في الأديان كلّها، فإنّ قصّة يوسف تجسّد ذلك المبدأ عمليّا. وقد وردت قصّته بتفصيل وافٍ، **في سورة تحمل اسم (سورة يوسف)** في القُرآن الكريم. وتتضمّن ما نشأ عليه في بيت أبيه النّبيّ يعقوب، حتّى آتاه الله رُشده وأراه برهانه، فأظهر البيّنات للنّاس. ونستبين أنّه أُرسل إلى بنِي إسرائيل من قبل أنْ يظهر النّبيّ موسى على ما جاء في قوله، **تعالى**، بضمن قصّة موسى وبنِي إسرائيل: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [1].

أمّا موجز قصّته كما **في سورة يوسف**، فإنّه كان من عائلة كبيرة العدد، له من الإخوة أحد عشر أخا. وكان أولئك الإخوة يحسدونه لِما يرون من أنّ أباهم يؤثره

---

(1) سورة غافر 34.

عليهم، ويحبّه أكثر منهم. وقد فعلت هذه المشاعر فعلها في نفوسهم، وظهرت في تصرّفاتهم تجاهه. حتّى إذا رأى يوسف حلما أنّ أحد عشر كوكبا تسجد له إضافة إلى الشّمس والقمر، طلب الأب من ابنه أنْ يكتم ذلك الحلم عن إخوته لئلّا يكيدوا له كيدا، لأنّ الشّيطان سيُغريهم بإلحاق الأذى به حسدا من عند أنفسهم أنْ رأى في منامه أنّ الشّمس والقمر وأحد عشر كوكبا تسجد له. أي أنّهم سيحسدونه على مجرّد حُلُم رآه.

وعلى الرّغم من أنّهم لم يعرفوا بأمر ذلك الحُلم فإنّ غيرتهم منه وما يعتقدونه من تفضيل أبيه له عليهم، دفعهم إلى أنْ يكيدوا له، فرموه في غيابة الجب، أي البئر، عساهم يفوزون بانصراف أبيهم إليهم بعد أنْ يتخلّصوا من يوسف. وشاء الله أنْ تمرّ قافلة بالبئر فتستخرج يوسف وتبيعه لعزيز مصر الذي أحبّ أنْ يربّيه مستعيضا به عن ذرّيّة كان قد حُرم منها. ثمّ يتعرّض يوسف لإغراء امرأة العزيز، ويُلقَى به في السّجن، حتّى يُتاح له أنْ يخرج منه ليتبوّأ مكانا رفيعا، وليجلب أباه وبقيّة أهله إليه. ويتحقّق حلمه حين يسجدون له احتراماً وتعظيماً.

وتحمل هذه القصّة مجموعة من المبادئ والقواعد التي نستجليها، هنا:

1 - الغَيرة بين الإخوة أمر من طبيعة البشر، ولكنّها يجب أنْ تظلّ في حجمها الطبيعي من غير أنْ تسبّب ضررا ولا ضرارا لأيّ منهم. وربّما كان مِن الآباء مَن يفضّل واحدا من أولاده على آخر، وهذا أيضا أمر طبيعيّ يعود إلى شخصيّة كلّ من الأولاد وسلوكه وتصرّفاته. وبلا ريب فإنّ الأب السّويّ يحبّ أبناءه جميعا، وهو حتّى إنْ فضّل هذا على ذاك بسبب السّلوك والتصرّفات، فعليه ألّا يُظهر ذلك بصورة تؤذي الآخرين وتجرح مشاعرَهم، وأنْ يبقى محبّا للجميع. أمّا التمييز بين الأولاد فصفة لا تقع عادة للأب الذي وصفناه بأنّه (سويّ) أي سويّ السّلوك. وقد لاحظنا في عرضنا للمبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة لدين النّبيّ نوح أنّ نوحا سأل ربّه أنْ يُنْجِي ابنه، على الرّغم من انّ ذلك الابن كان عملا غير صالح. ولا نظنّ أنّ يعقوب كان خارجا عن هذه الطبيعة البشريّة، فهو ما فضّل يوسف على إخوته إلّا لِميزات تَمَتّع بها يوسف، وهي ذات الميزات التي أهّلته للنبوّة. ونعتقد جازمين، أنْ لو كان يعقوب قد فضّل أيّا من إخوة يوسف عليه، لَما وصلت الغيرة بيوسف إلى إلحاق

الأذى بذلك الأخ، لأنّ له من سموّ نفسيّته ما يعصمه عن ارتكاب مثل ذلك الأذى.

هذا إلى أنّ القصّة لا تبيّن لنا أنّ النّبي (يعقوب) كان يفضّل يوسف على الآخرين إلّا ما نُقل على لسان إخوة يوسف. أمّا ما ذكره بعض الرواة من أنّه كان يفضّله بسبب كونه ابن زوجة أخرى يحبّها أكثر من بقيّة نسائه، فأمر لا نستطيع قبوله، لأنّه وإنْ كان أمرا ملحوظا لدى بعض الرّجال، غير أنّ الرّجال الأسوياء لا يفعلون ذلك. فما ذنب الطفل إذا كان أبوه لا يحبّ أمّه كما يحبّ أمّ طفله الآخر أو أطفاله الآخرين فيفضّلهم عليه ويقرّبهم منه؟!

إنّ التمييز بين الأبناء وتفضيل بعضهم على بعض بسبب أنّ الأب يحبّ أمّ هذا أكثر من أمّ ذاك، من الظّلم البيّن الذي لا يحتاج إلى برهان ولا إلى دليل.

ونستطيع أنْ نبرهن على حبّ يعقوب لأبنائه الآخرين لأنّه حتّى بعد ما فعلوه مع يوسف مِمّا يستحقّون عليه العقاب، فإنّه حين أرسلهم ليجلبوا مِيْرَتَهم وما هو مخصّص لهم في بيت المال، أوصاهم، ألّا يدخلوا المدينة من باب واحد بل من أبواب متفرّقة حرصا على سلامتهم، على الرّغم من أنّه لا يملك لهم من الله شيئا: ﴿ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ ﴾[1].

2 - ومن الأدلّة على العفو والتسامح ما جسّده يوسف عمليّا كمبدأ عامّ من مبادئ دينه، وذلك حين عفا عنهم في الوقت الذي كان يستطيع أنْ يُلحق بهم العقاب جزاء عادلا لكل الذي فعلوه معه. غير أنّه تجاوز عنهم ولم يكتف بذلك العفو والتجاوز عن أفعالهم بل اجتباهم إليه، وحمد الله أنْ مَنّ عليهم بجَمْعِ شملِهم مرّة أخرى.

3 - ومن تلك المبادئ أنّ كلّ ما فعله إخوته معه ناتجٌ من وسوسات النفس الأمّارة بالسّوء، فتلمّس لهم الأعذار ونصحهم بالاتّعاظ مِمّا حدث.

4 - وواضحٌ أنّ قصّة يوسف تمثّل الصراع بين الكيد والنقاء، الكيد من

---

(1) سورة يوسف 67.

الإخوة، وامرأة العزيز، والعزيز نفسه في مرحلة من مراحل القصّة، والنقاء الذي يمثّله يوسف. وإذا كان كيد أولئك كيدا سلبيا وضارّا فإنّ يوسف كاد لإخوته كيدا إيجابيّا حين اتّهمهم بسرقة (صواع الملك) الذي كانوا يكيلون به بضائعهم، بعد أنْ قام هو نفسه بإخفائه في رحل أخيه، وذلك من أجل أنْ يجيء أبوه بنفسه، ويلتقي به وبأُمّه، ويكشف لإخوته أنّ كيدهم لم يضره شيئا لأنّ الأمر لله من قبل ومن بعد.

5 - وثمّة تسامح آخر قد يبدو غريبا وهو ما حدث بين حاكم مصر وامرأته. فهذه المرأة راودت يوسف عن نفسه، واستبان لزوجها الحقّ فيما يقصّه التنزيل العزيز: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [1].

فقد اكتفى عزيز مصر أنْ يبيّن لامرأته أنّها خاطئة، وأنّ عليها أنْ تستغفر لذنبها، ثمّ طلب من يوسف أنْ ينسى الموضوع برمّته، وأنْ يواصل حياته معهما كما كان قبل حدوث ما حدث.

6 - ومرّة أخرى يعفو العزيز عن امرأته، حين اعترفت بأنّها راودت يوسف عن نفسه، وأنّه استعصم منها ومن غيرها من نساء المدينة المعجبات به العاشقات له، فقد جاء على لسان عزيز مصر: ﴿ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ

(1) سورة يوسف 23 - 29.

قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[1]. فقد اعترفت المرأة بخطئها، واستغفرت ربّها، وأقرّت بأنّ النفس أمّارة بالسّوء إلّا ما رحم الله. فأعرض زوجها عن عقابها، وعفا عنها، وخاصّة بعد أنْ أكّدت أنّها لم تقم بخيانته.

إنّ هذا الموقف من عزيز مصر، ليس مفرَدا في قصص التنزيل العزيز، وبخاصّة ما كان من امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[2]. كما وصف القرآن الكريم حالة امرأة لوط بقوله: ﴿ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾[3]. وقوله: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ ﴾[4].

7 - ويدلّنا المقطع السّابق من قصّة يوسف على مبدأ آخر من مبادئ الأديان وهو التثبّت وإعمال العقل والتروّي قبل إصدار الحكم. فيوسف وامرأة العزيز قد استبقا البابَ ووجدا سيّدها هناك، فزعمت أنّ يوسف راوَدَها عن نفسها، فلم يَعْجَل زوجها بإصدار حكمه على يوسف، بل استمع إلى شاهد من أهلها، أنْ يرى إنْ كان قميص يوسف قُدّ من أمامه أم من خلفه، فبذلك يستبين الحقّ، وقد استبان لعزيز مصر.

8 - وفي القصّة أيضا مبدأ آخر تتّفق عليه الأديان جميعا، وهو الصّبر وكظم

---

(1) سورة يوسف 51 - 53.

(2) سورة التّحريم 10.

(3) سورة الشّعراء 170 - 171.

(4) سورة هود 81.

الغيظ، وذلك ما فعله يوسف عمليّا، سواء في الاتّهام الذي وجّهته إليه امرأة العزيز، أم في وضعه في السّجن بضع سنين. وربّما تساءل بعضهم عن السّبب الذي دفع يوسف إلى الصبر على السّجن وهو بريء؟ أوَلا يُعتبر هذا صبرا سلبيّا؟

والحقّ أنّ هذا الصبر كان إيجابيّا، بملاحظة الظّروف التي مرّ بها يوسف منذ أن رماه إخوته في الجبّ ثم صيرورته عبدا يُباعُ ويُشترَى، ثمّ ما حدث له بعد ذلك. فدخوله السّجن كان خياره الوحيد، وقد صرّح بذلك، بعد أنْ لم يشأ ملك مصر أن يتركه طليقا لسبب من الأسباب، وذلك قول يوسف في الآية 33 من السّورة المُسَمّاة باسمه: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ ﴾ [يوسف: 33]. ثمّ إنّه اتّخذ من السّجن وسيلة للتعليم والإرشاد، بالدّعوة إلى نبذ الشّرك والإيمان بإله واحد، ومثال ذلك ما قاله لصاحبَيه في السّجن حين طلبا منه تفسير حُلُمَيهما، على ما سيأتي ذكره.

9 - إنّ تفسير الأحلام علمٌ اكتسبه يوسف من ربّه. وبذلك ينتقل تفسير الأحلام إلى حقيقة، ومن غير أن يكون إلهاما من الله فهو وَهْمٌ. وحقيقة أنّ الأديان تعترف بالأحلام، ولكنّ تفسير تلك الأحلام ليس مهمّة ميسورة على ما فعله بعض النّاس وما زال آخرون يفعلونه هذه الأيّام. وقد تضمّنت قصّة يوسف مزجا بين الأحلام والواقع، فهناك حُلُم رآه يوسف، وحُلُمان رآهما صاحباه في السّجن، وحُلُم رآه عزيز مصر.

فأمّا حلم يوسف، فهو مفتاح القصّة كلّها: ﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦ ﴾ [1].

(1) سورة يوسف 4 - 6.

10 - وتكشف آيات سورة **يوسف** وسواها مِمّا جاء في قصّته في القرآن الكريم، وكذا ما نراه في التوراة والإنجيل، أشياء عديدة من المبادئ العامّة والقواعد الأساسيّة لدين النّبيّ يعقوب وابنه يوسف. حيث يتّخذ يعقوب من حلم ابنه يوسف وسيلة للتعبير عن شيء من تلك المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة، مثل إخباره لابنه أنّ الشّيطان عدوّ للإنسان، وأنّه سيوسوس لإخوته كي يكيدوا له، ولكنّ الخاتمة أنّ الله سيتمّ نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتَمّها من قبلُ على أبَويه إبراهيم وإسحاق. ولا ننسى أنّ إبراهيم، نفسه، أيضا، كان قد رأى حلما أنّه يذبح ابنه، وأراد أن يحقّق ذلك الحُلُم غير أنّ الله فداه بذِبْح عظيم.

11 - التطهّر الذّاتي: نلاحظ أنّ ثمّة فارقاً بين الحُلُمين، حلُم إبراهيم، وحلُم يوسف، فإبراهيم الخليل أراد تنفيذ الحلُم، لأنّ ذلك التنفيذ كان بيده، أمّا يوسف فلم يكن بيده سجود الكواكب الأحد عشر والشّمس والقمر له، إلّا أن يأخذ نفسَه في طريق التطهير الذاتي ومواصلة السّعي لاكتساب السّموّ النفسي والضّميري الذي يؤهّله لتحقيق حلُمه. ولذا رأيناه يأخذ أعداءه والذين آذوه جميعا باللّطف واللّين. وقد رأينا في طوايا قصّته أن الأذى لحقه من إخوته، ومن امرأة حاكم مصر، ومن الحاكم نفسه حين رماه في السّجن من غير ذنب أتاه. ثمّ إنّ يوسف عفا عنهم جميعا، بل تعاون معهم بطيب خاطر وسلامة طويّة، فجزاه الله خير الجزاء بما صبر، إذ صار أمينا (على خزائن الأرض) والتحق به أهلُه وذووه.

هذا كان شأن الحلُم الأوّل، حلُم يوسفَ نفسه. أمّا حلم صاحبيه في السّجن فله شأنٌ آخر سيؤدي إلى إطلاق سراح يوسف من السّجن: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ

ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[1].

ونلاحظ في هذا النّص أنّ نهج يوسف هو نهج أبيه، المبادئ العامّة ذاتها والقواعد الكلّيّة ذاتها، لذلك جعل تفسيره لحلمَيهما، بغضّ النظر عن ماهيّتهما، وسيلة لبيان معتقده في:

12 - الإيمان بإله واحد بدلا من عبادة الأصنام والأوثان. إذ دعاهما بأسلوب هادئ رصين إلى الإيمان بالله، وترك عبادة غيره من أشياء لا حقيقة لها بل هي مجرّد أسماء هم اختلقوها وابتكروها وصنعوها بأنفسهم، فكيف يعبدون ما يصنعون؟!

وأمّا حلم عزيز مصر، فيجسّده قوله، تعالى في **السورة نفسها:** ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ

(1) سورة يوسف 36 - 42.

عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (1).

13 - قلنا قبل قليل أنّ تفسير الأحلام موهبة أو قدرة خاصّة وهبها الله لبعض خلقه، ومنهم النّبيّ يوسف. فلا يصحّ أن يدّعيها من لم يكن متمتّعا بقدرات روحية خاصّة، نتيجة رياضة روحيّة وتطهير متواصل للنّفس. لذا جاء في قصّة يوسف أنّ تفسير الأحلام جزء من تأويل الأحاديث، وهو فضلٌ من الله. وتأويل الأحاديث يعنِي فهم دلالاتها فهما دقيقا.

ويقودنا تفسير يوسف لأحلام صاحبيه في السّجن وحلم عزيز مصر إلى اعتبار الأحلام أحاديث النّوم كما أنّ الأحاديثَ أحلامُ اليقظة. والفارق بينهما أن أحلام النّوم تجسّدها الحوادث. وأحلام اليقظة يعبّر عنها اللسان، والحياة كلّها، ليست أكثر من حلم يعيش فيه المرء فترة من الزمن، ثمّ يخرج من حُلُمه إلى عالم الحقيقة الوحيدة الثابتة، الموت وما بعده!

14 - ونستنتج من هذا السّياق أنه لا مبرّر للأحقاد التي تنزرع في النّفوس، ولا مسوّغ لنزعات الشّرّ والعدوان. بل لا بدّ من التعاطف مع الآخرين حين يكونون ضحايا لتلك الظّروف، وهو ما فعله يوسف حين اعتبر أنّ ما كان من سلوك إخوته تجاهه مجرد نَزْغ من الشّيطان، فعفا عنهم، وقرّبهم: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (2).

---

(1) سورة يوسف 43 - 49.

(2) سورة يوسف 100.

قصّة النّبيّ الذي نادى في الظلمات

ومن هؤلاء الأنبياء، أيضا، النّبيّ يونُس، عليه السّلام، الذي ورد ذكر قومه في **سورة حملت اسمه (سورة يونس 98)**. وجاءت قصته معهم في:

*** سورة الأنبياء 87 - 88:**

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

*** سورة الصافّات 139 - 148:**

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

*** سورة القلم 48 - 50:**

﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

لقد مرّ النّبيّ يونس بتجربة لم يمرّ بها أحد من الأنبياء والرّسل قبله ولا بعده. ذلك أنّه كان قد يئس من هداية قومه، فهجرهم من غير أن يتلقّى بذلك أمرا من ربّه.

ولم نلحظ هذا الهَجْر في أيّة قصّة من قصص الأنبياء والرّسُل، بل نلحظ التواصل والصّبر وتحمّل الأذى مهما اشتدّ. ونتيجة لذلك الهجر مرّ النّبيّ يونس باختبارات عسيرة أبانت له وللنّاس شيئا مهمّا من المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للدّين الذي جاء به. وهي وإنْ كانت متّسقة مع المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للأديان التي قبله والتي بعده، غير أنّها أضافت تطبيقات عمليّة لها. فهو النبيّ الوحيد الذي لم يَعُدْ يُطيق صبرا على أذى قومه فتعجّل تركَهم، من غير أمر من ربّه. ولكنّه استبان خطأ موقفه هذا في آخر المطاف حيث استغفر ربّه وأناب وعاد إلى قومه فوجدهم متلهّفين للقائه لأنّهم آمنوا به أثناء غيابه عنهم.

بدأت أحداث تلك القصّة في نينوى التي قامت على أطلالها مدينة الموصل في شمال العراق. ففي تلك المدينة، وفي تاريخ لا يُستطاع تحديده بدقّة، ظهر يونس معلنا من مبادئ دينه العامّة وقواعده الكلّيّة ما يُمكن أن نجمله في:

1 - إنّ العلاقة بين الخالق والمخلوقين علاقة مباشرة، وبلا واسطة أيّا كانت.

2 - يجب أن تُستثار في النّفس إرادة الصبر الإيجابيّ الذي يعنِي مواصلة العمل البنّاء الصالح، لأنّ تلك المواصلة هي الطريق الوحيد للوصول إلى النتائج المرجوّة من ورائه.

3 - الغيظ والغضب لن يؤدّيا إلى نتيجة مَرْضيّة ولن يصيبا الواقعَ في قبضتهما القاسية إلّا ضررا وأذى.

4 - إنّ الانغماس في الترف المادّي ونبذ القيم الرّوحيّة والأخلاقية، يُودي بالنّاس وحضارتهم إلى الفناء والزوال. فراح يونس ينصح لقومه، ويبصّرهم بما هم فيه من خطأ وخلل في منهجهم وسلوكهم، حيث افتقدوا التعاون والتآلف مِمّا يؤذن بأفول نجم حضارتهم عن قريب.

5 - أدرك يونُس سوء أوضاع قومه، وتلمّس لهم طريق الخروج من مأزق حياتهم الاجتماعيّة بعدم الخضوع لسيطرة الأصنام والأوثان وكهنتها وسدنتها، وحثّهم على العمل الصالح والتضامن فيما بينهم. أهاب بالجاهلين منهم أن يعودوا لعقولهم، وأن يحتكموا إلى ضمائرهم، وأن يكرّموا جباههم من السّجود للأصنام

والعبوديّة للسَّدَنة والكهنة المتاجرين بالأصنام والرّاكضين وراء جشعهم وأنانيّتهم، فشجّعوا المجرمين على ارتكاب جرائمهم، وأحصوا على يونس وأتباعه أنفاسهم، وضيّقوا عليهم أشدّ الضّيق، وتلك هي سنّة الجاهلين على مرّ العصور مهما كانت شعاراتهم التي يرفعونها ويتدثّرون بها. فالجاهلون لا يستطيعون مقارعة الحجّة بالحجّة، ولا مواصلة الحوار بالحوار، لذلك يلوذون بنابي الألفاظ وجارح الكلام، بل يتجاوزون ذلك إلى ما هو أخطر منه، فتتلوث أيديهم بدماء الأبرياء، بهذه الذريعة المخادعة أو تلك. ومِن عجَب أنّ منهم مَن يؤمن إيمانا قاطعا بأنّه يُحسن صُنعا، مِن غير أن يلتفت إلى الأضرار الفادحة التي يُلحقها بالآخرين وبنفسه أيضا! وإذا التفت إلى ذلك بنُصح وإرشاد أمعن في غيّه وضلاله!

6 - دعا يونُس قومه إلى عبادة الله ليتخلّصوا من عبوديّة سدنة الأصنام وكهنة الأوثان، وليعيشوا أحرارا ليس بينهم وبين خالقهم فئة ولا جماعة تفرض عليهم عقيدة ثمّ تجعل من أسسها أنْ تحتكرها وتفسّرها على هواها، وتفرض عليهم رؤاها فليس لأحد من النّاس أن يجادلهم فيها.

7 - وأبان لهم واحدا من أهمّ المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة لدينه وللأديان التي جاءت قبله، وستأتي من بعده أيضا، ويتمثّل ذلك المبدأ في أنّ الله غفور رحيم، ومن صور رحمته وغفرانه أن أرسله اليهم نبيّا هاديا مرشدا يقودهم في طريق الخير والعزّة والكرامة وأنّ الخاطئين والمخطئين منهم يتوب الله عليهم إنْ تابوا عمّا هم فيه من تخبّط وضياع. وفي بادئ الأمر، دُهش قومه من دعوته، إذ سمعوا قولا لم يألفوه، حيث لم يكونوا يفهمون أنّ علاقتهم بخالقهم يمكن أن تكون مباشرة من غير وسيط، ومن غير أن يحتكر تفسير تلك العلاقة أُناسٌ انشدّ جشعهم إلى بيوت الأصنام والأوثان. فتخيّلوا أنّ الإله الذي يدعوا يونُس اليه هو إلهٌ آخر لا يعرفونه، معتمدين على مقولة طالما ردّدها من سبقهم أنْ لو كان إله يونس حقيقة موجودة، ولو كانت تلك القيم الجديدة قِيَما إلهيّة بحقّ وحقيق، لجاءت ملائكة يبشّرونهم بكل ذلك، فمثَلهم كمَثَل مَن سبقهم وجاء بعدهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ

عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [1] وهم يريدون واحدا من كبار المشركين. ومثل ذلك تذرعهم بأنّ رسالة الله لا تحملها إلا الملائكة، كمبرر لهم لعدم إيمانهم بالنبوّات: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لأنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [2]. ولكنّها ذريعة واهية: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ [3].

وهكذا كانت حالة يونس، فهو واحد من البشر، واحد من النّاس، واحد من مجتمعهم، عايشهم وعايشوه، يعرفونه ولا ينكرون عليه شيئا، فلمّا بدأ بنصحهم اتّهموه بشتّى الاتهامات، وحاولوا تسقيطه أمام النّاس كي لا يتّبعوه. وهو أسلوب معروف قديما وحديثا، حيث يلجأ ضعاف النفوس إلى الأكاذيب والأباطيل يزخرفونها ويجمّلونها ثمّ ينشرونها بين النّاس للإساءة إلى هذا وذاك وذلك. ومن هنّا حرّم الله هذا العمل تحريما باتّا وقاطعا. إذ هو ما بين تهمة باطلة، وغيبة مرفوضة ومرذولة، وكَذِبٍ بَيّنٍ عليه عقاب. وتلجأ المجتمعات الحديثة إلى سنّ التشريعات والقوانين والضّوابط التي تمنع الإساءة إلى الآخرين مهما كانت مساحة الحريّة الفردية واسعة ومنفتحة ومنفسحة. لأن الحريّة تتحوّل إلى فوضى إنْ لم توضع لها ضوابط تحكمها وتمنع سوء استغلالها لإلحاق الضّرر بالآخرين. ولذلك شاعت مقولة بين النّاس أنّ الحريّة الفرديّة تقف عند حدود حريّة الآخرين. الحريّة هي في حقيقتها ضدُّ الفوضى، ضدّ الإضرار بالنفس أو الإضرار بالآخرين. الحريّة تعنِي الانطلاق في طريق العلم والعمل، في طريق البناء والتشييد، بناء النفس وبناء البلدان وإعمار الأرض.

8 - وتؤكّد جميع الأديان، وكما هو واضح في قصّة يونس، على أن المتخلّفين نفسيّا وعقليّا لا يبالون بما يرتكبون من آثام حين يمارسون تلك

---

(1) سورة الزّخرف 31.

(2) سورة المؤمنون 24.

(3) سورة الأنعام 111.

الممارسة الهابطة، وحين يسلكون ذلك السّلوك السيئ الضّارّ. ومن هنا فإنّ قوم يونس أساؤوا اليه إساءة بالغة، فلم يكتفوا بأن أنكروا عليه دعوته، بل اعتبروها هذيانا وبهتانا وحمقا، وآذوه بسببها أذىً كبيرا بحجّة أن تلك هي آلهتهم عبدها آباؤهم وأجدادهم من قبل، وما هو إلا واحد منهم، فما هذا الذي يقول؟ وما هذا الدّين الذي يبتدعه؟

9 - العدل أساس المُلك: دعا يونُس قومَه لأنْ يأخذوا بالعدل في كلّ أمورهم. فأنكر عليه السّدنة والكهنة والمنتفعون من عبادة الأصنام والأوثان تلك الدّعوة لأنّهم رأوا أنّ حياتهم لا تستقيم بذلك العدل. بل رأوا أنّ العدل كلّ العدل يتمثّل فيما هم عليه. وراحوا يسوقون المسوّغات والمبرّرات ليجيزوا بها الجشع والطمع والعدوان، وكان يونس يحاججهم ويردّ أقوالهم ويخاطبهم بالرّفق والأناة محاولا أن يحيي فيهم المشاعر الإنسانيّة الرّفيعة من أجل أن يعمّروا الأرض ويحقّقوا رسالة الخلق.

10 - إسقاط التقليد الأعْمَى: دعا يونس قومَه إلى أن يرفعوا عن عيونهم غشاوة التقليد، وأن يمزّقوا عن عقولهم نسيج الأوهام، وأن يستعملوا عقولهم، ويفكّروا، ويتدبّروا في سبب وجودهم على هذه الأرض. ونبّههم إلى أنّ كهنة الأصنام وسدنة الأوثان، سدّ مانع بينهم وبين خالقهم،وليس هدفهم من وراء ذلك إلا استغلالهم عن طريق استغلال تلك العقائد الباطلة الزّائفة التي ليس لها أيّة حقيقة ووجود. ساءلهم عن تلك الأصنام هل تخلق شيئا؟ وهل تحيي وتميت؟ وهل تنفع وتضرّ؟ وهل تسمع الدّعاء؟ وهل تجيب دعواتهم؟ وهل لها دور في تحقيق سعادتهم النفسيّة واطمئنانهم الاجتماعي؟ وهل تحثّهم على التعاون مع غيرهم من النّاس من أجل منفعتهم ومنفعة الآخرين الذين يشاركونهم في صفة الإنسانية الصافية السّامية؟!

11 - وجوب التعاون: وساءلهم عن السّبب الذي يدعوهم إلى رفض دعوته، وإعراضهم عمّا فيه نفعهم وصلاح أمورهم، وتعاونهم في الخيرات، ودفع الضّرر والضّرار؟ ما الذي يمنع قويّهم من إيقاف اعتدائه على ضعيفهم، على الأقل، ناهيك عن طلب إعانته ومساعدته؟ وما الذي يمنع غنيّهم من مساندة فقيرهم؟ ولماذا هذه

الحالة المزرية التي يعيشون فيها؟

12 - وأخبرهم أنّ دينه الذي يدعوهم إليه، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وتلك من أولى المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للأديان. وما المعروف إلا صلاح شؤون الحياة، والمنكر إفسادها وتدمير معاني الخير فيها. وكثيرا ما حبّب إليهم العدل والسّلام، ونصحهم بتوفير الأمان والاطمئنان، وشجّعهم على العطف على المساكين والمحتاجين وأبناء السّبيل وإطعام الجائع، وفكّ الأسير العاني الذي ليس لديه ما يفتدي به نفسه، إنْ كان له الفداء، مِمّا فيه صلاح الحال واستقامة الأحوال والأعمال.

13 - استكثار النبوّة على بشر: وكعادة الأقوام السّابقين (واللاحقين أيضا) ومثل سيرة غيره من الأنبياء والرُسُل لم يَنَلْ من الجاهلين إلا الحجج الواهية ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [الشعراء: 154] وواحد منّا، فلا سبيل لأن نطيعك ونعصي آلهتنا وكهنتها، وهذه عقائدنا الموروثة أبا عن جدّ. فهؤلاء وأمثالهم في كل الأزمنة والأمكنة يكشفون عن جهلهم وتمسكهم بالتخلف الذي هم عليه.

14 - التجمّد على الماضي: تكشف سِيَرُ الأنبياء والرُسُل غباء أولئك المتعلّقين بما ألفَوا عليه آباءهم وأجدادهم من غير أن يتمعّنوا فيما ورثوه عنهم ومدى قربه من الصواب. وربّما تصوّر هؤلاء وأمثالهم أنّ تركهم لِما ألْفَوا عليه آباءهم هو تركٌ لآبائهم وأجدادهم بالذات، ولا علاقة بين الأمرين فلكلّ جيل ظروفه ومعارفه. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى، ما يدريهم أنْ لو كانت دعوة يونُس (أو غيره من الأنبياء لغيرهم من الأقوام التي كان لها الموقف نفسه) قد ظهرت في أيّام أجدادهم وآبائهم ما كان أولئك الآباء والأجداد ليؤمنوا به وبها؟!

15 - ويقودنا هذا إلى مبدأ آخر وقاعدة أخرى من تلك المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للأديان عموما. ذلك تقريرها أنّ كثيرا النّاس عادة لا يفصلون بين الشّخص وموقفه، ولا بين المرء ورأيه، فإنّهم غالبا لا يعرفون الحقّ إلّا بناء على موقف الأشخاص الذين يحبّونهم ويتعلّقون بهم. وإذا كان للأطفال عذرٌ إذا فعلوا ذلك بحسب وعيهم الضّئيل وإدراكهم المحدود، فليس للكبار عُذر. فالرّجال يُعرفون بالحق، أمّا الحقّ فقيمة مستقلّة لا تُعرَف بأحد. والفرق بين الحالتين أنّ

الرّجال بشر وهؤلاء البشر مُعَرَّضون للصّواب والخطأ والخطيئة، فليس من العقل ولا من الحكمة أن يوصف سلوكهم بأنّه هو الحقّ المطلق لا لشيء إلّا لأنّهم فعلوه!

16 - الصّبر: وواصل يونس دعوته. فقد ظلّ صابرا على لأواء قومه، وتَعَنُّتِ كبرائهم، يحاورهم بالتي هي أحسن ويقيم لهم الأدلّة والشّواهد على أن الحياة التي يدعوهم إليها هي أفضل من هذه الحياة التي يَحيونها، والمرتكزة على تعدّد الآلهة وما يستتبع ذلك من ظلم وعدوان.

17 - الاقتناع الذّاتي: وكشف لهم عن مبدأ آخر من المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للأديان عموما والمتمثّل في أنّ الاقتناع الضّميري بقيم الدّين الجديد، بما فيه من مبادئ عامّة وقواعد كلّيّة يحقّق الخير الذي يبتغيه لهم نبيّهم ويجب أن يبتغوه لأنفسهم، وذلك بتوفّر الإيمان الذي يدعوهم إليه، وإلا فإنّ ربّهم كفيلٌ بهم، يعذّب من يشاء ويعفو عمّن يشاء، وليس النّبيّ عليهم بمسيطر.

18 - التعصّب والرّفض والعناد، سعيا وراء الهلاك: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: 70] تماما كما سبق أن قالت الأقوام الأخرى لأنبيائهم.

19 - ثمّ تكشف لنا قصّة يونس تطبيقا عمليّا للمقولة المشهورة إنّه لا يأس مع الحياة.. ولا حياة مع اليأس. ذلك أنّ يونُس، وهو بشرٌ لديه ما لدى البشر من مشاعر وأحاسيس، انتابه اليأس من إصلاح شؤونهم فتركهم من غير أن يأتي له أمرٌ من الله تعالى. وظلّ القوم في ضلالهم وغيّهم، حتّى أتتهم نُذُر العذاب. فعلموا أنّ يونس قد صدقهم فيما دعاهم إليه، وأحسّوا إحساسا غامرا بأنّهم ظَلموا أنفسهم، فخرجوا إلى شعاب الجبال يستغفرون ربهم يَشْكون ويتضرّعون ويبكون. وتلك حالة فريدة لم نشهد لها مثيلا في جميع قصص الأمم لا في التنزيل العزيز، فحسب، بل في كتب الأديان الأخرى. حيث إنّ تلك الأمم كانت ترى النّذر ولكنّها لا تأخذها مأخذ الجدّ، أمّا هؤلاء فقد ثابوا إلى رشدهم قبل أن يحلّ الهلاك بهم.

20 - التوبة والاستغفار: وكان لتوبتهم واستغفارهم ردّ سريع. فقد مرّت ساعة من الشّدّة، ثمّ عمّهم الله برحمته، وبسط عليهم جَناح الاطمئنان، ورفع عنهم سحائب النّقمة والعذاب، وتقبّل منهم التوبة والإنابة، إنّه هو الغفور الرّحيم الوَدود.

فباب التوبة واسع لكلّ النّاس: ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [1].

21 - ولكنّ تعجّل يونس بتركهم ويأسه من هدايتهم من قبل أن يأذن الله له، أوقعه في مشكلات ما كان له أن ينجوَ منها لولا أن تداركه الله برحمته بعد أن انتبه يونسُ إلى أنّ تعجّله في ترك قومه ما كان ينبغي أن يقع. ومن البديهي أنّ يونس بعد أن ترك قومه لم يكن لينسى أنّ رسالته في الحياة الدّعوة إلى الخير والصلاح. ثمّ ركب السّفينة مع قوم آخرين من غير أنْ يأذن له ربُّه. فقيّض الله له ما ينبّهه إلى ما وقع منه من سلوك ما كان من الصواب أن يقع. فمغادرته لقومه قبل أن يحين أوان تلك المغادرة لم يكن الحلّ الأمثلَ لعنادهم، ولذلك حين بدت النُّذُر وعادوا إلى صوابهم لم يجدوا مَن يأخذ بيدهم ويقودهم في طريق الهداية، فتفرّقوا في الجبال وشعابها وهم يبكون ويستغفرون. وكان لا بدّ ليونُس من عِظَة تعمّق في نفسه إرادة التوبة.

22 - وتُثبت قصّة يونس أن الندم والاستغفار طريقان للنجاة فهذا ما حصل مع قومه، وهو أيضا ما حصل له. فبكلّ ما يملكه من ألم وندم، عاد إلى وعيه، أو عاد إليه وعيُه، ولم ييأس من غفران الله ورحمته، ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 87] فبشّره ربّه وبشّر سائر المؤمنين الحقيقيين ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: 88] وإنّه وعدٌ من الله لازمُ التحقيق.

23 - وبذلك كلّه تعلّم يونُس أنّ واجبه النبويّ ينتهي بتبليغ الرّسالة الإلهيّة إليهم وليس عليه هداهم، كما ليس له أن يقسرهم على ما لا يرتضونه، بل أن يأخذهم بالحسنَى والصبر وكظم الغيظ: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [2]. فلا مسوّغ لليأس والتهرّب

(1) سورة يوسف 87.

(2) سورة يونس 99.

من مقتضيات أداء رسالة السّماء.

وبالجملة فإنّ هذه القصّة تضع أيدينا على مبادئ عامّة وقواعد كلّيّة لدين النّبيّ يونس، وهي مِمّا نجده في الأديان الأخرى أيضا، مع شيء من التغاير في مجريات القصّة نفسها عن قصص الأمم الأخرى، بحيث يمكن أن نضيف إلى ما مرّ، هذه المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة:

24 - أنّ من الأنبياء من يُرسل إلى قوم معيّنين لا للنّاس كافّة، وعلى الرّغم من ذلك فإنّ دينه يتضمّن المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للأديان عموما. فإنّ يونس بُعث إلى قوم معيّنين، ذكر القرآن تعدادهم بأنّهم أكثر من مائة ألف: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾[1]. وبذلك لم تكن رسالته عامّة شاملة للنّاس جميعا، وإن كانت مبادئها العامّة وقواعدها الكلّيّة موجودة في الأديان العامّة الأخرى.

25 - أنّ أبواب التوبة مُشرعة ولا يأس من رحمة الله. فقد آمن قوم يونُس بمجرّد أن رأوا النّذر فنفعهم إيمانهم، فاستكملوا مدّة حياتهم، ثمّ جرى عليهم ما يجري على الأمم طيلة التاريخ: ﴿ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾[2]. وذلك جريا على سنّة الله في خلقه: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[3].

26 - أنّ أولئك القوم كانوا على درجة عالية من التقدّم المادّي والقوّة البشريّة. أي أنّهم جسّدوا حضارة عصرهم ذاك.

27 - أنّ يونس عامل قومه وهم من المشركين الضّالّين الجاهلين البوّاحين بكفرهم وضلالهم معاملة حسنَى، لأنّه لا يحمل الحقد في قلبه، فلا يلجأ إلى القسوة والعنف مع إدراكه ويقينه بأنّه نبيّ، وأنّ دعوته هي دعوة الحقّ. لذلك يحقّ للنّاس أن يتساءلوا: اذا كان النّبيّ يونس نفسه لم يعامل الضّالّين بالقسوة والعنف، ولم يأخذهم بالشّدّة وهو نبيّ مأمور من السّماء بأن ينشر دعوته، فكيف ظهر على

---

(1) سورة الصافّات 147.

(2) سورة الصافّات 148.

(3) سورة آل عمران 140.

وجه التاريخ من أراد (وما زال يريد) أن يبطش بالنّاس بمن فيهم المؤمنون الصالحون، لا لشيء إلا لأنّه حكم على الآخرين بالكفر وأنّ الإيمان قد اكتمل لديه وحده! ولكنْ.. هل هو أكمل إيمانا من الأنبياء وأكثر صلاحا منهم؟! فان لم يكن كذلك، وهو حتما ليس كذلك.. فما هذا الغلوّ والتعصّب والعدوان على الآخرين؟!

28 - أنّ يونس قد غادر قومه غاضبا، ويئس من هدايتهم، فكان هذا العمل منه خضوعا لعاطفته، وليس لذلك الخضوع ما يبرّره، خاصّة وهو يدري أن دوره مقتصر على إرشادهم ونُصحهم، وأنّ ضلالهم عليهم لا عليه.

29 - أهمية العمل، فحين ألقاه الحوت على الشّاطئ، هيّأ الله له نباتا، فكان على يونس أن يأكل منه، أن يتحرّك، وأن يتقدّم نحو ذلك النبت، وأن يجهد في قطف ثماره، ولو شاء الله لمنحه الصحة والعافية والقوة من غير أن يبذل جهدا. بل لو شاء الله لهدى النّاس من غير أن يجشّم يونَس وغيرَه من الأنبياء عناء تأدية رسالاته والمشكلات التي جابهوها.

30 - أنّ قوم يونس كانوا قد تأثّروا بدعوته على الرّغم من أنّه لم يعِ ذلك التأثّر، لذا فإنّهم وبمجرّد أن رأوا نُذُر العذاب، وهي علاماته المنبئة بأنّه سينزل بهم، تراهم انتبهوا من غفلتهم، وسارعوا إلى مغفرة من ربّهم، لأنّ أفكار يونس كانت قد تغلغلت في أعماقهم. على النقيض من أقوام آخرين قست قلوبهم، فلم تردعهم نُذُر العذاب حتّى حلّ بساحتهم وأزالهم عمّا كانوا فيه من نعيم لم يقدّموا فروض تواصله واستمراريّته، ولم يحترموا واجباتهم تجاه المحافظة عليه. فبالشّكر تدوم النّعم وبالظّلم تزول. وما الشّكر إلّا التعبير عن امتنان الإنسان أمام تلك النّعم بالقول الحسَن والعمل الصالح المفيد.

31 - ومرّة أخرى تؤكد هذه القصّة أن الله غفور رحيم ينشر رحمته ورضاه على النّاس حين تصفو قلوبهم وتمتلئ بالمحبّة والتعاون والتكاتف للتخلّص من التخلّف والجهل الذي يرين على عقولهم وضمائرهم وقلوبهم.

32 - كما أنّ القصّة لا تُراد لذاتها وإنّما هي معبر لوعد إلهيّ، ومن أوفى بعهده ووعده من الله، تعالى (وكذلك ننجي المؤمنين) الصادقين، فيتثبّت مبدأ من أهم مبادئ الأديان. ويترافق معه، في الوقت نفسه، مبدأ آخر أنّه لا مجال لنجاة

أولـئك النفـر الـضّالّين الـذين يـريدون الإفـساد فـي الأرض وتحـويل الإيمـان عـن مضمونه ورسيله وهو الأمن، إلى نقيضه الذي هو الغلوّ والقسوة والعنف والفظاظة، وإصرارهم على سوء نهجهم ومسلكهم، وذلك لأنّهم لا يستفيدون من النُّذُر ولا تعـي نفوسُـهم إشـاراتها الموحـية بـإهلاكهم إن اسـتمرّوا علـى غـيّهم وضـلالهم وإفسادهم في الأرض.

33 - على الأنبياء والرُّسُل، وسائر المصلحين مواصلة أداء رسالاتهم، مهما كانت العقبات في طريقهم. فإنّه لولا عمل يونس الهادئ الصبور لَما اهتدى قومه، ولو كان قد أخذهم بالعنف والقسوة لَما آمنوا بربّهم ولَما ساروا في طريق الخير، ولَما كان له أن يعود إليهم.

النّبيّ موسى... وقومه

قصّة النبيّ موسى، عليه السّلام، وقومه بنِي إسرائيل أكبر القصص حجما في التنزيل العزيز، فقد جاءت في أكثر من 530 آية. أمّا ذِكْرُ بنِي إسرائيل لوحدهم فقد جاء في مواضع أكثر من هذا. إضافة إلى الآيات التي جاءت بشأن "أهل الكتاب" على حدّ تعبير القرآن الكريم. إلى آيات أخرى ذكرت أشياء عن التوراة، سواء في سياق الحديث عن الكتب السماويّة كالإنجيل والزبور والفرقان، أم في سياق منفرد. وعلى الرّغم من كثرة المواضع التي تناولت قصّة النبيّ موسى وبنِي إسرائيل، فإنّ أربعة مواضع من القرآن الكريم تناولت تلك القصّة من جوانب متعدّدة، بحيث تكفي لبيان العِبَر والعظات التي أراد التنزيل العزيز أن يوصلها إلى النّاس بعرضه مجريات قصّة بنِي إسرائيل. مع ملاحظة أنّها قد أعيدت في أكثر من موضع بأساليب وصيغ متنوّعة من موضع لآخر، بحسب الهدف الذي ذُكرت من أجله في كلّ موضع منها، وعلى وَفق أسلوب السورة نفسها. وذلك لأنّ القرآن الكريم يجعل قصص الأمم السابقة أمثلة يضربها للنّاس كي يعرفوا ما يجب عليهم القيام به، متّخذين مِمّا حدث لغيرهم عبرة وعظة. ولذلك فهو يجزّئ القصّة الواحدة إلى أجزاء، أو يعيدها بأساليب متغيّرة لتتوافق مع الهدف الذي يسعى إليه في كل موضع.

وبمتابعتنا لآيات التنزيل العزيز، رأينا أنّ تلك القصّة قد ذُكرت، أو أشير إلى بعض أحداثها، إضافة إلى القسم الكبير المذكور **في** سورة (**الأعراف**)، في هذه السور والآيات:

*** سورة البقرة، الآيات 40 - 74. و83. و92 - 93.**

*** سورة النساء، الآيات 153 - 158.**

*** سورة المائدة، الآيات 20 - 26.**

* **سورة يونس، الآيات 75 - 93.**
* **سورة الإسراء، الآيات 101 - 104.**
* **سورة الكهف، الآيات 60 - 82.**
* **سورة مريم، الآيات 51 - 53.**
* **سورة طه، الآيات 9 - 98.**
* **سورة "المؤمنون"، الآيات 45 - 49.**
* **سورة الفرقان، الآيات 35 - 36.**
* **سورة الشعراء، الآيات 9 - 68.**
* **سورة النمل، الآيات 7 - 14.**
* **سورة القصص، الآيات 1 - 46.**
* **سورة الأحزاب، الآيات 69 - 71.**
* **سورة الصافّات، الآيات 114 - 122.**
* **سورة غافر، الآيات 23 - 46.**
* **سورة الزخرف، الآيات 46 - 56.**
* **سورة النازعات، الآيات 15 - 26.**

مع مواضع أخرى أشارت إلى موسى وبنِي إسرائيل، من غير أن تتعرّض لتفصيلات القصّة. أمّا المواضع الأربعة التي نراها تعطينا تصوّرا متكاملا للقصّة، فهي التي جاءت في **سورة البقرة** (40 - 74)، و**سورة الأعراف** (103 - 171)، و**سورة الكهف** (60 - 82) و**سورة القصص** (1 - 46)، على تنوّع في أسلوب صياغة القصّة وتركيب أحداثها وتواصل أجزائها. واستغرقت مجريات هذه القصة أكثر من 530 آية. أمّا ذكر بنِي إسرائيل لوحدهم فقد جاء في ثلاثة وأربعين موضعا. إضافة إلى الآيات التي جاءت بشأن "أهل الكتاب" على حدّ تعبير القرآن الكريم. إلى آيات أخرى ذكرت أشياء عن التوراة، سواء في سياق الحديث عن الكتب السّماويّة كالإنجيل والزّبور والفرقان، أم في سياق منفرد.

ولقد ذكر القرآن الكريم التوراة على أنّه الكتاب الذي أُنزل إلى النّبيّ موسى، عليه السّلام، ووصفه بأنّ فيه هدى ونورا، كما في قوله، تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ

فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [1] تماما كما وصف الإنجيل في الآية 46 من سورة المائدة.

أما عن اليهوديّة وبنِي إسرائيل، فإنّ الآيات القرآنيّة كثيرة، وقد قرّرنا في مفتتح الفصل أنّ قصّة موسى وبنِي إسرائيل هي أكبر القصص في القرآن. وبالمقارنة بين هذه النّصوص، وأصول الأحداث التي ترويها التوراة بأسفارها التسعة والثلاثين، وبعد إخراج ما داخَلَها عبر الزّمن على أيدي الرّواة، فإنّ ما يُستخلَص من سِفر الأمثال، وسِفْر الجامعة، ومزامير داود، على وجه الخصوص، يقترب مِمّا ذكره القرآن الكريم من المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي تشكّل الدّين الذي جاء به النّبيّ موسى، بحيث يُمكننا، ونظرا لكثرة النّصوص ذات العلاقة ببنِي إسرائيل مِمّا ورد في القرآن الكريم بالذات، أنْ نعتبر ما ورد فيه بشأن الدّيانة اليهوديّة هو التجَلّي الأمثل لجميع المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة لها، كما هو الشّأن مع سائر الأديان التي ظهرت قبله. ومن شأن هذا أن يُعطينا تصورا متكاملا عن ظهور الدّيانة اليهوديّة ومبادئها العامّة وقواعدها الكلّيّة، وذلك منعا للإطالة. خاصّة وأنّ بعض واقعات ظهور تلك الدّيانة قد أعادَ القرآنُ ذكرَها في أكثر من موضع بأساليب وصيغ متنوّعة من موضع لآخر، بحسب الهدف الذي ذُكرت من أجله في كلّ موضع منها، وعلى وَفق أسلوب السّورة التي تَرِدُ تلك الواقعاتُ فيها. وذلك لأنّ القرآن الكريم يتّخذ قصص الأمم السّابقة أمثلة يضربها للنّاس كي يعرفوا ما يجب عليهم القيام به، متّخذين مِمّا حدث لغيرهم عبرة وعظة. وفي الوقت نفسه، فإنّ القرآن الكريم يجزّئ القصّة الواحدة إلى أجزاء، أو يعيدها بأساليب متغيّرة لتتوافق مع الهدف الذي يسعى إليه في كل موضع من المواضع التي ذكرها فيها. وليُثّبت قِيَم الإيمان والخُلُق السّامي في نفوس النّاس.

وبناء على طريقة القرآن الكريم في بيان الغايات التي نزل من أجلها وتوظيف أحداث التاريخ وأخبار الأمم السّالفة بما يخدم تلك الغايات ويقرّبها للنّاس، فإنّه لم يذكر قصص الأنبياء والأمم في سياق واحد وفي موضع واحد، باستثناء القصّة التي استوفى القرآن الاستفادة من مجرياتها في موضع واحد، مثل قصّة (يس) وقصّة

(1) سورة المائدة 44.

(أيوب) وقصّة (يوسف) وغيرها مِمّا يشاكلها. لأنّ هدف القصص القرآني استخلاص العِبَر والعظات مِمّا مرّ به الأنبياء وأممهم، وضرب الأمثلة التي يريد من ورائها إيصال أفكاره ورؤاه للنّاس وتعريفهم بالمبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للأديان السّابقة عموما، توضيحا للصّلة بينه وبينها.

ومن تلك القصص التي روى القرآن الكريم أحداثها في مواضع متفرّقة من سوره قصّة النبيّ موسى وبني إسرائيل، فهو يذكرها في موضع يبيّن بعض مجرياتها كما **في سورة القصص** التي تابعت أخبار موسى منذ ولادته، ويذكر أجزاء منها في موضع آخر كالذي ذُكر **في سورة الكهف**، وفي موضع ثالث، يذكر بعض مجرياتها كعناوين للتذكير ببعض نِعَم الله على البشر جميعا، ومنهم بنو إسرائيل، كالذي جاء **في سورة البقرة**. وقبل ذلك يجب أن ننوّه بأنّ المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة لليهوديّة التي جاء بها النّبيّ موسى هي ذاتها التي وردت في الأديان السّابقة عليها، بدءا بالتوحيد، وانتهاء بالقيامة. ولذلك لن نطيل في إعادة تلك المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للأديان السّابقة وإنّما سنذكر ما ورد منها في قصّة موسى وبنِي إسرائيل، مِمّا هو تأكيد لِما مرّ، أو إضافة شيء جديد، مع التنبيه على أنّ الأديان، وإنْ كان جوهرها واحدا، وغاياتها واحدة، عبر مبادئها العامّة وقواعدها الكلّيّة، إلّا انّ بعض جزئيّاتها وتفصيلاتها تتغيّر نتيجة تغيّر الزمان والمكان. وقد سبق أن أشرنا إلى شيء من ذلك عند ذكر هود وصالح وشُعيب ومواضع أُخرى.

وقبل أن نبدأ بذكر المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي جاء بها موسى، يجدر بنا أن نحيط بِموجَز غير مُخلّ بقصّة موسى وبنِي إسرائيل، لأنّها تعطينا توضيحات مهمّة لتلك المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة.

وبجمع الآيات التي وردت في التنزيل العزيز، وإعادة ترتيبها زمنيا، نتبيّن أن موسى، قد ولد في فترة كان فراعنة مصر، يستبيحون نساء بنِي إسرائيل، ويقتلون كلّ طفل يولد لهم، ربّما بناء على نبوءة من عرّاف أو كاهن أراد أن يُبيد بنِي إسرائيل، فتنبأ للفراعنة بأنّ مُلكهم سيزول على يد وليد عبرانيّ من أولئك القوم. فإنْ صحّ هذا الاحتمال فربّما كانت تلك النّبوءة نتيجة صراع قبليّ قديم وثأر تَواصَلَ إلى أن استطاع موسى إنقاذ بنِي إسرائيل من الفراعنة. ونظرا لحرص أمّ موسى على وليدها،

ألقته في اليمّ عساه ينجو من ذلك المصير. وأرسلت أخته لترقب المكان الذي سيرسو فيه. فرأت أنّ آل فرعون قد انتشلوه. ثمّ إنّهم طلبوا له المراضع، فلم يقبل لبن أيّة واحدة منهنّ، فدلّتهم أختُه، من غير أن يعرفوها أو يعرفوه، على أمّه كمرضعة له: ﴿ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [1].

وهكذا نشأ بين ظهراني الفراعنة، كما سبق ليوسف أن عاش في بيت عزيز مصر. وهو حين عاش هناك لم يتأثّر بأخلاقهم وسلوكهم بل كان محسنا طيّب السّيرة والسّريرة. ولَمّا كبُر آتاه الله الحكم والعلم. ويعلّل التنزيل العزيز سبب إعطائه الحكم والعلم بأنّه كان من المحسنين. وتلك مكافأة من مكافآت الإحسان: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [2]. أي أنّ الله لا يصطفي من عباده مَن يصطفي إلّا أولئك الذين يقومون بتطهير ذواتهم وسلوكهم، ويسيطرون على وساوس النّفس الأمّارة بالسّوء. فهذه السّيطرة وذلك التطهير، هما اللّذان يؤهّلان المرء للوصول إلى حالة الاصطفاء، خاصّة إذا ازدوج ذلك مع إرادة قويّة وصبر على المكاره والأذى، كالذي نراه في سيرة الأنبياء جميعا.

ويُلفت التنزيل العزيز انتباهنا إلى أنّ قوم موسى، وعلى الرغم من المعجزات التي شاهدوها، كانوا لا يؤمنون إلا بما تقع عليه أبصارهم، لذلك كان اتّخاذهم العجل، لأنّهم يرونه، فصدّقوا بالسّامريّ الذي أخبرهم أنّه استطاع تجسيد إله موسى. وحتّى بعد أن عفا الله عنهم، طالبوا موسى أن يروا الله جهرة، انطلاقا من سيطرة تلك النّزعة التي تملّكت نفوسهم، وربّما بسبب الآلام التي عانوها تحت تسلّط الفراعنة فصاروا لا يصدّقون بشيء إلّا إذا رأوه رؤية العين: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [3]. ففي قوله (وأنتم تنظرون) إشارة بالغة على تلك النّزعة التي تملّكتهم. فقد "رأوا" الصاعقة كي

---

(1) سورة القصص 13.

(2) سورة القصص 14.

(3) سورة البقرة 55.

يصدّقوا أنّ ما جاء به موسى حقّ. كما سبق لهم أن "رأوا" معجزات موسى في لقائه بفرعون وما فعله مع السّحرة، وكيف تحوّلت عصاه إلى حيّة تسعى تلقف ما يأفكون، وكذلك في إغراق آل فرعون الذين طاردوهم: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ﴾ [1].

وتخبرنا المواضع المتعدّدة في التنزيل العزيز من قصّة موسى أنّه هرب من فرعون بعد أن ائتمر الملأ به ليقتلوه، فرحل إلى مَدين، وهناك تزوج ثمّ عاد إلى مصر، وفي الطريق تلقّى من ربّه الألواح، فبدأت نبوّته. وقد خصّصت **سورة القصص** أكثر من ثمانين آية لخّصت قصّته. فبعد أن نقرأ فيها طفولة موسى، وبلوغه مبلغ الرجال، نراه يدخل مدينةً "ما" على حِينِ غفلَة من أهلها فيجد فيها رجلَين يقتتلان أحدهما من شيعته والآخر من عدوّه فاستغاثه الذي مِن شيعته على الذي مِن عدوّه فقضى عليه موسى، ثمّ أدرك أنّ هذا من عمل الشّيطان. فاعترف لربّه أنّه ظلم نفسه، وطلب منه المغفرة فغفر له: (إنّه هو الغفورُ الرّحيم). ونتيجة ذلك عاهد موسى ربَّه أنّه لن يكون ظهيراً للمجرمين. فأصبحَ في المدينةِ خائفاً يترقّبُ فإذا الذي استنْصَره بالأمس يطلب مساعدته فنعى عليه موسى ما يفعل. ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝ ﴾ [القصص: 19]. ومن المعلوم أنّ المرء الذي يريد أن يكون جبّارا في الأرض، ولا يهدف إلى أن يكون من المصلحين، لا تتلاءم صفاته مع اصطفاء الله له. لذلك نعتقد أنّ تلك الأوصاف هي ردّة فعل من الذي أراد موسى أن يبطش به. ولا نستغرب أن يكون كُل من الاثنين، أي الذي قتله موسى أوّلا والذي أراد قتله ثانيا، كان يستحقّ القتل لأنّه مُعْتَدٍ على الآخرين ولا يتورّع عن قتلهم أو قتل أطفالهم أو انتهاك أعراضهم، وهي ظواهر السّلوك الذي كان يمارسه الفراعنة وأتباعهم بالضدّ من بنِي إسرائيل. أمّا اعتبار موسى لفعلته الأولى، بأنّها من عمل الشّيطان، فما ذلك إلّا لأنّه سارع إلى

(1) سورة البقرة 50.

إنزال العقاب بذلك الشّخص من غير أن يتأنّى أو تأخذه الرّحمة والشّفقة، أو أن يقوم بنصحه. وذلك لاحتمال أن يكون الاثنان مستحقَّين للقصاص، إضافة إلى أنّ موسى آنذاك لم تكن قد جاءته النّبوّة.

وبينما كان موسى يتحاور مع هذا الآخر، جاء رجلٌ من أقصى المدينةِ يسعَى قال ياموسى إنّ الملأ يأْتمرون بك ليقتلوكَ فاخْرُجْ إنّي لك من النّاصحين. فخرَج منها خائفاً يترقَّبُ، وهو يدعو ربّه قائلا:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [القصص: 14 - 21].

فهو قد هرب منهم لَمّا خافهم. وكان أن قيّض الله له دخول مدينة مَديَن، وقد أضرّ به السّفر والجوع، مِمّا كان من شأنه أن يُضاعف آلامه بعد أن كان في بحبوحة من العَيش في بيوت الفراعنة. ولكنّه أوكل أمره إلى الله، تعالى، واضعا فيه أمله ورجاءه:

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القصص: 22].

وفي مَدين بدأت مرحلة جديدة من حياة موسى، هي حياة الزواج والعمل والكدّ والسّعي لتوفير مطالب العيش والقيام بالمسؤوليّة تجاه النّفس وتجاه الآخرين.

فهو ما إنْ دخل المدينة حتّى توجّه إلى مائها ليستقي منه بعد تلك الرحلة الشّاقّة في الصحراء، فكان أن رأى على الماء مجموعة من النّاس يسقونَ، وإلى جوارهم امرأتان تذودان ماشيتهما من غير أن تتقدّما للماء نظرا لزحام النّاس عليه:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القصص: 23 - 28].

وهكذا بدأت نبوّته. ولكي يكون من الموقنين، أقام الله، تعالى، له البراهين والمعجزات الدالّة على أنّه من عباد الله الذين اصطفاهم وأرسلهم للنّاس برسالاته. وعلى الرغم من أنّ مجرّد مخاطبة الله له معجزة في حدّ ذاتها، فإنّها معجزة خاصّة بموسى قد يصدّقها الآخرون وقد لا يصدّقونها، لذا وهبه الله معاجز أخرى لا يستطيع نكرانها إلّا الذي استفحل الشّرّ والضّلال في نفسه، وتمكّنا من السّيطرة الشّاملة الكلّيّة على جميع مشاعره وأحاسيسه:

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ

﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [القصص: 29 - 41].

وفي موضع آخر من التنزيل العزيز تفصيلٌ لِما حدث بين موسى وسحرة فرعون، وذلك ما جاء في **سورة الأعراف** وسورة يونس، على وجه الخصوص، مِمّا أدّى إلى إيمان السّحرة بإله موسى لأنّهم أدركوا أنّ ما جاء به موسى لم يكن سحرا بل هو معجزة إلهيّة لا يقدر بشرٌ على الإتيان بها إلّا بمعونة الله وقدرته:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: 103 - 127].

وللقصّة جانب آخر هو جانب العبد الصالح الذي صاحبه موسى على ألّا يسأله عمّا قد يراه من تصرّف غريب يصدر منه، وهو ما تذكره **سورة الكهف**. فكان أنْ قام ذلك العبد الصالح بثلاثة أعمال لم يرَ فيها موسى وجها يسوّغها. حتى فسّرها له ذلك (العبد الصّالح):

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ

لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف: 60 - 82].

وثمّة ملحوظة أخرى لا بدّ لنا من التطرّق إليها، لأهمّيّتها في تاريخ البشريّة، من جهة، ولعلاقتها الوثيقة بالمبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للأديان بما فيها

اليهوديّة. وهي المتمثّلة في أنّ أقواما من النّاس لا يثقون بقدراتهم، ولا فيما بين أيديهم من عقائد ومعتقدات أثبتت الأحداث والواقعات صحّتها، فتراهم يسارعون إلى تقليد الأمم الأخرى لا فيما ينفع ويفيد بل فيما يضرّ ويؤذي، وهو ما صدر من قوم موسى بمجرّد عبورهم البحر وغرق آل فرعون:

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأعراف: 128 - 137].

وربّما كانت رغبتهم بتقليد هؤلاء المشركين من عبدة الأصنام والأوثان قد ساعدت السّامريّ، فيما بعد، على إقناعهم بعبادة العِجل الذي صنعه لهم وزعم أنّه إلههم.

فتجمع القصّة، بأجزائها المتعدّدة، وأحداثها المتنوّعة، بين الذنب والاستغفار (قتل موسى لعدوّ له ثمّ اعترافه بذنبه واستغفاره منه)، وبين الذنب والإصرار عليه

(وهو ما فعله فرعون)، وبين الخداع والتوبة (حالة السّحرة)، وبين الدّعاء واستجابته (وهو ما كان من موسى في مراحل حياته المختلفة)، وبين الغفلة والتنبيه (حين طالب بنو إسرائيل بآلهة كما للآخرين آلهة وتنبيه موسى لهم على خطأ تلك المطالبة).

أمّا المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي نستخلصها لدين موسى، فهي - إضافة إلى المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي تضمّنتها الأديان السّابقة وبخاصّة ما جاء به النّبيّ إبراهيم - تتمثّل فيما نذكره هنا:

1 - الإيمان بإله واحد، وذلك ما جاء في التوراة، كالذي ورد في الأسفار الخمسة الأولى منها والتي لا تخرج عن فحوى قوله، تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [1].

2 - طاعة الوالدّين والإحسان إليهما وكذلك الإحسان لذي القُربَى واليتامَى والمساكين [2].

3 - ومن تلك المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة أن يتعاملوا مع النّاس تعاونا حسنا. وأن يقولوا الكلام الطيّب الحسن [3].

4 - لا يُطالَب قوم بالإيمان بالله ما لم يتمّ تعريفهم بأنّ حياتهم هي نعمة من الله وأنّ كلّ ما فيها نعمة منه أيضا، وأنّ هذه النِّعَم تستحق أن تقابَل بالعرفان والشّكر. ولذا نلاحظ أنّ قصّة بنِي إسرائيل في التنزيل العزيز التي تبدأ من الآية الأربعين من سورة البقرة، قد سُبقت بآيات عديدة تذكر بعضا من نِعَم الله على النّاس، وصولا إلى مخاطبة بنِي إسرائيل الذين كانوا في زمن ظهور الإسلام، حيث يأمرهم الله، ابتداء من الآية الأربعين، بأوامر متعدّدة بحيث لا نستغرب أن تكون الآية 40 مرتبطة بالآية 28 التي تخاطب النّاس، لا بنِي إسرائيل فحسب، فتسائلهم: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ

(1) سورة البقرة 83.

(2) سورة البقرة 83.

(3) سورة البقرة 83.

تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[1]. ثمّ يتوالى التذكير بتلك النِّعَم التي يكون ذِكرُ كلّ نعمة منها مسبوقا بلفظة (وإذ) التي تربط الآيات بعضها ببعض لتقديم صورة متكاملة عمّا يُراد ذكره من نِعَم الله على البشر. وهكذا تأتي قصّة خلق آدم وما صاحبها من إخراجه من الجنّة وتلقيه كلمات من ربّه واجتباء ربّه له مرّة أخرى، كمثالٍ من أمثلةِ تَفَضُّلِ اللهِ على النّاس جميعا باختلاف أجناسهم وأقوامهم وأزمانهم. وهو ما سبق التطرّق إليه في الحديث عن آدم والـ(هدى) الذي جاءه من ربّه، وكذا في كشفنا عن المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للدّين الذي جاء به النّبيّ إبراهيم. وهكذا يتواصل التذكير حتّى يصل السّياق إلى بنِي إسرائيل حيث يبدأ بتذكيرهم بتلك النّعم من الآية 40 المشار إليها: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾[2].

5 - ومن تلك المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة وجوب تذكّر نِعَمه عليهم، مِمّا يفصّل القرآنُ الكلام عليه، وكذا ما ورد في التوراة والإنجيل.

6 - وجوب الإيفاء بعهد الله. وسنتحدّث عن (العهد) في الفصل الثّامن عشر.

7 - وجوب الالتزام بالحقّ وعدم تلبيسه بالباطل.

8 - وجوب إعلان الحقّ وعدم كتمانه.

9 - وجوب تأدية العبادات. ويحدّدها القرآن، في حالتهم هذه، بالصّلاة والزّكاة [3] وأن يركعوا مع الرّاكعين على ما جاء في الآية الثالثة والأربعين من سورة **البقرة** [4]. ومن الواضح أنّ المراد هنا الصّلاة التي قال بها النبي موسى، عليه السّلام. وكذا الزكاة. بحيث يتجلى التوافق بين الأديان السماوية كافّة. أمّا ذكر الركوع وهو جزء من الصّلاة، فقد قيل إنّه فُصل عن الصّلاة رمزا له وتأكيدا عل هيئتها، لأنّ (الصّلاة) المذكورة أوّلا تعنِي الدّعاء [5].

---

(1) سورة البقرة 28.

(2) سورة البقرة 40.

(3) سورة البقرة 43 و83.

(4) سورة البقرة 43.

(5) يُنظر تفسير الكشاف للزّمخشري 1 /136.

10 - لا يجوز للمرء أن يأمر النّاس بالبرّ ولا يأمر نفسَه بذلك وقد كبر مقتا عند الله أن يناقض قولُ المرء سلوكَه.

11 - على المؤمن، يهوديّا كان أم من أتباع الدّيانات الأخرى، أن يستعين بالصبر والصّلاة. أمّا الصبر فشعورٌ إنسانيّ عامّ متماثل لدى جميع البشر. وأمّا الصّلاة فبحسب تعاليم كلّ دين، بمعنى أنْ يُصَلّي المرء بالطريقة التي جاء بها نبيّه. ولا نستغرب هذا لأنّ الإسلام لم يفرض على أهل الكتاب أن يتخلّوا عن أديانهم، وإنّما طالبهم أن يطبّقوها بحسب ما أُنْزلت على أنبيائهم.

12 - وفي هذا السّياق، يبرز واحد من تلك المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للأديان، وهو وصف (الخاشعين) بأنّهم المقتنعون برجوعهم إلى ربّهم.

13 - ومن المبادئ العامّة للدّين اليهوديّ، على ما جاء في التوراة وما أكّده القرآن الكريم، أنّ الله، تعالى، فضّلهم على العالَمين. ومن الواضح أنّ هذا التفضيل يتمثّل في إرسال موسى إليهم، ومعه التوراة. فإرسال نبيّ ما إلى أيّ قوم من الأقوام هو تفضيل لهم على غيرهم، فيجب عليهم أن يعرفوا ذلك وأن يجعلوا أنفسهم مُؤهّلةً له. ذلك أنّ من المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة لجميع الأديان أنّ النّاس سواسية، لا فضل لأحد على الآخر إلّا بالتقوى، التي تعنِي إطاعة أوامر النّبيّ الذي يُرسَل إليهم إطاعة تامّة.

14 - من المبادئ العامّة للدّين اليهودي أنّ على كلّ مؤمن به أن يتّقي عذاب الآخرة، وهو المبدأ ذاته في جميع الأديان السّابقة واللاحقة.

15 - ضرورة التوبة واحدة من تلك المبادئ.

16 - ومنها أنّ الله غفور رحيم.

17 - قتل البريء حرام، ومن قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنّه قتل النّاس جميعا، ومَن أحياها فكأنّما أحيا النّاس جميعا [1]. وذلك في أعقاب ذكر التنزيل العزيز لقصّة ابنَي آدم هابيل وقابيل.

وهكذا جاءت الآيات الأخرى ذات العلاقة بالنّبيّ موسى وبنِي إسرائيل،

(1) سورة المائدة 43.

وكأنّها عناوين تذكّر بني إسرائيل، بنِعَم الله عليهم. وهي نِعَمٌ تشكّل في الوقت نفسه شيئا من المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة لليهوديّة، إضافة إلى ما مرّ:

18 - إنّ الله هو الذي أنقذهم من الإذلال الذي كانوا يتعرّضون له من قِبَل الفراعنة، حيث كانوا يستعبدونهم ويُذلّونهم ويذبّحون أبناءهم ويغتصبون نساءهم، في مجتمع لا يعترف لهم بأيّة حقوق، لأنّه قائم على الظلم والطغيان والعدوان، والاغترار بالقوّة والثّروة التي تتجسّد أمام النّاس بالأنهار والخيرات الزراعيّة والإعمار والتشييد وتطوّر العلوم.

19 - وإنّ ذلك الإنقاذ تمّ بنعمة ومعجزة كانوا هم شهودا عليها. وذلك انفراق البحر لهم وإغراق آل فرعون وهم يرونهم رؤية العَين، كآية ودليل على صدق نبوّة موسى ورغبته في إنقاذهم.

20 - تكريم الله لهم بمواعدة موسى ربّه أربعين ليلة.

21 - خطيئتهم باتّخاذهم العجل إلهاً، وتوبة الله عليهم.

22 - إتيان موسى الكتابَ والفُرقان من أجل هدايتهم.

23 - إرادتهم في أن يروا الله جهرة وإلّا فإنّهم سيكونون في شكّ من صدق ما جاءهم به موسى. فأخذتهم الصاعقة، ثمّ إنّ الله عفا عنهم أيضا. ذلك أنّ هذه الرغبة لم تكن بحاجة إلّا إلى ردع يدعوهم إلى التسليم والإذعان، فلم يَنَلْهم أذى كبير. فكانت الصاعقة كي يتّعظوا ويراجعوا أنفسهم.

24 - تظليل الغمام عليهم وإنزال المَنّ والسّلوى لهم، ليأكلوا من طيّبات ما رزقهم الله.

25 - وبعد توفّر الجانبين: المادّي (المنّ والسّلوى وطيّبات الرّزق) والمعنوي (الكتاب والفرقان وما فيهما من هدى، أي من تعليم وإرشاد لطلب العلم النّافع وأداء العمل الصالح) صار لزاما عليهم أن يقيموا حضارة جديدة، فأمرهم ربّهم أن يدخلوا قرية ذُكرت لهم ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا

وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [1].

والحقّ أنّ هذه الآية الكريمة تتضمّن عديدا من المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة لليهوديّة نضيفها إلى ما سبق، وهي جميعا تصبّ في مشروع إقامة حضارة جديدة مرتكزة على القيم الإنسانيّة الرفيعة النّبيلة، فهي تقرّر، زيادة على ما مرّ:

26 - ضرورة أن يتّخذوا من تلك القرية موطنا لهم، في مقابل هجرتهم من مصر مع موسى.

27 - ضرورة أن يحصّلوا رزقهم مِمّا أفاءه الله عليهم، وذلك بأن يأكلوا منها حيث شاؤوا رغدا. وبطبيعة الحال فإنّ هذا يستلزم منهم مواصلة العمل من أجل توفير ما يأكلون. وليس الأكل فقط هو المقصود بل ما يصنعون أيضا. فالأجواء فيها مهيأة للعمل والإنتاج وتحقيق رغد العيش.

28 - شكر الله في مقابل تلك النِّعَم، وذلك بإطاعته فيما أمرهم، وبخاصّة حين طلب منهم أن يدخلوا الباب سجّدا، والسّجود رمز للإيمان، رمز للقِيَم السّامية التي حرّرتهم من استعباد آل فرعون لهم، أي أن يظلّوا مواظبين على إيمانهم بتلك القيم وتمسّكهم بها، والبناء على أسسها وقواعدها ومبادئها.

29 - أن يطلبوا من ربّهم الغفران والعون، وذلك مفاد قوله: ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ ﴾ [2]. وقد رأى المفسّرون أن (حطّة) تعنِي أن يحطّ الله عنهم أوزارهم وآثامهم أي أن يطلبوا الغفران منه. ثمّ يأتي بعد ذلك ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ بكل ما في كلمة (الإحسان) من معاني التعاون والتكافل والتضامن والخير.

30 - إنّ الله يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وتتكرّر تلك الاستجابةُ مرارا في قصص الأنبياء، وتتجسّد هنا في استجابة الله لدعوة موسى أن يسقي قومه بعد أن أضرّ بهم العطش أثناء هجرتهم. وقد تمّ إسقاؤهم الماء بتفجير اثنتي عشرة عينا، كي يعلم كلّ فريق منهم مشربَهم.

---

(1) سورة البقرة 58.

(2) سورة البقرة 58.

31 - على المرء أن يطلب ما هو أسمى وأرقى وأكثر خيرا ونفعا، لا أن يستبدل ما هو خير بما هو أدنَى منه وأقلّ نفعا. وحتّى إن تأخّر عنه ما يرغب فيه عليه بالصبر لا الجزع ولا إعلان التمرّد والعصيان. ذلك أنّ بنِي إسرائيل لَمّا طلبوا من موسى تنويع طعامهم، لأنّهم لن يصبروا على طعام واحد، آل أمرهم إلى الخسران، لأنّ طلبهم ذاك، وبعد كلّ الآيات والنُّذُر التي رأوها بأُمّ أعينهم، كان تعبيرا عن انعدام الصبر من نفوسهم ورغبتهم في المتاع الدّنيويّ العاجل على الخير الذي يَعِدُهم الله به: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [1]. فإنّ هذا البَطر على نعمة الله وعدم الصبر على ما قسمه لهم، واستبدالهم الذي هو أدنَى بالذي هو خير سيؤدي بِمَنْ يُصِرّ منهم على ذلك إلى سلوك طريق الشّرّ، وهومصداق تكملة الآية والأخرى التي بعدها: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾. ولئلّا يظنّ النّاس أنّ هذا الحكم يشملهم جميعا جاءت الآية اللاحقة مباشرة لتزيل ذلك الالتباس والوهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [2]. فلا إنسانَ يُعَذّب لدينه ومُعتقده ما لم يقم بما يوجب إيقاع العقوبة به، وما لم يكن ذلك الدّين والمعتقد قد داخله الشّرك، وما ينتج عنه من الظلم والعدوان.

32 - وهنا يتجلّى مبدأ آخر سواء في اليهوديّة أم غيرها من الأديان، وهو أنّ أيّ امرئ من المذكورين في الآية السّابقة مرضيٌّ عند الله، بشرط أن يكون مؤمنا

(1) سورة البقرة 61.

(2) سورة البقرة 62.

بالله، وأن يعمل صالحا.

33 - ومن تلك النِّعَم أيضا، أَخْذُ الميثاق عليهم، ورَفْعُ "الطور" فوقهم، وأن يأخذوا ما آتاهم الله بقوّة ليبنوا حياتهم تحت ظلال الخير، ولتزدهر حضارتهم بِما اغتنت به من قِيَم.

34 - ثمّ إنّ فريقا منهم تولّى عن تنفيذ الميثاق الذي واثقهم الله به، أنّ لهم الحسنَى ووراثة الأرض إنْ أدّوا ما عليهم من التزامات. وعلى الرغم من تولّيهم، فإنّ فضل الله ورحمته قد شملتهم ولولا ذلك لكانوا من الخاسرين. وسنتحدّث عن موضوع (الميثاق) لاحقا.

35 - إرشادهم إلى السّبُل الكفيلة بإنقاذهم من المآزق والمشكلات، كما حدث حين علّمهم ربّهم كيفيّة التخلّص من جريمة قتل ارتُكبت من قِبَل بعضهم، وذلك حين أمرهم أن يذبحوا البقرة الصّفراء الفاقع لونها التي تسرّ النّاظرين، وأن يضربوا القتيلَ ببعضها.

ولا بدّ من التذكير بأنّ اليهوديّة التي جاء بها النّبيّ موسى، شأنها شأن أيِّ دينٍ سماويٍّ، تتضمّن جميع المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي جاءت بها الأديان السّابقة. وإنّما ذكرنا شيئا من تلك المبادئ في السّطور السّابقة لأنّ التنزيل العزيز قد صرّح بها في سياق حديثه عن النّبيّ موسى وبنِي إسرائيل. وهم الذين أرسل الله إليهم أنبياء كثيرين، مِنْ قَبْلِ موسى ومِنْ بَعْدِه.

نبيّان... وتجلّي قُوى الغَيب [1]

هما داود وسليمان، عليهما السّلام، وقد وردت مجريات حياتهما والقِيَم التي جاءا بها، في هذه المواضع:

* سورة الأنعام 83 - 86.
* سورة البقرة 246 - 251.
* سورة الإسراء 55.
* سورة الأنبياء 78 - 82.
* سورة النّمل 15 - 44.
* سورة سبأ 10 - 14.
* سورة ص 17 - 40.

****

كثيرا ما يقرن القرآن الكريم بين داود وسليمان، عليهما السّلام، ويصفهما بأنّهما نالا علما وحكما صائبا: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ ﴾ [2]. فالمهمّ هنا العلم، وضرورة سعي المرء لاكتسابه والإفادة منه.

وفي مواضع معيّنة ينفرد داود بالقصّة القرآنية. وعلى الرغم من ذلك فإنّ التنزيل العزيز لا يفصّل مجريات حياة كلّ منهما، وإنّما يعرضهما على النّاس وهما رجلان مكتملا العقل حَسَنا التفكير. فلا نجد ضرورة للخوض في تفصيلات لم

(1) سبق التطرق إلى بعض أخبارهما في مقدمة هذا الكتاب.
(2) سورة النمل 15 - 16.

يذكرها القرآن، إذ لا نفع فيها، ولا في الخلاف والجدال بشأن ما مرّ بهما وعليهما، وما صدر منهما، قبل المرحلة التي تحدّث عنها القرآن الذي قدم صورة متكاملة للقِيَم التي جاءا بها للناس. **ففي سورة سبأ** يتحدّث القرآن عن الفضل الذي حظي به داود، والقدرة التي حظي بها سليمان: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾[1]. فليس من المهمّ، هنا، أن نتجادل في ماهيّة الجنّ، ونختلف في سرعة الريح التي سُخّرت لسليمان، وكيف كانت الجبال تسبّح أو تؤوّب معه والطير. ولا في سائر الجزئيّات التي يذكرها النّص السالف، لأنْ لا أحد يستطيع أن يزعم أنّه يملك قرارا نهائيا بشأنها.

ولا نشك في أنّ المراد من هذه الآيات، ليس الاختلاف بين النّاس في جزئيّاتها، بل المراد أن نعلم أنّ الإنسان مهما يؤتى من نِعَم وقوّة، فمصيره إلى الزوال والاندثار. وذاك هو سليمان الذي طلب من ربّه مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده، ونال ما تمنّى، آل مصيره إلى الهلاك، حتّى لم يُعرف موته، لولا أنّ دابّة الأرض المَهينة هي التي أشعرتهم بموته حين قرضت عصاه فخرّ على وجهه. وليس في ذلك انتقاص لمنزلة سليمان، ولكنّها الحقيقة التي تشمل كل النّاس. وتريد الآيات من النّاس أن يتساءلوا، ولو بينهم وبين أنفسهم: أنّ سليمان، وهو مَن هو قوّةً وعظمةً، قد انتهى تلك النّهاية، فكيف لأيّ إنسان آخر لم يُؤتَ بعض ما

(1) سورة سبأ 10 - 14.

أوتي سليمان، يأمل بالخلود؟! ومن شأن هذه الفكرة أن تقود النّاس إلى طريق الرشاد، طريق الحق والعدل. فعلام الحسد والبغضاء؟ وعلامَ العدوان على الآخرين من أقرباء وبُعَداء؟ وعلام الطمع والجشع؟ وعلامَ البخل والتقتير؟ وعلام التفاخر بما سوف يؤول إلى الزوال؟ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (1). فالتفاخر، إن كان لا بدّ من التفاخر، فبالعلم النّافع والعمل الصالح اللذين يجعلان القلب سليما من كلّ الأحاسيس المريضة الضارّة.

كما علينا أن نستفيد من النّص السابق أن آياته تذكر تحديدا لمعنى الشّكر، تصحح به ما هو الخطأ المتداول بين النّاس من أنّ الشكر هو ما يتقلقل به اللسان، حيث جاء فيها: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ ﴾ فالشكر عمل أولا، ثمّ قول ثانيا. أمّا الشكر باللسان فحسب، فليس فيه دليل على صحّة الشكر واقتناع المرء به ما لم يقترن بالعمل الصالح، وذلك هو فحوى قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ ﴾ (2).

وتقرن سورة الأنبياء بين داود وسليمان، حينما استُفتيا بشأن أغنام أتلفت زروع قوم آخرين، فحكم داود بالأغنام لأهل الزرع تعويضا عمّا تلف من زروعهم، وحكم سليمان بأن تؤدّى الأغنام لأهل الزرع يستفيدون منها، ويقوم أصحابها بإصلاح ما فسد من الزروع، ثمّ يستعيدون أغنامهم. ولكلّ منهما جعل الله فضلا: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ

(1) سورة الشعراء 88 - 89.

(2) سورة فاطر 4.

وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1]. فالمهمّ، هنا، لا التشاغل بأيّهما أفضل، والتماس التبريرات لكلّ حكم صدر عن داود أو عن سليمان، بل المهمّ أنْ ندرك مغزى القصّة ونأخذ بدلالته. وندرك أنّ من فضل الله على داود أن علّمه "صنعة لَبوس لكم لتحصنكم من بأسكم" فـ"الصنعة" فضلٌ من الله ومُنّة يَمتنّ بها على النّاس. فلمَ لا نتعلّم أنّ (الصناعة) كلّها فضلٌ من الله؟ وأنّ علينا أن نتعلّمها ونستفيد منها، إلى جوار الزراعة والتجارة وسائر صور النشاط الحيوي الذي يصوغ الحضارة والتقدّم والمدنية؟ فأمّا التشاغل في كيفية غوص الشياطين وعملهم فمِمّا لا نفع فيه ما دمنا لا نملك حقيقة ثابتة ونهائيّة نفسّر الأمر بموجبها.

ويتفرّد داود بحادثة أخرى، حين أتاه خصمان يحتكمان اليه بشأن محاولة أحدهما مصادرة ما يمتلكه الآخر، نقرأ في سورة ص: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾[2]. ومن عجب أننا وجدنا من يأخذ هذه الآيات إلى غير ما يدلّ عليها لفظها، ففسّرت بمجموعة من الأساطير والخرافات التي لا دليل عليها.

(1) سورة الأنبياء 78 - 82.

(2) سورة ص 17 - 25.

فإنّ قوله تعالى: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾ لا يعنِي بالضرورة زواجه من امرأة كان قد خطبها شخص آخر، أو أنّه رآها عارية فعشقها وسعى في قتل زوجها. على ما تحدّث به بعض الأقدمين أو جُلّهم. ذلك أنّ النّصّ القرآني نفسه، لا يشير إلى ما يُسند تلك الروايات. إضافة إلى أنّ هذا السلوك تُدينه الأديان جميعا وتعاقب عليه. وحتّى لو كان قد تاب وظل ساجدا يبكي أربعين يوما من غير طعام ولا شراب حتّى نبت الزرع من دموعه، على ما نجده في بعض روايات الأقدمين، فإنّ هذا غير كافٍ للتوبة عمّا فعل. فالقتل المحرّم لا تكفي به التوبة بل إرضاء وليّ دم القتيل بالفدية أو إنزال العقاب بالقاتل أو ما إلى ذلك من تشريعات. وكيف تُقبل تلك التوبة والرواية تقول إنّه تزوّج تلك المرأة بعد مقتل زوجها؟!

ونحن نجد في سيرة داود شيئا يُضادّ ذاك السلوك، بحيث إنّه، ونتيجة التحرّج الذي كان يراعيه في أحكامه وعلاقاته بالنّاس خشية أن يصدر عنه ما يسيء إلى الآخرين، تأهّل ليكون خليفة في الأرض ولينفّذ أمر الله بأن يحكم بالحقّ ولا يتّبع الهوى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

وهذه هي غاية القصّة التي يجب الالتفات إليها، أي: إنّ علينا أن نقتدي بالسلوك الحسن ونأخذ بالأخلاق الحميدة، ليكون كلّ واحد منّا مؤهّلا لتحقيق رسالة الخلق باعتبار أنّ الإنسان خليفة الله في الأرض.

وزاد الله من فضله على داود فوهب له ابنه سليمان، الذي حاز من القوّة والقدرة والمنعة ما لم يحزه أحد. وفي طوايا ذلك حادثة حملت القدماء إلى أمر لا نجد له ما يثبته، وذلك ما ورد في قوله، تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ

(1) سورة ص 26.

رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [1].

فلقد زعم بعضهم أنّ هذه الآيات تدلّ على أنّ الشمس قد رُدّت لسليمان، إذ إنّه انشغل بتفقّد الخيل عن الصّلاة (حتى توارت بالحجاب) متصورين أنّ الضمير في (توارت) يعود على الشمس. ولكن الشمس لم تُذكر في الآية، لا تصريحا ولا تلميحا. وعلى فرض أنّ الصّلاة كانت حينذاك على هيئة الصّلاة في الإسلام وتوقيتاتها، فإنّ الجياد عُرضت عليه بالعشيّ أي بعد انتهاء أوقات الصلوات النّهاريّة التي تنتهي عادة بصلاة العصر، والعصر قبل العشيّ، بلا شك. فالأولى أن يعود الضمير على (الصافنات الجياد) حيث طلب ردّها عليه وطفق يمسح سوقها وأعناقها، تعبيرا عن حبّه لها. ثمّ مَن هم هؤلاء الذين يأمرهم سُليمان أن يردّوا له الشّمس في قوله: (ردّوها عليّ)؟ ثمّ ألا نلاحظ أنّه أخذ يمسح سوقَها وأعناقها مباشرة بعد (ردّوها عليّ)؟

وأما قوله: (إنّي أحبَبْتُ حُبَّ الخيرِ عن ذِكْرِ ربّي) فيعنِي أنّه أحبّ الخير صادرا في ذلك الحبّ عن ذِكْر ربّه، لا بمعنى أنّه تشاغل عن ذكر ربه. فجدير بنا أن نفهم الآيات كما يدلّ عليها لفظها وسياقها وأن نأخذ منها أهدافها وغاياتها. وأن نكتفي بذلك.

---

(1) سورة ص 30 - 33.

المسيح كلمة من الله

لقد ذكر التنزيل العزيز النّصرانيّة في آيات عديدة، سواء ما ورد منها في قصّة النّبيّ عيسى ابن مريم وأمّه، أم في سواها من المواضع، وهو ما سنتابعه هنا وصولا لاستخلاص المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للنّصرانيّة التي هي منبثقة، أيضا من الأديان التي ظهرت قبلها، وبخاصّة ما جاء به إبراهيم الخليل، الذي اعتبرنا القرآن الكريم هو التجلّي الأمثل لتعاليمه. ونلاحظ أنّ ما عرضه القرآن الكريم من مبادئ النصرانية وقواعدها يعدّ تجديدا صادقا، في جوهره وأهدافه، لأكثر ما جاء في العهد الجديد.

لقد ورد ذكر المسيح وأمّه مريم بكلّ احتفاء وإجلال ومحبّة في مواضع عديدة من القرآن الكريم، منها:

*** سورة البقرة، الآية 87. والآية 253.**

*** سورة آل عمران، الآيات 33 - 59.**

*** سورة النساء، الآيات 156 - 159 و171 - 172.**

*** سورة المائدة، الآيتان 17 و46. والآيات 72 - 75. وأكثر ما جاء في هذه السّورة مِمّا له علاقة بالنصرانيّة، ما ذُكر في الآيات 110 - 118.**

*** سورة مريم، الآيات 16 - 37.**

*** سورة الزّخرف، الآيات 63 - 65.**

*** سورة الصّف، الآية 6. والآية 14.**

وغير هذا من مواضع ذُكر فيها المسيح وأمّه والإنجيل والنصرانيّة وأهل الكتاب. غير أنّ أكثر تلك المواضع علاقة بقصّة مريم والمسيح، هو ما جاء في سورة آل عمران، وسورة مريم، فأمّا الموضع ذو العلاقة بالقصّة من سورة المائدة، فهو في الآيات 110 - 118. وسنكتفي، هنا، بذكر موضعين، هما:

*** من سورة آل عمران، الآيات 33 - 59:**

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

لقد دعت امرأة عِمران ربّها أنّها نذرت له ما في بطنها مُحرّرا وسألته أن يتقبّل نَذرها، فهو السميع لقولها، المجيب لدعائها، العليم بصدق قولها. فلمّا ولدت قالت لربّها إنّها ولدتها أُنثى، والله أعلم بِما ولدت، وليس الذّكر كالأنثى، وأنّها سمّتها مريم وأعاذتها وذرّيتها به من الشّيطان الرّجيم. ونرى في هذه الآية تداخلا في الكلام، بين ما تقوله امرأة عمران، أمّ مريم، وما يذكره الله تبارك وتعالى. ولنبدأ من الآية التي قبلها كلام امرأة عمران: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي أنّها نذرت جنينها لله، وتقبّل الله ذلك النّذر، وحين وضعت أنثى ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ ثمّ يأتي فاصل بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ ثمّ يعود لها الكلام: ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾. ويبدو لنا أنّ قولها ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ ﴾ أنّها كانت تتمنّى أن تنذر لله ولدا تلده، وكأنّها تريد أن تعيد سيرة إسماعيل الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه ثمّ فداه بذِبح عظيم، فلمّا جاءت بها أنثى كأنّها أرادت الاعتذار عمّا خالجها من رغبة في أن تلد ولدا يكون له شأن كشأن إسماعيل. ولكنّ الله تعالى أعلم بما وضعت حتّى من قبل أن تضع حملها ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا

تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ ﴾ [1].

وهنا إشارة إلى نظرة القرآن للأنثى، فامرأة عمران تعتذر عن ولادة أنثى بدلا من الذكر، لِما غلب على الأذهان من تفضيل الذكر على الأنثى، فكأنّها ترى لو أنّها وضعت ذكرا لكانت الهِبَة والهديّة مِمّا يُعتزّ به ويُفْتَخر، أمّا والهِبَة والهديّة أنثى فإنّ قيمتها ستقلّ لدى المُهدَى اليه، وربّما لن يتقبّلها. غير أنّ الله، تعالى، شاء أن يزيل تلك النظرة وذلك الاعتقاد، فتقبّل الهِبَة، إذ لا فضل للذكر على الأنثى، ولا للأنثى على الذّكر، إلّا بالتّقوى، أي العمل الصالح المبنِي على العلم النّافع.

وقد يُقال: إنّ في قوله تعالى ﴿ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ ﴾ على الرّغم مِمّا مرّ، إشارة لتميّز الذكَر على الأنثى، ولولا ذلك التميّز لَما اعتذرت امرأةُ عمران عن ولادتها لأنثَى. غير أنّ الأمر ليس على هذه الشاكلة. فالقول من أمّ مريم لِما غلب على أذهان كثير من أهل زمانها، والأزمنة التي جاءت بعد زمانها، تفضيل الذكَر على الأنثى، لدى كثير النّاس لا لدى الله، تعالى.

هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى فإنّ هذا القول، مجرَّدا عن سياقه، لا يعنِي إلّا تقرير حقيقة واقعة، فالذّكَر شيء، والأنثى شيء آخر. فليس الذكر كالأنثى ولا الأنثى كالذّكَر، ثمّ لا يترتّب على ذلك أيّ تمييز بينهما إلّا بالإيمان والعمل الصالح وما يترتب عليهما.

ولـمّا كانت مريمُ منذورة لله تعالى، وأنّ الله تقبّل ذلك النذر، فقد مَنّ عليها بأن ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: 37]. ولذلك كلّه لم يكن من اللائق أن يتزوّجها بشر، فهي منذورة لله، وتقبّل الله ذلك النّذر، فمَنّ عليها بالرّوح القدس ليهب لها المسيح، عليه السّلام. وقد يُقال إنّ في تقبّل الله لمريم شيئا يُعارض العدالةَ الإلهيّة، إذ النّاس، بموجب تلك العدالة، سواسية، فلماذا اختصّ مريم بهذا التكريم؟ ولو اختصّ غيرها لكانت

---

(1) سورة الرعد 8.

الأخرى قد نالت رضوان الله؟ ولَمّا لم تنل تلك الأخرى ذلك الاصطفاء فربّما ستصير من المغضوب عليهم أو الضّالّين، ولَجرى عليها ما يجري على سائر البشر من حساب وعقاب في الدّنيا والآخرة؟!

وهذا قول لا يقوم على ساق، ولا ينهض بنفسه في مواجهة حقيقة مفهوم (الاصطفاء). فمن حيث النشأة البشريّة لا فرق بين امرئ وآخر. ولكنْ من حيث الوظيفة الاجتماعيّة لا بدّ من فرق بين امرئ وآخر. فالمرء الذي نشأ في بيت صالح، وتربّى على الخلُق الرضيّ، وأخذ نفسَه بالإيمان والعفّة والعمل الصّالح، متخلّصا من الشهوات والرّكض وراء اللّذائذ، وموطّنا نفسَه على تحمّل الأذى والمكاره صبرا واحتسابا، يوفّقه الله لأنْ يتأهّل لوظيفة سامية تختلف عن وظيفة امرئ آخر، لم يأخذ نفسَه بما أخذ به الأوّل. وليس من الضروري أن يكون الثّانِي ضالّا، إذ له أن يكون مهتديا. ولكنْ، كم من النّاس الصّالحين مَن يستطيع أن يتحمّل الأذى الذي وقع على الأنبياء؟ لا نظنّ أنّ أحدا حتّى من الصالحين أنفسهم يستطيع أن يصبر صبر الأنبياء ويجهد جهدهم ويبذل من نفسه ما بذلوه من غير انتظار أجر أو مكافأة من النّاس. فالأنبياء وصلوا إلى درجة عالية من ترويض النّفس حتّى بعد نبوّتهم، إذ تضاعفت مسؤوليّاتهم أمام ربّهم وأمام النّاس. لذا وجب عليهم، وهم بشر أوّلا وأخيرا، أن يسيطروا على أنفسهم وعواطفهم، بمعونة الله، تعالى، وتوفيقه، وأن يستنفروا كلّ قواهم العقليّة والنفسيّة والبدنيّة ليبلّغوا رسالات الله للبشر، بأمانة وتجرّد وإخلاص، حتّى لو كانوا على يقين من أنّ المكذّبين بهم سيلحقون بهم الأذى، خاصّة وأنّ أولئك المكذّبين، عادة، هم كبار القوم وأصحاب الصّولة والجولة في النّاس. وليست مريم بعيدة عن هذا، فحملها بالمسيح من غير زوج أطلق ألسنة السّوء، فصبرت واحتملت، فكم امرأة تستطيع تحمّل ذلك؟! من هنا يأتي الاصطفاء، لا ظُلما، ولا تمييزا بين البشر، إلّا بما ميّز أحدُهم نفسَه من غيره، فيناله الله بعطفه ورحمته ويصطفيه على العالَمين، وهو، تعالى، أعلم بهم فهو خالقهم، فيعلم مَن هو المؤهّل للاصطفاء، ومن هو المؤهل لِما دون ذلك، ومن هو المؤهّل لغضبه وسخطه.

ونلاحظ في الآية 42 من هذه السّورة: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ

وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أنّ لفظة (اصطفاك) جاءت مرتين، فلماذا تكررت اللفظة؟ وهل هما بدلالة واحدة في الموضعين؟ وإن لم تكن الدلالة واحدة، فما دلالة كلّ واحدة منهما؟

نعتقد أن الدلالة مختلفة في الموضعين:

* أمّا الأولى فإنّ مريم قد تقبّلها ربّها منذ أن وضعتْها أمُّها بقبول حسَن: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ...﴾، ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ (36 – 37).

فتَقَبُّلُ الله لها هو الاصطفاء الأوّل.

* وأمّا الاصطفاء الثّاني فحين اختارها لتكون أمّا للمسيح، لأنّها، هي، أيضا، أهّلتْ نفسَها لذلك الاصطفاء الثّاني: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ (الأنبياء 91).

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾ .

وزكريا الذي كفل مريم، ورأى معجزات الله، دعا ربّه أن يهب له وليّا يرثه، كما جاء، أيضا، في الآية السّادسة من **سورة مريم**. وهكذا رزقه الله يحيَى، آية من آياته بعد أن كانت امرأة زكريا عاقرا وبعد أن بلغ الكبر به عتيّا، تماما كما سبق أن رُزق إبراهيم إسحاق وإسماعيل بعد موهَن من عمره.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ

ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

هنا يصدر لها الأمر بأن تقنُت لله، أي أن تعبده، وتسلّم أمورها كلّها إليه، وأن تخشع له، ثمّ أن تسجد مع السّاجدين وتركع مع الرّاكعين، تعبيرا عن العبادة الحقّة الناتجة من عمل صالح، والمبنية على النوايا الطيّبة. ويُلفت نظرنا أنّها حتّى بعد أن تقبّلها الله بقبول حسن لم يُسقِط العبادة عنها بل أمرها بأنْ ﴿ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى

وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: 43]. وهذه كلّها من أنباء الغيب التي لم يكن النّبيّ يعرفها، ولم يكن بين القوم وهم يُلقون أقلامهم أيّهم يكفُل مريم بعد أن رأوا المسيح يحدّثهم وهو وليد حديث الولادة فلم يجدوا بدّا من الإيمان به. كما لم يكن النّبيّ معهم، حين قالت الملائكة لمريم إنّ الله يبشّرها بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدّنيا والآخرة ومن المقرّبين، ويكلّم النّاس في المهد وكهلا ومن الصّالحين. وحين استغربت مريم ذلك إذ إنّها لم يقربها بشر، أخبرتها الملائكة أنّ تلك هي إرادة الله يخلق ما يشاء. فإذا قضى أمرا فإنّما يقول له كُن فيكون. وإذا كانت هذه الأحداث قد وردت، أيضا، في سورة مريم. فإنّ سورة آل عمران تزيد عليها ما أنبأ به المسيحُ بني إسرائيل، حيث أُرسل نبيّا لهم، ومعه آية من ربّه وربّهم أنّه يخلق لهم من الطّين كهيئة الطّير، ثمّ ينفخ فيه فيكون طيرا حيّا بإذن الله، ويُبرئ الأكمهَ، أي: الأعمى. والأبرص، أي: المصاب بذلك المرض الجلديّ المعروف الذي يبقّع الجلد ببقع يختلف لونها عن لون سائر الجلد، ويُحيي الموتى. كلّ ذلك بإذن الله. ثمّ هو قادر على أن يُنبّئهم بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم. وفي كلّ تلك الأفعال آية لهم، إنْ كانوا مؤمنين، كما يزعمون.

وهو قد جاء مصدّقا للتّوراة وليُحلّ لهم بعض الذي سبق تحريمه عليهم، مثل الذي رأيناه في الآية 118 من سورة النّحل، وكذا ما سنراه في الآية 160 من سورة النّساء. فلمّا كان قد جاءهم بآية من ربّهم، وولادته ذاتها آية شهدوها بأنفسهم، وحديثه معهم وهو طفل وليد آية أخرى رأوها بأعينهم، فلم يبق أمامهم إلّا الإيمان بصدق نبوّته فإنّ الله ربّه وربّهم، وعليهم عبادته وإطاعة نبيّه المسيح. فلمّا أحسّ عيسى منهم الكفر سأل القوم، مَن أنصاره إلى الله؟ أي: من الذين سينصرونه لوجه الله، فأجابه الحواريّون أنّهم أنصاره ينصرونه لوجه الله، فيضيفون نصرهم إلى نصر الله له.

والمراد بالحواريّين: الراجعون للحق المؤمنون به. وهو معنى تؤيّده شواهد اللّغة.

والذي تدلّ عليه اللّفظة أنّ الذين آمنوا به ونصروه، هم الرّاجعون إلى الحقّ المؤمنون به. وفي اللّغة: الحَور: الرّجوع إلى الشيء وعنه [1]. ومنه قوله، تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ (الانشقاق 14) أي: لن يرجع. فهؤلاء رجعوا عمّا كان عليه القوم من تكذيب بعيسى إلى الإيمان به.

كما يُمكن أنْ تُحْمَل اللّفظة على (الحوار) بمعنى أنّهم كانوا يلازمون المسيح ويُكثرون من محاورته. والجمع بين المعنيَين ممكن، من حيث إنّهم عادوا عن التكذيب، ولزموا المسيح وكانوا كثيري الحوار معه. ويعرضهم القرآن العزيز باعتبارهم محاوري المسيح والمختصّين بصحبته، إذ كانوا يحاورونه فعلا، على ما تبيّنه بوضوح سورة المائدة.

الحواريّون أعلنوا إسلامهم، بالمعنى الشامل للمصطلح الذي يعنِي الأديان كافّة. فهم قد أسلموا وجوههم لله، وأعلنوا إيمانهم بربّهم واتّباعهم للمسيح، وسألوا ربّهم أن يكتبهم مع الشّاهدين بالحقّ والصدق.

أمّا مكر أولئك الذين أحسّ عيسى منهم الكفر، فقد خاب مكرهم أمام ما فعله الله بهم، إذ لم يمكّنهم من قتل عيسى، بل توفّاه ورفعه إليه، وطهّره من الذين كفروا، أي: أنقذه منهم.

ووعده ربّه أن يجعل الذين اتّبعوه فوق الذين كفروا به إلى يوم القيامة، ثمّ يعود الجميع إلى ربّهم فيفصل بينهم في خلافاتهم واختلافاتهم. أمّا الكافرون فلهم عذاب شديد في الدّنيا والآخرة وليس لهم من ناصر ينقذهم من عذاب الله.

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ﴾ [آل عمران: 58 - 59].

فكما أنّ الله خلق آدم بـ(كُن) كذلك خلق المسيح ليكون كلمة الله.

*** من سورة مريم، الآيات 16 - 37:**

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ

---

(1) العين 98/2.

حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

بمراجعة المواضع التي ذكر فيها التنزيل العزيز موضوع مريم وابنها عيسى نراها متضمّنة المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للنّصرانيّة، وهي المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي تعترف بها الأناجيل، بشكل عامّ، وبصياغات، بطبيعة الأحوال، مختلفة عن الصّياغة القرآنيّة، ولكنّها صياغة لا تمسّ جوهر تلك المبادئ والقواعد التي يُمكن إجمالها في هذه النّقاط:

1 - التوحيد، فخطاب أمّ مريم لربّها أنّها تنذر له ما في بطنها محرّرا، وما تلا

ذلك من خطابها لله من أنّها وضعتها أنثى، دالّ على التوحيد. وكذا خطاب مريم للرُّوح الذي تمثّل لها بشرا سويّا، وأيضا في خطاب عيسى لها، وهو بعد وليد في ساعاته الأولى. إضافة ما نقله عيسى لبنِي إسرائيل من فكرة التوحيد التي كانوا، أصلا، يؤمنون بها، بعد أن جاء ذكرها في توراتهم.

أمّا فكرة التثليث التي تحدّث عنها القرآن الكريم، وما ذكرته بعض الأناجيل، فتضع أمامنا ثلاث مسائل تساعدنا على فهم نشأة هذه الفكرة وتطورها. وتلك المسائل تتمثل في:

* الأولى: أنّه ليس جميع النّصارى عبر التاريخ يؤمنون بالتثليث، وإلى يومنا هذا هناك مَن يعتقد بإله واحد وأن المسيح بشر ونبيّ.

* الثانية: أنّ القائلين بالتثليث مختلفون في مؤدّاه، وحتّى القول المعروف: (ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة) أو (الأقانيم الثلاثة) فُسّر بأشكال مختلفة أُريدَ ببعضها القول بأنّه توحيد خالص، من وجهة نظر القائلين به.

* الثّالثة أنّ القرآن الكريم أثنَى على النّصارى، ووعدهم بالعاقبة الحسنة وقرنهم باليهود والصابئة وبقيّة الفرق المؤمنة بإله واحد، وهو، بطبيعة الحال، يقصد الذين يؤمنون بذلك الإله الواحد. ومن ذلك ما جاء في قوله، تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[1].

2 - ومن هذه الآية نستنتج مبدأ آخر وقاعدة أخرى من المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للنّصرانيّة، وهي الإيمان باليوم الآخر.

3 - وكذلك وجوب العمل الصالح بكلّ ما في كلمة (العمل) من معنى وبكل ما في كلمة (الصالح) من معنى. فالمؤمنون بالله واليوم الآخر، القائمون بالعمل الصالح، لهم أجرهم عند ربّهم، من أيّ دين كانوا. والله، تعالى، هو الذي يفصل بين عباده يوم القيامة.

(1) سورة البقرة 62.

4 - إنّ الله، تعالى، قد أخذ من النّصارى - كما مِن سائر أتباع الأديان الأخرى - ميثاقهم. وسبق أن ذكرنا اختلاف العهد عن الميثاق.

5 - إنّ من المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي جاءت بها النّصرانيّة المودّة والتعاطف، وذلك بشهادة القرآن الكريم: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [1]. ولقد ذكر فريق من المفسّرين أنّ هذه الآيات نزلت بعد الأذى الذي لقيه المؤمنون في مكّة فأمرهم الرسول بالتوجّه إلى الحبشة، أي إنّهم جعلوها مختصّة بالنجاشيّ حاكم الحبشة والقساوسة الذين معه. وقال آخرون إنّها لا تختصّ بالنجاشيّ والقساوسة والرّهبان الذين كانوا معه، بل تشمل كلَّ مَن تنطبق عليه معانيها [2]، وهو ما نميل إليه، فهي حتّى لو كانت نزلت في النّجاشيّ ومَنْ معه فإنّها شاملة عبر الزّمان لِمَن تنطبق عليه. فمناسبةُ نزولِ أيّةِ آيةٍ لا تُجمّد الآية في زمان معيّن ومكان محدّد، وإنّما تكون بدايةً لتواصُلِ حكمها عبر الزمان والمكان.

6 - وقد وصف التنزيل العزيز أهل الكتاب، وهو الوصف الذي يشمل النّصارى، بأنّهم ينقسمون إلى فريقين:

* الذين باؤوا بغضب من الله. وهم مذكورون في عديد من آيات الذكر الحكيم، ومنها الآيات 110 إلى 112 من **سورة آل عمران**.

---

(1) سورة المائدة 82 - 85.

(2) انظر تلك الاختلافات في: تفسير الطبري 5/ 9. والكشاف 1/ 654 - 656.

* الذين قد رضيَ الله عنهم. وهذا الفريق مذكور في الآيات 113 إلى 115 من سورة **آل عمران**: ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [1]. وهذه الأعمال، بحكم الآيات المذكورة، مطلوبة من جميع النّاس بغضّ النّظر عن أديانهم. فمَن قام بها صار من الصالحين الذين سينالون جزاءهم الحسَن.

والحقيقة أنّ جميع جزئيّات قصّة مريم والمسيح تدلّنا على هذه المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي آمنت بها النّصرانيّة، وما زالت سائرة في الإنجيل. ومن هذه القصّة نستلهم مبادئ عامّة وقواعد كلّيّة أخرى نضيفها إلى ما سبق. وقبل أن نعرض لها ننبّه إلى أنّ الذكر الحكيم لم يعرض لتفصيلات حياة السّيدة مريم وحياة ابنها المسيح. ونحن نكتفي بما ذكره القرآن، ولا نذهب وراء الخلافات والاختلافات التي داخلتها الاختلاقات والتخيّلات، فليس المهمّ، من وجهة نظر التنزيل العزيز، معرفة تلك التفصيلات بمقدار أهميّة الاستفادة من واقعات التاريخ، لبناء الحاضر والمستقبل. وما الهدف من النظر في واقعات التاريخ إلّا توظيفها لصالح الإنسانيّة فيما يأتي من تاريخها المعاصر والمستقبلي.

ومن أجل استيفاء الحديث عن تلك المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي تكشف عنها هذه القصّة نبدأ من البداية، منذ أن كانت مريم جنينا في بطن أمّها التي نذرتها لله، وإلى أن صار ابنها المسيح نبيّا، بحسب ما جاء في سورة **آل عمران** [2]، وعلى وفق هذه النّقاط التي نُضيفُها إلى ما سبقَ:

7 - النّذر مقبول كمبدأ من مبادئ النّصرانيّة. فامرأة عمران تنذر لله ما في بطنها "مُحرّراً"، أي: منذورا لخدمة الله فحسب، فكأنّه تحرّر من أيّ عمل آخر.

---

(1) سورة آل عمران 113 - 115.

(2) سورة آل عمران، الآيات 35 - 59.

8 - إنّ المولود الذكر ليس كالمولودة الأنثى، وهذا لا يعنِي التمايز بينهما في الإنسانيّة، بل في الخلق فحسب. ذلك أنّ أمّ مريم لَمّا ولدتها رأت أنّها ولدت أنثى، فعزّ عليها ذلك لِما غلَبَ على أذهان كثير من النّاس من تفضيل الذكَر على الأنثى، فكأنّها بقولها: (إنّي وضعتُها أُنثى) تعتذر عن ولادة أنثى بدلا من وليد ذكر. ثمّ عقّبت على ذلك بقولها: (وليس الذّكَر كالأُنثى). فأما الجملة بين قولَيها (والله أعلم بما وضعت) فهي جملة اعتراضيّة، أراد النّصّ من ورائها أن يؤكّد أنّ الله يعلم بجنس الجنين حتّى قبل أن يولد، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ ﴾[1].

9 - إنّ في هذا مبدأ وقاعدة من المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة للأديان عموما، إذ فيه إشارة إلى أنّ الأنثى إنسان له حقوق وعليه حقوق، وليس من مبرّر لتفضيل جنس على جنس. بل إنّ القرآن الكريم يذهب إلى اعتبار ولادة الأنثى "بُشرى" وذلك قوله:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ ﴾[2]. لذا فإنّ الجنسين سواسية في العمل الصالح وجزائه: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ ﴾[3]. ومثله: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[4]. وكثير غير هذا في القرآن وفي السّيرة النبويّة الكريمة، والأحاديث الشريفة. ولا نعتقد أنّ في الكتب السّماويّة الأخرى ما يناقض هذا. أمّا بعض المرويّات التي تقول بغير ذلك فلا نشكّ في أنّها ابنة زمانها ومكانها، وتدخّلات بعض البشر.

---

(1) سورة الرّعد 8.

(2) سورة النّحل 58.

(3) سورة النّساء 124.

(4) سورة النّحل 97.

10 - ومن مبادئ الأديان أن يُحسن الوالدان تسمية أبنائهما، وأن يجهدا أن يعوّذاهم من الشّيطان الرّجيم. وهكذا قامت امرأة عمران بتسمِيَتِها (مريم) وعوّذتها هي وذريّتها بالله من الشّيطان الرّجيم.

11 - وإثباتا للمبدأ القائل بمساواة الذَّكَر والأنثى، وتأكيدا لرفعة مكانة المرأة وتكذيبا لِمَن جعل الذّكر أفضلَ من الأنثى، جاء في قصّة مريم ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران: 37]. وقد كان القوم حينذاك يعتقدون أنّهم إنْ نذروا أولادهم الذكور تقبّل الله منهم، أمّا إنْ نذروا الإناث فإنّ الله لن يتقبّل منهم ذلك النَّذر، أيّا كان المعنى الذي تحمله كلمة النَّذْر في هذا السّياق. سواء كان وقف المنذور لخدمة بيت من بيوت العبادة، أم جعل كلّ جهده في خدمة الله، أم الدّعاء من الله تعالى أن يجعله نقيّا طاهرا لا يَعْلَقُ حبّ الدّنيا بقلبه. أو غير ذلك من معانٍ لم يستطع المفسّرون، وعلماء الأديان والأجناس البشريّة، أن يصلوا إلى القول الفصل فيها، خاصّة أنّ الزّمان قد تغيّر وعادات النّاس قد تغيّرت وتبدّلت. فمريم، قد تقبّلها الله بقبول حَسَن وأنبتها نباتا حَسَنا، مشيرا بذلك إلى أنّه ليس من فضل للذكر بحكم كونه ذكَرا، ولا انتقاصَ من الأنثى بحكم كونها أنثى، وإنّما الفضل لأيّ منهما يعود إلى السّلوك، أي إلى طلب العلم النّافع وأداء العمل الصالح، بكلّ ما في كلمَتَي (النافع) و(الصالح) من معانٍ.

12 - إنّ الرّزق من الله، فهو يرزق مَن يشاء بغير حساب. فبعد أن كفلها زكريا، مشرفا على تربيتها وتنشئتها، كان يتفقّد أحوالها وشؤونها. وقد أصابه العجب العُجاب لأنّه كلّما دخل عليها المحرابَ وجد عندها رزقاً، غير ما كان هو بنفسه يوصله إليها، فسألها عنه: ﴿ قَالَ يَـٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37]. وعلينا، هنا، أن نلتفت إلى أنّ هذه معجزة حصلت لمريم كمعجزة حملها بالمسيح، فلا يصحّ للمرء أن يتكاسل عن طلب الرّزق بحجّة أنّ الله تعالى لو يشاء لرزقه، فالله شاء أن يرزق جميع الخلق على وَفق قوانين الكون وسُنّة الحياة، أي بالسّعي وبذل الجهد اللازم للحصول على الرّزق الحلال. فلا ينبغي لأحد أنْ يطالب بمعجزة كتلك المعجزة، فيتوانَى عن الكد

والسّعي والعمل الجادّ. وعلينا، أيضا، أن نتيقّن من أنّ أديان السّماء جميعا، ومنها الإسلام، أمرتْ في كثير من النّصوص بالكد والسّعي والعمل الجادّ. ومن الملاحظ في السّياق أنّ زكريّا نفسَه كان متعجّبا من ذلك الرّزق، لأنّه يدري أنّ الرّزق لا يصل إلّا لِمن يسعى وراءه.

13 - ومن تلك المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي تعترف بها النّصرانيّة وسائر الأديان أهمّيّة الدّعاء، أي التوجّه إلى الله ليعين الداعي ويحقّق له ما يريده، كدلالةٍ على تسليم المرءِ الأمرَ كلّه لله. ففي هذه اللّحظة بالذات، ولأنّ زكريّا كان محروما من الذرّيّة دعا ربّه: ﴿ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [آل عمران: 38]. وسبق أن رأينا أنّ الأديان جميعا قد آمنت بالدّعاء وسيلة للتعبير عن الرّغبة في الحصول على شيء ما، سواء كان عامّا أم خاصّا، كالدّعاء الذي توجّه به آدم ونوح وإبراهيم وغيرهم مِمّن سبق ذكر المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة لِما جاؤوا به من أديان.

14 - ومن تلك المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة أنّ الله يستجيب لِمَن يشاء من عباده. ومن أدلّة ذلك استجابته لدعاء زكريّا وهكذا ولد له يحيَى ليكون من الصالحين، سيّدا ونبيّا يقف إلى جانب المسيح ويصدّق به وبنبوّته في مواجهة المعاندين، كما وقف هارون إلى جانب موسى.

15 - وثمّة مبدأ آخر، هو أنّ الله يصطفي مَن يشاء من عباده لتبليغ رسالاته أو لأيّة مهمّة أخرى يؤدّيها الشخص المصطَفَى للنّاس. وقد سبق أن تطرّقنا لهذا الموضوع في اصطفاء الله لإبراهيم. وقلنا إنّ الاصطفاء لا يأتي عَبَثا أو بضربة حظّ، بل بسعي المرء نفسه، إلى تطهيرها والسّموّ بها، وآنذاك قد يصل إلى درجة الاصطفاء. وهكذا أخبرت الملائكةُ مريمَ أنّ الله قد طهّرها واصطفاها على نساء العالمين. ودعتها الملائكة لمواصلة عبادتها لله. فالاصطفاء، في حدّ ذاته، لا يُغنِي عن المرء شيئا إذا لم يواصل تزكية نفسه. وقد بيّن القرآن مبرّرا لذلك الاصطفاء أنّها أحصنت نفسها عن الابتذال [1].

(1) انظر الآية 19 من سورة الأنبياء، والآية 12 من سورة التحريم. وغيرهما..

16 - وللوصول بهذه المبادئ إلى الغاية من وراء ذكرها، بيّن القرآن أنّ كلّ هذا من أخبار الغيب التي لم يكن يعرفها رسوله الكريم، ولا قومه، فهي تُوْحَى إليه: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: 44].

17 - ضرورة مواصلة تزكية النّفس والسّموّ بها إلى ما هو أرفعُ شأنا من الحال الحاضر مهما كان ساميا وزكيّا. ذلك أنّه قد يُخالط بعضَ النّاس شيء من التكبّر حين يرى نِعَمَ الله تترَى عليه، فيأخذه ذلك إلى غير الحقّ. ولذا نرى أنّ مريم قد واصلت سيرتها العطرة، وتسامت بتزكية نفسها، حتّى تأهّلت لأن تحمل بالمسيح الذي هو كلمة من الله ألقاها إليها.

18 - ثمّ يأتي وصف المسيح بأنّه سيصير ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.... ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾. ليعبّر عن الإيمان بمعجزة ميلاد المسيح، وأنّه نبيّ مرسَل إلى بنِي إسرائيل بعد أن يعلّمه الله الكتابَ والحكمة والتوراة ويؤتيه الإنجيل.

أمّا الحكمة والتوراة والإنجيل فمعروفة مشهورة، وأمّا (الكتاب) فيبدو أنّ المقصود به العلم، أو الكتابة [1]. وربّما أدّت اللّفظة، هنا، جملة من المعاني الأُخرى ذات العلاقة بلفظة (الكتاب) التي وردت مرارا في التنزيل العزيز [2].

19 - تؤمن النّصرانيّة بالمعجزات، كسائر الأديان الأخرى، ومنها الإسلام، فحين طالب بنو إسرائيل النّبيّ عيسى بمعجزة تبرهن على صدقه، قال لهم: ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا

(1) تفسير ابن كثير 1 338.

(2) انظر (موسوعة معاني ألفاظ القرآن الكريم) د. هادي حسن حمودي. مادة (كتب). الاسيسكو 2011.

تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

20 - وكعادة الأقوام السّابقة كذّبوه إلّا القلّة منهم. فأخذ الله على نفسه عهدا: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾. وهذا جزء من العهد والميثاق بين الله والنّاس.

لقد رأينا في آيات سورة آل عمران المارّ استعراضها أنّ تلك الآيات لم تتحدّث تفصيلا عن ولادة المسيح، بل اكتفت بالإشارة إليها أمّا تفصيل واقعات تلك الولادة فقد ذُكرت في سورة مريم، حيث انتبذت من أهلها مكانا قصيّا، وأجاءها المخاض إلى جذع النخلة، فتمنّت الموت على الحياة، لأنّها، وإنْ كانت واثقة أنّ ابنها كلمة من الله، فإنها في حيرة من مواجهة أهلها وقومها. ولكنّ الله تعالى، لم يدعها في حيرتها، بل قيّض لها فرَجا قريبا، حيث ناداها وليدها ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ

ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [1].

ويمثّل هذا النّصّ جزءا آخر من رسالة المسيح. وهو جزء يتضمّن أشياء أخرى من المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة نضيفها، هنا، إلى ما سبقَ ذِكْرُه:

21 - الصّلاة والزّكاة ما دام حيّا.

22 - والبرّ بوالدته.

23 - وألّا يكون جبّارا شقيّا. أي أن يكون إنسانا محبّا للخير داعيا له، محبّا للسلام والأمن والاطمئنان، عاملا على نشر المحبّة والألفة بين النّاس.

وفي النّصّ شيء قد يوحي بسؤال لبعض المتدبّرين في غايات هذه القصّة، ذلك أن الله، تعالى، قال في محكم كتابه الكريم: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [2]. فهل يعني هذا أنّ الله هو الذي شاء أن يقتتل الذين جاؤوا من بعدهم؟ وإذا كان الأمر كذلك فيكون الاقتتال قدرا لا فكاك منه!

24 - إنّ إجابة هذا السّؤال يقودنا إلى مبدأ آخر وقاعدة كلّيّة أخرى وذلك أنّ الأديان كلّها تدعو للأمن والسّلام والاطمئنان. ولو التقى الأنبياء في عصر واحد ومكان واحد لَما اقتتلوا ولَما اختلفوا. فالأمر ليس على مُفْتَرَض السّؤال، إطلاقا. فإنّ الله دعا النّاس إلى السّلام وتوفير الأمن والاطمئنان، وإلى الحوار بالحُسْنَى

---

(1) سورة مريم 24 - 35.

(2) سورة البقرة 253.

والكلم الطيّب والى أن يَدفعوا السّيّئةَ بالحسنة. ووضع لهم المبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي تساعدهم على وضع القانون الذي يضبط المسيرة الاجتماعيّة، وينمّي في النّفوس حبّ السّلام والأمن والاطمئنان، ثمّ الأخذ على يد الذين يعبثون بالأمن والاطمئنان، ويثيرون الحروب والفتن التي من شأنها أن تقتل الأبرياء وتشرّد الآمنين، وتُلحق بالنّاس الأضرار الفادحة من غير نتيجة تستحقّ كُلَّ تلك الضّحايا.

25 - فالمبادئ العامّة والقواعد الكلّيّة التي تتجلّى في الآية السّالفة، إذن، لا تعنِي أنّ القتال قدر لا فكاك منه، ولكنّها تعنِي أنّ كُلًّا من الخير المتمثّل بالأمن والاطمئنان والسّلام، من جهة.. والشرّ المتمثّل بالعدوان المنبثق منه الاقتتال والفوضى، من جهة أخرى.. جزء من تركيبة الإنسان، لأنّه مجبولٌ من طينة الأرض، وفي قرارة نفسه العنصران معا، الخير والشرّ. ثم انّ النّاس ينقسمون إلى فريقين: فهناك مَن يسير حسب القِيَم الهابطة فيلجأ إلى الاقتتال، أو يسبّبه عن طريق العدوان، وهناك من يأخذ بالقِيَم السّامية فلا يلجأ للحرب والاقتتال إلّا إذا لم يجد غيرهما وسيلة لإيقاف العدوان وردّه وردعه، وإنقاذ النّاس من شروره وشرور القائمين به. وهذان الصّنفان من النّاس موجودان في كلّ زمان ومكان، أيّا كان الدّين الذي يَدينون به، وأيّا كان المعتَقَد الذي يعتقدونه. وهذا ما سبقت الإشارة إليه في قصّة الخلق حيث جاء في **سورة البقرة** قول الملائكة: ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾[1] فهم كانوا على علم بأنّ تركيبة الإنسان ستؤهّله للإفساد في الأرض وسفك الدّماء. وأعلمهم ربُّهم أنّ ذلك الإنسان مؤهّل أيضا للخير، فله الخيار وعليه نتيجة ما يقول ويفعل.

****

(1) سورة البقرة 30.

المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، حقّقه محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1953.

- أحمد بن فارس وريادته في البحث اللغوي، د. هادي حسن حمودي،273 - 355. عالم الكتب، بيروت 1987.

- الإعجاز العددي، عبد الرزاق نوفل، القاهرة 1978.

- إنباه الرواة على أنباه النّحاة، القفطي، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1957 - 1958م.

- الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، ابن الأنباري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1380 هـ.

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ليبزك 1846.

- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، حقّقه د. هادي حسن حمودي، بيروت 1991.

- البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسي، القاهرة 1328 هـ.

- البداية والنهاية، ابن كثير، ط. السعادة، القاهرة، بلا تاريخ.

- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1975، وبيروت 1988.

- بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، دار التحرير، القاهرة.

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، القاهرة 1326 للهجرة.

- البيان والتبيين، الجاحظ، حققه عبد السلام هارون، القاهرة 1960.

- تأملات في أسئلة القرآن الكريم، د. هادي حسن حمودي، بيروت 2007.

- تفسير ابن كثير، بإشراف محمد شراد، بيروت 2004.

- تفسير أحمد بن فارس، حقّقه د. هادي حسن حمودي، بيروت 2008.

- تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي، دمشق، بيروت، 1999.
- تفسير الجواهر الحسان، الثعالبي، القاهرة 1341 هـ.
- تفسير روح المعاني، الآلوسي، القاهرة، بلا تاريخ.
- تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن) بيروت 2001.
- تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة، حققه أحمد صقر، القاهرة 1958.
- تفسير القرطبي، انظر (الجامع لأحكام القرآن).
- التّفسير الكبير، الفخر الرازي، القاهرة 1352 هـ.
- تفسير الكشاف، الزمخشري، حقّقه محمد عبد السلام شاهين، بيروت 1995.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، القاهرة 1935.
- تنزيه القرآن للقاضي عبد الجبّار، دار النهضة، بيروت، بلا تاريخ.
- الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، القاهرة 1939.
- جمهرة اللغة، أبو بكر بن دريد، حقّقه د. رمزي منير بعلبكي، بيروت 1987.
- الحروف والأدوات، الخليل بن أحمد، حققه د. هادي حسن حمودي، مسقط 2006.
- الخصائص، ابن جنّي، حقّقه محمد علي النجار، القاهرة 1952 - 1956. والجزء الأول من طبعة دار الهلال 1331 هـ، 1913 م.
- الخليل وكتاب العين، د. هادي حسن حمودي، مسقط، 1994.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، حقّقه د. هادي حسن حمودي، ط، 2، بيروت 1992.
- الصاحبي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، حقّقه د. مصطفى الشويمي، بيروت 1963 - 1964.
- صحاح اللغة، الجوهري، حقّقه د. أحمد عبد الغفور، القاهرة 1956.
- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، القاهرة 1954.
- (كتاب) العين، الخليل بن أحمد، تحقيق وترتيب على الألفباء، د. هادي حسن حمودي، مسقط 1994.

- غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلَّام، الهند 1964.

- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، القاهرة 1301 هـ.

- الكتاب، سيبويه، حقّقه عبد السلام هارون، القاهرة 1966.

- لسان العرب، ابن منظور، بيروت 1956.

- (كتاب) الماء لأبي محمد الصحاري، حقّقه د. هادي حسن حمودي، ط 1، مسقط 1996.

- مجمل اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق د. هادي حسن حمودي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد المخطوطات العربية، الكويت، 1985.

- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تفسير النّسفي. القاهرة 1344 هـ.

- معالم التنزيل، البغوي، ط. التجارية، القاهرة، بلا تاريخ.

- معاني القرآن، أبو زكريّا الفرّاء، عالم الكتب، بيروت، 1980.

- معجم البلدان، ياقوت الحموي، بيروت، بلا تاريخ.

- معجم مقاييس اللّغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، حققه عبد السلام هارون، القاهرة 1969.

- المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، أبو منصور الجواليقي، حقّقه أحمد محمد شاكر، القاهرة 1361 هـ.

- مغنِي اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، حقّقه سعيد الأفغاني، بيروت 1998.

- مفاتيح الغيب، الرازي، القاهرة 1321 هـ.

- مفتاح العلوم، السكّاكي، القاهرة 1937.

- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، القاهرة 1324 هـ.

- نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء، الأنباري، حقّقه عطية عامر، 1963.

- النّهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، القاهرة 1311 هـ.

- وفيات الأعيان، ابن خلكان، حقّقه د. إحسان عباس، بيروت، بلا تاريخ.

فهرس المحتويات

QAṢAṢ AL-QUR'ĀN
MIN AL-RAMZ ILĀ AL-WĀQI'

STORIES OF THE CORAN
FROM SYMBOLISM TO REALITY

A COMPREHENSIVE ANALYSIS

by

Prof. Dr. Hadi Hassan Hammoudi



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban